

البربرية الإسلامية
عند الرسول صلى الله عليه وسلم

أبو محمد بن عبد الله



المكتبة العصرية
مكتبة ابن سينا

سلسلة الكتاب التزويج الأسلاف

أبو محمد بن عبد الله

أبو محمد بن عبد الله

المكتبة العصرية

البرية (البرية)
عند (البرية)

مكتبة
الشيخ
الشيخ

سلسلة الكتاب التربوي الإسلامي

إشراف

الدكتور محمد منير سعد الدين

..

البركة الإسلامية عند الوصال الغزالي

أبواب روحية وحيدة لله

المكتبة العصرية
مكتبة - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

شركة إنشاء شريف للأضيائي
للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النورية للطباعة والنشر
المطبعة العصرية للنشر

بيروت - ص ١١/٨٣٥٥ - تلفاكس ٠٠٩٦١١ ٦٥٥٠١٥

صيدا - ص ٢٢١ - تلفاكس ٠٠٩٦١٧ ٧٤٣١٧

تقديم

تعاني المكتبة العربية من فقر شديد في الكتابات الحديثة حول موضوع التربية الإسلامية رغم ما نشر؛ فنحن بأمس الحاجة لأن نسبر أغوار هذه التربية ونكشف جوانبها لتعميق فهمنا لها والاستفادة من إيجابياتها في تنشئة الأجيال من أبنائنا التنشئة الصحيحة.

والكتاب الذي بين أيدينا هو أحد الكتب في سلسلة نسعى من خلالها لنشر ما يتعلق بالتربية الإسلامية ومن أخرى بالقيام بهذا من أبناء هذه التربية الذين يلاحظون مدى إغفال مراجع تاريخ التربية المؤلفة في الغرب لموضوعها على الرغم من ذلك الازدهار الذي عاشته الحضارة العربية الإسلامية عامة والتربية الإسلامية خصوصاً في العصور الوسطى، واعتماد النهضة الأوروبية في غذائها الفكري والثقافي على نتائج هذه الحضارة.

من هنا انطلقنا في هذه السلسلة التي هي خطوة متواضعة نأمل أن تسد حاجة قائمة تهتم كل المشتغلين بالتربية والمعنيين بأمرها.

والحديث في هذا الكتاب حديث ورحلة ممتعة مع الإمام الغزالي الفقيه والاجتماعي والصوفي والمربي. إنه موسوعة عصره في مجالات معرفية متعددة ومنها المجال التربوي.

وقد أجاد الباحث وبذل جهداً يقدر ويثمن في تقديم باقة عطرة لآراء وأفكار الإمام الغزالي التربوية حيث عرض هذه الأفكار والآراء وحللها وفسرها.

ولقد لاحظت على الأخ أيوب وهو يحضر رسالة الماجستير قدرته على

القراءة واستيعاب ما يقرأ، وتنظيم ما يقرأ وفق نسق فكري علمي، نسق المفكر الباحث الذي يسعى للحقيقة أينما وجدها، وهكذا كانت دراسته عن التربية الإسلامية عند الإمام الغزالي والتي حصل عليها على درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية من كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، وكان موضع تقدير من لجنة المناقشة، وقد توخينا أن لا تبقى هذه الدراسة على أرفف المكتبات تعلوها الغبار، ويأكلها العث، بل لتكون علماً ينتفع به المهتمون في مجال التربية الإسلامية.

وما نرجوه أن يجد القاريء في هذا الكتاب وغيره من سلسلة الكتاب التربوي الإسلامي النفع والفائدة.

والله ولي التوفيق.

د. محمد منير سعد الدين

شكر وتقدير

لقد جعل الله الشكر مفتاح كلام اهل الجنة فقال تعالى : ﴿وَقَالُوا آلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُكُمْ﴾^(١). والشكر كما يقول الغزالي «ينتظم من علم وحال وعمل. فالعلم هو الأصل فيورث الحال، والحال يورث العمل. فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم. والحال هو الفرح الحاصل بأنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه»^(٢).

أما وإنني قد انتهيت من إعداد هذا البحث لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر للعلي التقدير على ما وفقني إليه.

ويجدر بي في هذا المقام أن أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ الدكتور نايف معروف على ما قدمه لي من نصيح وتوجيه وإرشاد لإغناء البحث وإثرائه.

كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى المربي الفاضل الأستاذ الدكتور محمد منير سعدالدين على ما خصني به من رعاية، وما قدم لي من توجيه وإرشاد سهل لي مهمتي ويسر لي طريقي.

ولا بد من توجيه الشكر إلى كافة العاملين في كلية الإمام الأوزاعي على ما قدموه من مساعدة، خاصة الأخوة والأخوات العاملين في مكتبة الكلية، هذا إلى جانب شكري وتقديري لجميع العاملين في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت وجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية وجامعة بيروت العربية.

(١) سورة الزمر، آية: ٧٤.

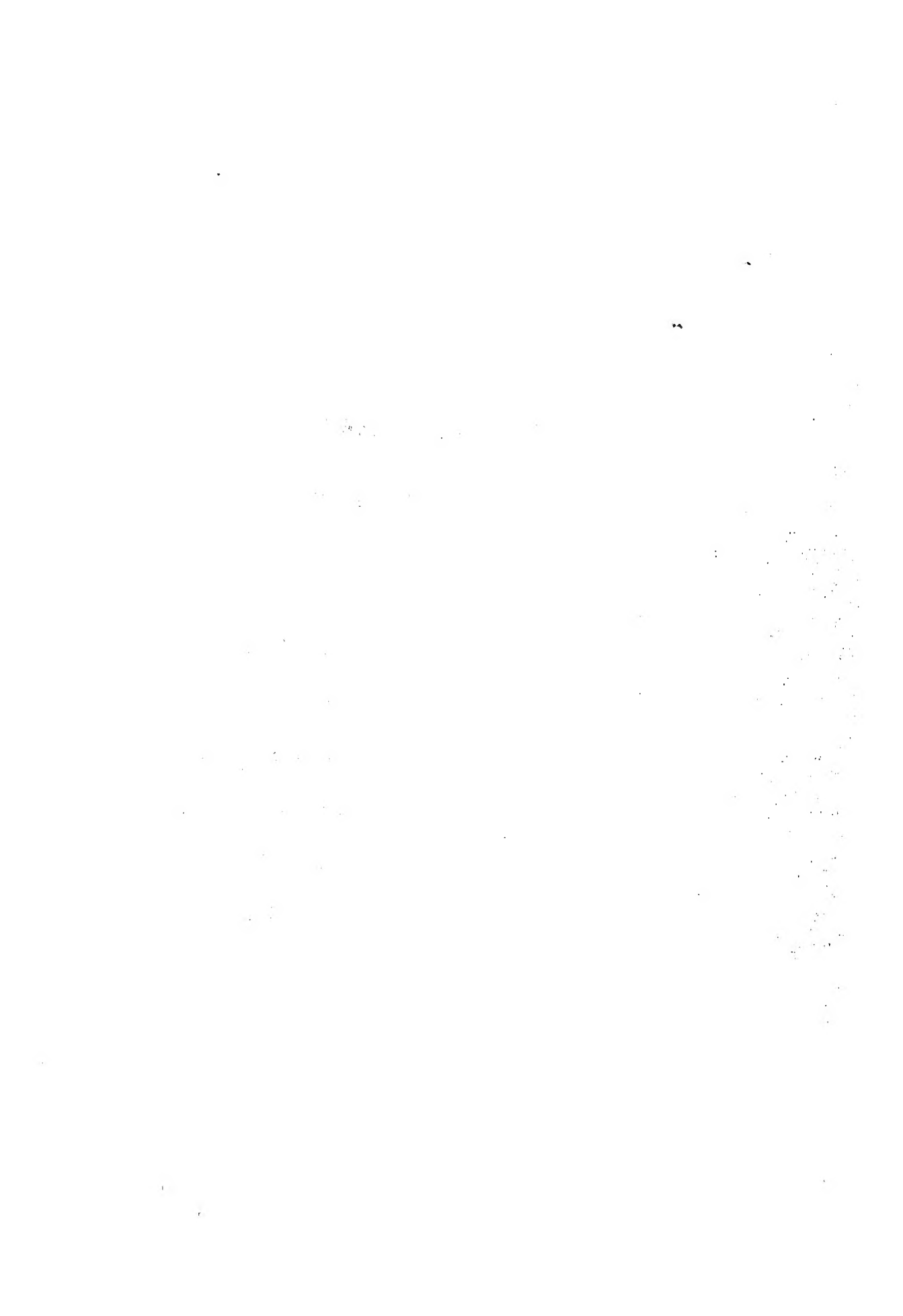
(٢) الغزالي: احياء علوم الدين، ج ٤، ص ٨٦.

كما أوجه الشكر إلى كل يد بيضاء ساعدت في إعداد هذا البحث وإخراجه، والله أسأل أن يجعل جهدنا جميعاً فيه خالصاً لوجهه تعالى فيما يحب ويرضى من خير للإسلام والمسلمين إنه سميع مجيب.

الفصل التمهيدي

الإطار العام للبحث

- مقدمة
- مشكلة البحث
- الهدف من الدراسة
- منهج البحث
- الدراسات السابقة
- حدود البحث
- خطوات البحث



ـ مقدمة

إن مصاحبة الإمام أبي حامد الغزالي في كتاباته لمهمة شائكة وشيقة .
فالبحث عن اللآليء في بحر لحي، يحتاج لمهارة وكد وإعمال فكر، لولوج
الطريق، وبلوغ المرام، ومن ثم ضمان العودة بسلام .

والتربية عند الغزالي، لا يمكن فصلها عن الفكر الإسلامي وبالتالي فإن
رسالة التربية عند الغزالي، وجه من وجوه التعبير عن التربية الإسلامية، «ومنطق
الأشياء يقضي بأن نحكم على الغزالي... في ضوء الفكر الإسلامي الذي يفترض
أن يكون... متأثراً به وليس العكس»^(١).

فموضوع التربية والتعليم موضوع عظيم الشأن إستأثر باهتمام جميع الأمم
عبر كل العصور . واهتم به العلماء والمفكرون فكتبوا فيه الكتب وألفوا فيه
الرسائل ومازالوا على هذا النهج سائرين . وليس هذا بغريب لأن التربية والتعليم
أساس كل تقدم وإصلاح، وعنوان كل تغيير ونهضة، والطريق الموصل إلى
تهذيب النفوس وتثقيف العقول وبناء الأمم .

والمسلمون كانوا سباقين لغيرهم في هذا المجال، فقد عالج أئمتهم
ومفكروهم وعلمائهم موضوع التعليم منذ العهود الأولى وكانت لهم مواقف وآراء
طريفة، ومناهج أصيلة في هذا المضمار .

(١) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي (كما يبدو من رسالة أيها الولد)، ص ١٠.

وبما أن الإسلام منهج حياة شامل ومتكامل، فلا ضرر أن تكون التربية ملازمة له منذ بزغ فجره، وانتشر نوره، على يد الرسول الكريم «الذي أرسله الله تعالى إلى الناس كافة يعلمهم أمور دينهم ودنياهم ويرشدهم إلى الطريق المستقيم». فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول معلم في الإسلام. وقد قامت التربية الإسلامية منذ بدء ظهورها على أمرين هما القرآن والسنة. فلا غرابة أن يمتاز الإسلام بضرب خاص من التربية تختلف في أهدافها ووسائلها عن ألوان التربية الأخرى التي سادت حضارات شتى على مرّ الزمان واعتمدت دعائم مغايرة لتعاليم الإسلام»^(١).

فليس غريباً إذن على عالم كالإمام الغزالي أن يقتفي أثر الرسول ويسير على نهجه في تقدير العلم والعلماء وجعل التعليم رسالته في هذه الحياة... وهكذا كان. فلقد قضى الغزالي حياته في التعليم، تارة متعلماً وطوراً معلماً إلى أن سعد بلقاء ربه.

ـ مشكلة البحث

إن المتتبع لتاريخ التربية يجد أن الذين كتبوا في هذا المجال خاصة الغربيين منهم أمثال «بول مونرو» و«جود» و«روبرت يوليك» قد أهملوا دور الإسلام ومفكره. ولئن كان هناك إلتفاتات في السنوات الأخيرة فهي لا تتعدى السطور، ولا تشمل من المعلومات إلا النزر القليل، الشيء الذي يسيء إلى التربية بشكل عام، علاوة على أنه لا يفي بقدر علماء عظماء كالغزالي وابن خلدون وغيرهما من مفكري المسلمين الذين «أدركوا أن العلم وحده لا يكفي ليكون سلاح المعلم، وعرفوا أن لا بد من أن يضاف إلى المعلم فن التربية ليتمكن المدرس من دراسة نفسية الطفل والنزول إلى مستواه، والاتصال العاطفي به، ليكون ذلك جسراً يوصل خلاله العلم إلى عقل التلميذ»^(٢).

(١) أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، ص ٨.

(٢) أحمد شلبي: التربية الإسلامية، ص ٢١٠.

«والذي ينظر إلى العالم الإسلامي يجد أن صراعا يدور به، وهذا الصراع الفكري يهتم به اعداء الإسلام كل اهتمام. وهدفهم منه تقليل ثقة المسلمين بأنفسهم وانتزاعهم من ماضيهم وقطعهم عن جذورهم العريقة، وللأسف وقع بعض المسلمين في الفخ فصدقوا ما قاله أعداء الإسلام وراحوا يرددون أقوالهم ويقللون من أهمية المسلمين حتى أوشك الصراع الفكري أن يحقق أهدافه»^(١).

ولمواجهة هذا الواقع نجد أنه لزاماً علينا أن نتحرك بوعي من إيماننا بعقيدتنا وفكرنا للوقوف أمام «تحديات فقدان الذاتية والأصالة الإسلامية الأمر الذي نتج عنه فرض المناهج الغربية في شتى نواحي الحياة وبخاصة في ميدان التربية والتعليم ووضعها موضع التطبيق»^(٢). فكان لا بد أن ننفض غبار الجمود وندفع عن أنفسنا رغبة الغرب في العدوان حتى نحفظ كياننا. وهنا تبرز أهمية مشكلة التربية الإسلامية إلى الواجهة لتصبح موضع تفكير كل مسلم غيور يتطلع إلى مستقبل يرى فيه التربية الإسلامية المعاصرة تنير أرجاء هذه المعمورة.

وعندما نتكلم عن التربية الإسلامية عند الغزالي، فإننا لا ندعو إلى تربية إسلامية لا تتلاءم مع العالم الذي نعيش فيه لأننا ندرك أن «التربية الإسلامية ليست تربية محافظة فحسب، وإنما هي تربية مجددة أيضاً، فالإسلام صالح لكل زمان ومكان، والمسلمون تتجدد أحوالهم بتجدد ظروف هذا الزمان والمكان. ولذلك كان على التربية الإسلامية أن تكون متجددة لتواجه متطلبات العصر ولتفي بالمطالب المتجددة لحاجات المسلمين ومصالحهم»^(٣).

– الهدف من الدراسة

إن المتتبع لآراء الغزالي التعليمية والتربوية يرى أنها تعكس فكره الديني، فلقد حدد أهداف التربية وطرائق التعليم، إضافة إلى أنواع العلوم وأولوياتها، وما

(١) أحمد شليبي: تاريخ المناهج الإسلامية، ص ٢١. ٢٢.

(٢) عبد الغني النوري: التربية الإسلامية بين الإصالة والمعاصرة، ص ٥٢.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

يترتب على كل من المعلم والمتعلم من أداب، بشكل يمكننا من القول إنّ الغزالي قد نجح في تقديم نظام تربوي إسلامي ملبياً لحاجات المجتمع الإسلامي في العصر الذي عاش فيه، بإسلوب ومنهج يتمشى مع روح العصر وخصوصياته. وبهذا يكون الإمام قد أسهم إسهاماً فاعلاً في دفع عجلة التربية إلى الأمام.

ونود من خلال هذا التنويه أن يدرك القارئ الكريم إنّ الهدف من البحث لا يقف عند حدود إحقاق الحق وإبراز دور المفكرين المسلمين وإسهاماتهم في الحضارة الإنسانية أو الكشف عما قدم الإسلام والمسلمون للبشرية جمعاء، إنما يتعدى ذلك - في محاولة متواضعة - للسعي باتجاه وضع الماضي في خدمة الحاضر والمستقبل، سيراً على خطى السلف الصالح في التمسك بالفكر الإسلامي ليقودنا إلى ما فيه صلاح ديننا ودنيانا في زمن «أصبحت المادة والتكنولوجية الحديثة هي الهدف الذي نسعى إليه وأصبح الكون هو مبحثنا العلمي. ونسينا أن نفكر في خالق هذا الكون، كما نسينا أن نبحث في أنفسنا حتى يكون هناك توازن بين الفكر المادي والإحساس الروحي»^(١). هذا الأمر شجع التربويين على الاستغراق في دراسة «نظريات التربية الأجنبية التي لا صلة لها بالدين والإسلام. واشتملت صفحات مؤلفاتهم على نظرية أفلاطون التربوية ونظريات روسو وديوي... أما نظرية التربية في الإسلام فلم نجد لها ذكراً في الكتب التربوية العربية أو الأجنبية»^(٢). وكان أن «درس الطلاب العرب هذه النظريات، وخرجوا منها بفلسفات متعددة وطرائق في التدريس شتى ثم تركوا لحالهم يعتمدون على أنفسهم في اختيار الفلسفة التعليمية التي تناسبهم... وأصبح مصير العملية التعليمية متوقفاً على قدرة وكفاءة كل معلم من الناحية الشخصية»^(٣).

(١) أمينة أحمد حسن: نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ص ٦.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

بناء عليه فإن اهتمامنا في تقديم الفكر التربوي الإسلامي عند الغزالي بصياغة ومنهجية تتلاءم وحاجات العصر التربوية يهدف إلى عمل شيء ما على طريق مواجهة أزمة التربية الإسلامية والسعي لإيجاد نظام تربوي إسلامي يعيد إلينا كرامتنا ويعود بنا إلى الإسلام الذي كان وما زال وسيبقى العلاج الشافي من كل انحطاط وتخلف.

- منهج البحث

لا بد عند أية دراسة أن يختار الباحث طريقة البحث التي تتناسب ومسار بحثه، خاصة وأن البحوث التربوية تنوع طبقاً لطريقة إجرائها، وأفضلها خمسة أصناف:

١ - طريقة البحث التاريخي.

٢ - طريقة البحث الوصفي.

٣ - طريقة البحث الارتباطي (العلائقي).

٤ - طريقة البحث المقارن.

٥ - طريقة البحث التجريبي^(١).

وفيما يتعلق بالطريقة الأولى للبحث يهتم الباحثون بالمنهج التاريخي بصفة خاصة، لاتساع المجالات التي يستخدم فيها. فإلى جانب تطبيقه على المادة التي يطلق عليها التاريخ، يستطيع الباحث أن يستخدمه أيضاً في مجال العلوم الطبيعية والقانون والطب وغيرها، للتحقق من معنى الحقائق القديمة وصدقها، أي أن الباحث قد يستخدم أساليب البحث التاريخي حتى إذا لم يشغل بدراسة تاريخية بحثة^(٢).

أما بالنسبة لطريقة البحث الوصفي «يسعى الباحثون إلى أكثر من مجرد الوصف، فهم ليسوا أو ينبغي ألا يكونوا مجرد ميوين أو مجدولين، يجمع

(١) محمد سامي هنا: نشرة صادرة عن الرئاسة العامة لوكالة الغوث الدولية E/ر.1/87، ص ٦.

(٢) فان دالين: مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ف ٩، ص ٢٧٢.

الباحثون الأكفاء الأدلة على أساس فرض أو نظرية ما ويقومون بتبويب البيانات وتلخيصها بعناية ثم يحللونها بعمق في محاولة لاستخلاص تعميمات ذات مغزى تؤدي إلى تقدم المعرفة^(١).

وحيث إن طبيعة البحث الذي نحن بصدده تستند إلى حقائق تاريخية لا بد من إيرادها وآراء فكرية وتربوية، تحتاج في كثير من الأحيان إلى تحليل وتعليق وتصنيف، ارتأيت أن يقوم منهج الدراسة على طريقة البحث التاريخي والوصفي، على أمل أن يكون ذلك عاملاً فاعلاً في تحقيق الأهداف المخطط لها بعونه تعالى.

ـ الدراسات السابقة

لا شك أن هناك عدداً من الدراسات والبحوث القيمة سبق أن تناولت الفكر التربوي عند الإمام الغزالي. إلا أن هذا لا يلغي الحاجة لمزيد من الدراسات التي قد توفق في الوصول إلى إضافات جديدة قد تلقى مزيداً من الضوء على الفكر التربوي الإسلامي بشكل عام والتربية عند الإمام الغزالي بشكل خاص، حيث الحاجة ماسة في هذه الأيام لإيجاد نظام تربوي يلبي حاجات المجتمع الإسلامي في كافة الحقول ومختلف المجالات.

ومن الدراسات التي تطرقت للفكر التربوي عند الإمام الغزالي:

١ - بحث تحت عنوان: المذهب التربوي عند الغزالي، أعدته فتحية حسن سليمان للمشاركة في المؤتمر الذي عقد بدمشق احتفاء بالذكرى المئوية التاسعة لميلاد الغزالي وذلك من ٢٧ إلى ٣١ آذار سنة ١٩٦١. وبين يدي نسخة عن البحث المذكور.

٢ - بحث تحت عنوان: أبو حامد الغزالي فلسفته وأراؤه في التربية والتعليم، وهو عبارة عن دراسة قدمها محمد نبيل نوفل لنيل درجة الماجستير عام

(١) المرجع السابق ف ١٠، ص ٣١٣.

١٩٦٧. وما زال البحث غير منشور في كلية التربية في جامعة عين شمس - القاهرة.

٣ - بحث تحت عنوان: التوجيه الإسلامي للنشء في فلسفة الغزالي، تقدم به عارف مفضي البرجس ونال بموجبه درجة الماجستير من جامعة عين شمس ولقد قام صاحب البحث بنشره عن طريق دار الفكر العربي سنة ١٩٨٢. وبين يدي الطبعة الثانية المصادرة عن دار الأندلس بيروت سنة ١٩٨٣.

٤ - بحث بعنوان: الفكر التربوي عند الغزالي، كما يبدو من رسالته «أيها الولد»، بقلم عبد الغني عبود. ولقد قام بنشره عن طريق دار الفكر العربي سنة ١٩٨٢ وكان هدف البحث «استخراج الفكر التربوي عند الغزالي»^(١).

٥ - بحث بعنوان: «الفكر التربوي عند الإمام الغزالي، إعداد عبد الأمير شمس الدين قامت بنشره دار اقرأ، بيروت. وبين يدي الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

٦ - بحث تحت عنوان: نظرية التربية الخلقية عند الإمام الغزالي، إعداد عبد الحفيظ أحمد علاوي البريزات صادر عن دار الفرقان بعمّان عام ١٩٨٤.

٧ - بحث تحت عنوان: ملامح الفلسفة التربوية التعليمية عند الغزالي، صادر عن المعهد التربوي الوطني بجامعة محمد الخامس في الرباط.

٨ - بحث تحت عنوان: الغزالي ووصاياه التربوية، في حلقة بناء الطفل في الخليج العربي، صادر عن جامعة البصرة عام ١٩٧٩.

هذا إلى جانب عدد من الآراء التي جاءت على شكل مقالات^(٢) أو فصول في كتب تحدثت عن التربية الإسلامية منها: التراث التربوي الإسلامي في خمس

(١) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي، ص ١٢.

(٢) أ - مروان قباني: «النسق التربوي عند الغزالي في ضوء رسالة أيها الولد»، الفكر العربي ص ٣: ٢١٤ (١٩٨١)، ص ١٠٣ - ١١٣.

ب - حان كميد: «آراء الغزالي التربوية»، الإداري، ص ٧: ١١ (١٩٨١/١١)، ص ٦٦-٦٧.

ج - فضيلة عباس مطلق: «تعليم الناشئة وتهذيبهم عند الغزالي»، دراسات تربوية وإسلامية ص ٣: ٣٢٠ (١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م)، ص ٣٠٧ - ٣٢٠.

مخطوطات جمعه وحققه هشام نشابة، وكتاب في مجالات الفكر التربوي تأليف لطفلي بركات احمد.

ولا يمكن بحال من الأحوال التقليل من أهمية هذه الأبحاث، خاصة وإني رجعت لمعظمها واستفدت منها فيما أنا بصدد من دراسة تبقى عرضة للخطأ. وعلى أية حال تبقى هذه الدراسات رصيذاً علمياً وتربوياً هاماً لكل طالب علم أو باحث في مجال التربية الإسلامية بشكل عام، والتربية عند الإمام الغزالي بشكل خاص.

– حدود البحث

إن موضوع بحثنا يتناول التربية الإسلامية كما عبر عنها الغزالي في عدد من مؤلفاته، خاصة في كتاب «إحياء علوم الدين» الذي يحتوي على مجمل فكر الغزالي بما فيه قطاع «التربية والتعليم». كما وأن هناك مصادر أخرى للإمام في هذا المجال مثل «الرسالة اللدنية» و«ميزان العمل» و«فاتحة العلوم». ولكنها لا تخرج أو لا تزيد عما جاء في «الاحياء». هذا بالإضافة إلى رسالة «أيها الولد» التي تعد من أبرز ما كتب الغزالي في موضوع التربية والتعليم. وإذا «صح ترجيح صاحب كشف الظنون بأن منهاج المتعلم هو من تأليف الإمام الغزالي - نكون - قد... اضعفنا... إضافة تلقي ضوءاً جديداً على فكر حجة الإسلام الغزالي»^(١). إلا أننا لم نعتمد هذا الكتاب لأنه لم يرد في «وفيات الأعيان» ولا في «شذرات الذهب» ولا في «الوافي بالوفيات» ولا عند ابن عساكر في «تاريخ دمشق».

ولئن صبغت أفكار الغزالي بصبغة صوفية لأسباب تتعلق بالرجل والعصر الذي عاش فيه، إلا أنها تنبع من معين الكتاب والسنة. فالتصوف في نظر الغزالي «ليس إلا تطبيق الكتاب والسنة تطبيقاً حقيقياً يشترك فيه الجسم والروح والقلب والنفس وكل الجوارح الظاهرة والباطنة»^(٢).

(١) هشام نشابة: التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات، ص ٤٩.

(٢) الغزالي: أيها الولد، (القسم الدراسي)، ص ٣٣ - ٣٤.

وبما أن التربية عند الغزالي نتاج العقيدة الإسلامية التي آمن بها الإمام الغزالي حيث مكنته من تحديد طبيعة العلاقة التي يجب أن تربط الإنسان بخالقه وبأخيه الإنسان ومن ثم بالكون وما سيؤول أمره إليه فكان لا بد من الحديث عن العقيدة الإسلامية كما فهمها وعبر عنها الغزالي، وهذا ما يشير إليه عبد الغني عبود عندما يقول «التربية الغزالية لا تنبع عند الغزالي من فراغ أو من مجرد شطحات فلسفية أو صوفية وإنما تنبع من فهم معين للإسلام كان يقف وراء كل فكرة فكر فيها، ولفظة قالها للتعبير عن هذه الفكرة»^(١).

فالغزالي واحد من العلماء القلائل الذين نجحوا في الكشف عن حقائق الإسلام وإبراز وجهه الحضاري، إضافة إلى أنه كانه مربيا آمن بأهمية التعليم في نشر الفضيلة، فاشتغل به - أسوة بالرسول الكريم - ولم يطلب على إفادته أجراً بل سعى كي يعلم الناس لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه، إستجابة لقول تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

لذا فإن الفكر الإسلامي سيكون بمثابة النور المصاحب لمسيرة البحث بهدف إلقاء الضوء على الفكر التربوي عند الغزالي الذي استطاع أن يعبر عنه ويبرز أصوله وتطبيقاته التربوية اللازمة التي حدد على أساسها إطار مذهبه التربوي. وهذا ما سنسعى للكشف عنه من خلال تتبع الآراء التربوية عند الغزالي في المواقع التي سبق وأشرنا إليها.

– خطوات البحث

يتكون البحث من عشرة فصول:

الفصل الأول: إن البيئة لها بالغ الأثر على تشكيل الشخصيات الإنسانية في مختلف الحقول. والغزالي واحد من المفكرين الذين أثروا وتأثروا بالبيئة العامة

(١) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي، ص ٣٣.

(٢) سورة الشعراء، الإيتان: ١٠٩، ١٢٧.

التي أحاطت بهم. لذلك يتمحور هذا الفصل حول العصر الذي عاش فيه الغزالي لتعريف القاريء بالأحوال السياسية والدينية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في أيامه والتي تسهل على القاريء فهم أبعاد الفكر التربوي عند الغزالي وأهدافه.

الفصل الثاني: يدور حول حياة الغزالي إنطلاقاً من أهمية ذلك في إلقاء الضوء على فكره التربوي - كما سبق وتمت الإشارة إلى ذلك - خاصة وأن سيرة حياته قد أثارت جدلاً في بعض محطاتها البارزة.

الفصل الثالث: يتطرق البحث في هذا الفصل لموقف الغزالي من التيارات السياسية والفكرية والدينية والاجتماعية والعلمية التي شهدتها عصره، انطلاقاً من أهمية ذلك في توضيح دلالات آرائه التربوية التي شكلت بمجموعها إطاراً شاملاً لفكره التربوي.

الفصل الرابع: يدور حول نظرة الغزالي العقيدية - لله والكون والإنسان والمجتمع والحياة الآخرة - على أساس أن العقيدة تشكل المرتكز الأساسي لفكره التربوي. ومعلوم أن التربية الإسلامية في ربطها بين العقيدة والسلوك تجعل العمل نابعاً من العقيدة، التي تشكل بدورها أساساً لكل فعل، وتحدد نوع العلاقة التي يجب أن تربط الإنسان بخالقه وبالكون وبأخيه الإنسان وباليوم الآخر. وهو الهدف الذي سعى لتحقيقه الغزالي من خلال العمل على الإرتقاء بهذه العلاقة لتبلغ درجة «أحسن تقويم» حسب تعبير القرآن الكريم، و«القرب من الله» حسب ما أشار الغزالي لذلك.

الفصل الخامس: يحاول الباحث أن يحدد مفهوم التربية في نظر الغزالي وأهميتها وأهدافها إنطلاقاً من كونها رسالة وليس مجرد مهنة هدفها الارتزاق وكسب العيش.

الفصل السادس: يدور حول مجالات التربية المختلفة عند الإمام الغزالي لجهة كون التربية الإسلامية تربية متكاملة تعنى بكافة جوانب شخصية الإنسان،

ولذلك كان لا بد من الحديث عن كل من التربية: العقلية والأخلاقية والروحية والنفسية والجسمية والاجتماعية كما عبّر عنها الغزالي في ضوء تعاليم الإسلام.

الفصل السابع: يدور البحث في هذا الفصل حول المنهاج الدراسي الذي إعتمده الغزالي من أجل تحقيق أهدافه التربوية، انطلاقاً من حاجات المجتمع الإسلامي في ذلك العصر. هذا إلى جانب إظهار رأي الغزالي في عدد من العلوم على ضوء منهجه الدراسي الذي شكل مدخلاً من المدخلات المهمة في إطار رسالته التربوية.

الفصل الثامن: يدور هذا الفصل حول طرائق التربية الإسلامية التي اعتمدها الغزالي على ضوء الأهداف التي خطط لتحقيقها، معتمداً في ذلك على ما جاء في الكتاب والسنة من تعاليم، كانت بمثابة الإطار النظري الذي ساعد على اعتماد هذه الطرائق التي أثبتت فعاليتها في عملية بناء الشخصية الإسلامية عبر العصور المختلفة وخاصة زمن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

الفصل التاسع: يدور حول العوامل الفاعلة وذات الأثر في تربية الإنسان. إذ يستحيل أن تتم مثل هذه العملية أو تؤتي ثمارها دون أن تتوافر أسبابها الموضوعية والمتمثلة في العوامل الوراثية والبيئية التي تشكل القاعدة الأساسية في تحديد السمات المميزة للفرد محور العملية التربوية. وهذا ما أكد عليه الغزالي في مواقع مختلفة إيماناً منه بأهمية هذه العوامل وأثرها البالغ في العملية التربوية. حيث تشكل البيئة عاملاً مساعداً للوراثة التي تقضي بتعيين العوامل الثابتة في الشخصية بينما تعين البيئة العوامل المتغيرة.

الفصل العاشر: معلوم أن هناك خصائص تميّز الإسلام عن غيره من الديانات لهذا فإن من الطبيعي أن تستند التربية الإسلامية إلى مجموعة من الأسس التي تشكل بمجملها الإطار العام المميز لمنهج التربية الإسلامية عن غيره من المناهج. وهذا ما سعى الباحث لعرضه - في هذا الفصل - من خلال فكر الغزالي ونظراته العقدية للخالق والإنسان.

وبهذا نأتي إلى نهاية البحث في التربية الإسلامية عند الغزالي التي تقوم على إيمانه بأن الإنسان خليفة الله في هذه الأرض، وأن هذا الإنسان - الذي يمثل أرقى الكائنات وأفضلها - كل متكامل من جسد وروح وعقل، أي انه وحدة مترابطة لا يمكن أن ينفصل منه جسم عن عقل أو عقل عن روح. ولذلك فالتربية حسب الغزالي يجب أن تعنى بكل هذه المكونات وأن لا تبخسها قدرها أو تعطيها أكثر من استحقاقها. أملا في الوصول إلى الهدف المتمثل في القرب من الله تعالى، وبالتالي تحقيق سعادة الدنيا والآخرة.

الفصل الأول

عصر الامام الغزالي

- مقدمة
- الأحوال السياسية.
- الأحوال الدينية والنشاطات الفكرية.
- الأحوال الاجتماعية.
- الأحوال الاقتصادية.
- الأحوال الثقافية.

— مقدمة —

إن السعي لمجانبة الحقيقة والتزام الصدق والأمانة العلمية في مجال الأبحاث الفكرية لا يتأتى إلا من خلال الإحاطة بالظروف الاجتماعية والفردية الخاصة بالشخصية موضوع البحث، لما لهذه العناصر من تأثير على الفكر الإنساني، الذي لا بد وأن يكون نتاج تجربة عاشها الفرد سواء كانت خاصة تتعلق به، أم إجتماعية ترتبط بالظروف البيئية المحيطة.

«فالتربية بطبيعتها عملية مشروطة بالزمان والمكان ويستحيل على الباحث التربوي أن يحيط علما بأي نظام تربوي وأن يقف على حقيقة أمره في مجتمع من المجتمعات، دون أن يتعرف على الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية المحيطة به، فدراسة هذه الأبعاد ليست من قبيل العمل التمهيدي للبحث، وإنما جزء أساسي له لأن التربية تشتق أهدافها ونظامها ومنهجها من المجتمع وتتأثر بفلسفته وإيديولوجيته»^(١).

وشاءت إرادة الخالق أن يعيش الغزالي في عصر كان يتفجر بالحوادث ويغلي بالفتن والدسائس والمؤامرات... حيث امتازت الحياة الاجتماعية بالانقسامات الحادة وسيطر جو من القلق والاضطراب على بعض نواحي الحياة.

فالبيئة الإجتماعية في البلاد الإسلامية شهدت امتزاجا للعرب مع غيرهم من

(١) أمينة أحمد حسن: نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام،

الشعوب... وكان لهذا التمازج أثره الكبير والخطر على الأخلاق والمعتقدات والقيم. فلقد «ماج العراق أيامها بعناصر عرقية مختلفة من عرب وفرس وأتراك وغيرهم، وعصبية دينية طائفية ومذهبية من مسلمين ويهود ونصارى وسنة وشيعة وحنابلة وشافعية وحنفية، كل هذه الفئات كان يمجج بها الشرق الإسلامي بعامة والعراق بخاصة»^(١).

فكان لا بد أن تتأثر الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والدينية نتيجة الاحتكاك والتفاعل بين هذه العناصر العرقية والدينية والمذهبية المتناحرة. ولقد كان لذلك عميق الأثر على الاتجاهات الفكرية والتربوية إضافة إلى أنه عمل على تحديد مسارها في تلك الفترة من التاريخ الإسلامي.

من هنا تبرز أهمية التعرف على الأوضاع المختلفة التي تميّز بها العصر السلجوقي لما لذلك من أهمية في إلقاء الضوء على الفكر التربوي عند الغزالي، الذي جاء معبراً عن حاجات المجتمع الإسلامي إذاك، نتيجة لتحسس الغزالي لها، وإدراكه لخطورتها في عملية بناء الفرد والمجتمع.

ـ الأحوال السياسية

بقيام السلاجقة الترك بزغ عصر جديد هام في تاريخ الخلافة والإسلام. ولما ظهوروا من المشرق في مطلع القرن الحادي عشر (ميلادي) كان الخليفة لا يتمتع بشيء من سلطة الخلافة الحقيقية وكانت دولته قد تمزقت إرباً إرباً^(٢).

وعرفت هذه القبائل بإسم السلاجقة نسبة إلى رئيسها سلجوق بن تقاق^(٣) حيث انطوت تحت قيادته ومن ثم خضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده^(٤).

ولقد كان القائم بأمر الله هو الخليفة العباسي عندما قامت دولة السلاجقة

(١) مريزن سعيد مريزن عسيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ص ١٨.

(٢) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص ٥٦٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٢٣٦.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

في عام ٤٢٩هـ/١٣٠٧م، وكان آنذاك في التاسعة من عمره مما جعل أمه تتدخل في إدارة شؤون الحكم والدولة.

. وتمكن السلاجقة من التغلب على المعسكرات الموجودة في معظم أرجاء العالم الإسلامي مما يتر لهم أن يقيموا على أنقاض تلك الدويلات الضعيفة دولة قوية بسطت نفوذها - في الشرق الإسلامي - على إيران والعراق وكثيراً من أجزاء بلاد الشام وآسية الصغرى ولعبت دوراً مهماً في التاريخ في ذلك الوقت^(١).

واستطاع السلاجقة إعلاء كلمة الإسلام داخل عالمهم وهزموا خصوم الإسلام والمنقضي عليه وأوجدوا مرحلة من مراحل يقظة المثل العليا الإسلامية^(٢).

ويمكننا القول إن الدولة السلجوقية قد قامت وقويت أركانها بعد معركة «دندانقان» الحاسمة مع الغزنوية ٤٣١هـ/١٠٣٩م^(٣)، حيث كسرت بعدها شوكة الغزنويين وكفوا عن مهاجمة السلاجقة.

ولم يكد طغرل بك^(٤) ينتهي من إخمد فتنة أخيه «انيال» عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م - حيث أمر بقتله واستراح من شره - توجه لقتال البساسيري^(٥) فدارت معركة طاحنة بين الطرفين انتهت بهزيمة البساسيري ومصرعه في منتصف ذي الحجة من العام نفسه^(٦).

ولم تكن العلاقة بين سلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين مستقرة وثابتة

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١٤، ١٥.

(٢) أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ، ص ٢٣٧.

(٣) حسن أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ٥٣.

(٤) أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب ركن الدين طغرل بك أول ملوك السلاجقة (ت ٤٥٥هـ). (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٦٧).

(٥) ارسلان بن عبدالله، أبو الحارث البساسيري، قائد تركي الأصل، تلقب بالمظفر، خرج على القائم وأخرجه من بندگان وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر (ت ٤٥١هـ). الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٦) الراوندي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ص ١٧١ - ١٧٥.

ومنتظمة إبان فترة الحكم السلجوقي رغم أن السلاطين السلاجقة كانوا يعتبرون أنفسهم خدماً وحرساً لأمير المؤمنين العباسي وهم يضربون بسيفه وينفذون أمره، ويقبلون الأرض بين يديه رمزاً لطاعته وتوقيره»^(١).

ولقد كان هذا شكلياً، لأننا لو نظرنا إلى الناحية العملية نرى أن نفوذ الخليفة قد أقتصر على الأمور الدينية، ففي عهد السلاطين العظام كان الخليفة العباسي مسلوب السلطة، «العبوة في يد السلطان يفعل به ما يشاء»^(٢). ولقد بلغ التطاول مداه عندما قام نواب طغرل بك بالحجز على أموال الخليفة^(٣). أما السلطان ملكشاه، فما أن وقع خلاف بينه وبين الخليفة المقتدي حتى أرسل إليه يقول «لا بد أن تترك لي بغداد وتنصرف إلى أي البلاد شئت...»^(٤).

وعلى العموم فلقد أصبحت الخلافة رئاسة تشريفية دينية وإنزوى الخلفاء في قصورهم يحاولون استعادة مكانتهم الدينية والاجتماعية عن طريق إقامة الشعائر الإسلامية وحماية الدين»^(٥).

ولقد ترتب على مقتل الوزير نظام الملك^(٦) ووفاة السلطان ملكشاه تحولات سلبية خطيرة كان لها بالغ الأثر على جسم الدولة السلجوقية. واختفاؤه عن مسرح الأحداث يعتبر نهاية عهد القوة والإزدهار وبداية عهد الضعف والانحيار. «فبعد وفاة ملكشاه»^(٧) نشبت حروب أهلية بين أبنائه وقعت على أثرها

(١) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ص ٣١.

(٢) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص ٥٧٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج ١٢، ص ٨٧.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٩، ص ٦٢.

(٥) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ص ٣١.

(٦) الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي أبو علي الملقب بقوام الدين نظام الملك. استوزره السلطان الب أرسلان وبقي في خدمته عشر سنين ومن بعده استوزره ابنه ملكشاه وأقام على هذا عشرين سنة (٤٠٨ - ٤٨٥ هـ). (الزركلي: الإعلام، ج ٢، ص ٢٠٢).

(٧) أبو الفتح ملكشاه بن الب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، الملقب بجلال الدولة. ولي الأمر بعد وفاة أبيه (٤٤٧ - ٤٨٥ هـ). (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٢٨٣).

قلاقل واضطرابات أثقلت كاهل السلاجقة وأدت إلى تحطيم ملكهم^(١) في الوقت الذي كانت فيه الجيوش الصليبية ترحف باتجاه البلاد الإسلامية، والشرق الإسلامي يعاني من شر الانقسامات السياسية والمذهبية، فالسلطة السلجوقية تتصارع مع الخلافة الفاطمية، حيث تشكل بلاد الشام مسرحاً أساسياً لسباق السيطرة بين الطرفين^(٢).

أما فيما يتعلق بالفترة التي تعاقب عليها الخلفاء المسترشد والراشد والمقتفي والمستنجد فقد اتسمت بالعمل على عودة سلطة الخلافة واستقرار الأوضاع واستقلال الخليفة في اتخاذ القرار. ولقد كان لجهودهم بالغ الأثر في العمل على استرداد حقوق الخلافة وإزاحة التحكم والاستبداد السلجوقي. وعندما تولى الخليفة الناصر الخلافة (١١٨٠م - ١٢٢٥/٥٧٧هـ - ٦٢٢هـ) سعى لنهضة الشبان الإسلامي وتوحيد صفوفهم في مواجهة الأخطار لخدمة الدين والدولة، وتمكن من تحقيق نجاح باهر في الحد من تسلط السلجوقي واستعادة هيبة واستقلال الخلافة^(٣).

– الاحوال الدينية والنشاطات الفكرية

إن اختلاف الناس حقيقة من حقائق هذا الكون. ويمكننا القول إن من أسباب الاختلاف بين الناس غموض الموضوع في ذاته، أو اختلاف الرغبات والشهوات، أو اختلاف الاتجاه، أو تقليد السابقين، أو اختلاف المدارك أو الرياسة وحب السلطان. هذه بعض أسباب الاختلاف بين الناس فيما يدرسون من موضوعات، وما ينتهون إليه من نتائج في دراساتهم^(٤).

أما فيما يتعلق باختلاف المسلمين في آرائهم، فلقد ترتب عليه وجود

(١) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص ٥٧٤.

(٢) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ص ٣١.

(٣) حسن أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ١٤١ - ١٧٥.

(٤) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ج ١، ص ٧ - ١٠.

مذاهب في الاعتقاد والسياسة والفقه، في الوقت الذي لم يكن فيه هذا الاختلاف مفاجئاً خاصة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أشار إلى افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة.

ومن أسباب الاختلاف بين المسلمين العصبية العربية أو التنازع على الخلافة، أو مجاورة المسلمين لكثيرين من أهل الديانات القديمة ودخول بعضهم في الإسلام، أو ترجمة الفلسفة، أو التعرض لبحث كثير من المسائل الغامضة، أو القصص، أو ورود المتشابه في القرآن الكريم أو استنباط الأحكام الشرعية. وينتهي الإمام محمد أبو زهرة إلى القول «إن المذاهب الإسلامية لها شعب ثلاث: مذاهب سياسية كان لها مظهر عملي قد احتدم أوار الخلاف بينها أحياناً. ومذاهب اعتقادية لم تتعد الخلاف النظري في أكثر الأحيان، ومذاهب فقهية كانت خيراً وبركة»^(١).

الباطنية:

ويعلق الشهرستاني على الخلاف حول الإمامة فيقول «وأعظم خلاف بين الأمة، خلاف الإمامة، إذ ما سئل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سئل على الإمامة في كل زمان»^(٢).

ومع حلول العصر السلجوقي كانت البلاد الإسلامية تعج بالفرق. فإلى جوار الاضطرابات السياسية وتردي الحالة الاجتماعية خيم الاضطراب الديني والمذهبي وسيطر التعصب على العقول مما أدى إلى احتدام الصراع بين أتباع المذهب السني والحركات الباطنية الشيعية المنشأ والميول والتي انحرفت بمعظمها عن ديانة الإسلام^(٣).

ويشير عبد النعيم حسنين إلى القوى الدينية والطائفية المتصارعة أيام الدولة

(١) المرجع السابق، ج ١، ص ١٩.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ١٣.

(٣) ابن حزم: الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج ٢، ص ١١٥.

السلجوقية فيقول «وكانت هناك معسكرات سياسية ذات صبغة دينية أهمها المعسكر السني، وكان يمثل العباسيون في بغداد والمعسكر الشيعي ممثلاً في الفاطميين في - مصر وأجزاء من شمال أفريقية والشام - والإسماعيلية - في إيران - ثم المعسكر المسيحي وكان يمثل الصليبيون في بعض أجزاء آسية الصغرى والشام وفلسطين من حدود العالم الإسلامي في ذلك العصر»^(١).

والمتتبع لتطورات الأحداث في منتصف القرن الخامس الهجري يدرك مدى خطر النفوذ الذي أحرزته الحركة الباطنية لدرجة تجعل المرء يتصور قرب زوال الحكومة العباسية وحلول الشيعة مكانها^(٢).

وكانت الخلافات بين السنة والشيعة تأخذ طابع العنف المدمر نتيجة الحرق وسفك الدماء. وعلى العموم فلقد لجأت الباطنية إلى التصفية الدموية لكل من يقف بوجه دعوتهم أو يعارضهم، وذلك على يد انتحاريين كانوا ينطلقون من «قلعة الموت» التي ذاع صيتها في عهد الحسن الصباح^(٣) وأصبحت مبعث قلق للخلفاء والسلاطين والوزراء^(٤).

ويقول البنداري: «فنابت النوائب وظهرت العجائب، وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا على طابعنا، وكالوا بصاعنا، وكانوا معنا في المكتب وأخذوا حظاً وافراً من الفقه والأدب، وكان منهم رجل من أهل الري أقام الفتنة كل قيامة، واستولى في مدة قريبة على قلاع وحصون منيعة، وبدأ من القتل والفتك بأمر شنيعة»^(٥).

وعلى الرغم من تتبع السلاجقة للباطنية خاصة في أيام ملكشاه ووزيره نظام

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١٧٦.

(٢) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٢١٨.

(٣) الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي من أعيان الباطنية في عهد ملكشاه السلجوقي، صاحب الدعوة النزارية. كان من كبار الزنادقة ومن دهاة العالم. (٤٢٨ - ٥١٨هـ). (الزركلي: الأعلام، ج ٢، ص ١٩٣ - ١٩٤).

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٣٦ - ٤٠.

(٥) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٦٨.

الملك والسلطان بركيارق^(١)، إلا أنهم لم يتمكنوا من القضاء عليهم بشكل نهائي بحيث بقيت هذه الفئة في صعود وهبوط إلى أن جاء المغول وانتزعوا بعض معقلهم الحصينة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. ولكن عندما جاء السلطان بيبرس «فتح هذه الحصون فتحاً تاماً فيما بين سنة ٦٦٨هـ و ٦٧١هـ»^(٢).

المعتزلة: ..

وشهد العصر السلجوقي حركة المعتزلة التي تعتبر من أبرز الحركات الدينية التي شهدها العالم الإسلامي. هذه الحركة العقلية التي ظهرت في عصر بني أمية. فما انبثق فجر العصر العباسي حتى عظم أمرها لا سيما في عهد المأمون الذي دفعته نزعاته الفلسفية إلى جعلها دين الدولة الرسمي^(٣).

وقد تطور مذهب المعتزلة في العصر العباسي الثاني فاتخذ شكلاً جديداً وانتشر تحت تأثير فلسفة أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م)، ولقد أجمع المعتزلة على اختلاف فرقهم على نفي الصفات الإلهية، وعارضوا كل فكرة تتنافى مع وحدانية الله. وقرروا أن الوصول إلى مدارك الخلاص ومدارج النجاة إنما ترجع إلى سلطان العقل^(٤).

ويتطرق الإمام أبو زهرة إلى ما ورد في الخطط المقريرية وما ذكره أحمد أمين في «فجر الإسلام» لجهة التشابه بين «معتزلة» اليهود و«معتزلة الإسلام»، فمعتزلة اليهود يفسرون التوراة على مقتضى منطق الفلاسفة، والمعتزلون يتأملون كل ما في القرآن من أوصاف على مقتضى منطق الفلاسفة أيضاً. وقال المقريري في «الفروشييم» الذين سماهم المعتزلة «يأخذون بما في التوراة على معنى ما فسرته

(١) أبو المظفر بركياروق الملقب ركن الدين ابن السلطان ملكشاه بن الب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب شهاب الدولة مجد الملك. أحد ملوك السلاجقة. ولي المملكة بعد موت أبيه. (٤٧٤ - ٤٩٨ هـ). (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٦٨).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية، ج ٢، ص ١٩١ - ١٩٢.

(٣) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص ٥١٧.

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٢١٤.

الحكماء من أسلافهم»^(١).

فلقد كان تأثير المعتزلة بالفلسفة الأغريقية واضحاً حيث إنهم استطاعوا أن يخرجوا منها مزيجاً يتفق مع تعاليم الإسلام وأصوله^(٢).

وانبرى المعتزلة لمجادلة المجوس والثنوية والجبرية وأهل البدع إضافة إلى الفقهاء والمحدثين من جهة، والأشاعرة والماتريدية من الجهة الثانية^(٣). ولقد أفنوا قواهم في تلك المناقشة المستمرة التي أثارها مدرستا البصرة وبغداد. وكان أبو الحسين البصري^(٤) أحد معاصري ابن سينا آخر من عالج تعاليمهم بشيء من الحرية واستقلال الرأي. كما أكمل ما كان فيها من نقص في نواح كثيرة. واستمر هذا الصراع بين هؤلاء وأولئك على أشده، واستمرت المعتزلة على قوتهم حتى ثار عليهم أبو الحسن الأشعري^(٥) ثم صرعه حجة الإسلام الغزالي^(٦). وبهذا يكون علم الكلام نتاج المناظرات التي جرت بين المعتزلة وخصومهم سواء كانوا من غير المسلمين كالمجوس والثنوية، أم كانوا من المسلمين كالأشاعرة والماتريدية.

الصوفية:

وفي غمرة هذه الأحداث راجت سوق الصوفية. ولقد ساعد على ذلك الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت العراق آنذاك، حيث أنها

(١) محمد ابو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ج ١، ص ١٢٥.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١٧٠،

(٣) محمد ابو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ١٤٠.

(٤) محمد بن علي الطيب: احداث الاعتزال ولد بالبصرة وسكن بغداد وتوفي عام ٤٣٦هـ (ابن خلكان: وفيات الاعيان ج ٤، ص ٢٧١).

(٥) ابو الحسن علي بن اسماعيل بن ابي بشر اسحاق بن سالم بن اسماعيل بن عبدالله ابن موسى بن بلال بن ابي بردة عامر بن ابي موسى الاشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم واليه تنسب الطائفة الاشعرية (٢٦٠، ٢٧٠ - ٣٢٤ هـ). (ابن خلكان: وفيات الاعيان ج ٣، ص ٢٨٤).

(٦) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام، ج ٣، ص ٢١٩.

كانت عاملا مساعدا ومشجعا على حفز الناس للانخراط في صفوف الصوفية علاوة على أن عامة المسلمين قد دأبوا على احترام الزهاد والنظر إليهم بإجلال وإكبار^(١).

وكان لانتشار الصوفية وبروز طبقة المتصوفة أثره على حكام العصر الذين لم يترددوا في بذل ما بوسعهم لتقريبهم منهم والسيطرة عليهم واستمالة رؤسائهم، مما جعل من الصوفية فئة مميزة في المجتمع إضافة إلى أن زعماءهم حققوا مكانة مرموقة عند الحكام فكانوا يحضرون مجالسهم وولائمهم أسوة بكبار رجال الدولة^(٢).

ولقد تعددت مشارب وأهداف الصوفية إبان العصر السلجوقي. حيث ظهر بين صفوفهم من لم يكن ملتزما بأداب الصوفية^(٣). ومهما يكن فلقد كانت الصوفية - باستثناء الفرق المغالية - بعيدة عن التعصب، وأسهمت في تلطيف الأجواء المشحونة بالخلافات المذهبية والمهارات الأدبية التي كانت سمة العصر.

ولم تسلم الصوفية من الهجوم نتيجة تصرفات بعض الفرق التي أخذ عليها اعوجاج المسلك وسوء المعتقد^(٤). وكان لابن الجوزي^(٥) موقفا من متصوفة زمانه فهاجمهم وقذح فيهم. كما وأنه حكم بكفر عدد من المشايخ وأكد زندقته^(٦).

– الأحوال الاجتماعية:

إن الأوضاع الاجتماعية لا بد وأن تتأثر بالظروف الاقتصادية والسياسية

(١) ابن الجوزي: تلبس ابليس، ص ٤٦٩.

(٢) بدر محمد فهد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، ص ٣٩٧.

(٣) السهروردي: عوارف المعارف، ص ٢٥٠ - ٢٦٨.

(٤) الرازي: تبصرة العوام في معرفة مقالات الانام، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٥) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، ابو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث له نحو ثلاث مئة مصنف. (٥٠٨ - ٥٩٧ هـ). (الزركلي: الاعلام، ج ٣، ص ٣١٦).

(٦) ابن الجوزي: تلبس ابليس: ص ١٩٩ - ٤٥٥.

المصاحبة لها. وهكذا كان واقع الحال بالنسبة للحياة الاجتماعية في العصر السلجوقي حيث لم يطرأ عليها تطورات بارزة تجعلها مختلفة عن سابقتها، إلا أن النفوذ السلجوقي «إضافة إلى مجريات الأوضاع السياسية والاقتصادية والدينية، أدت إلى إيجاد ظواهر معينة، كان لها آثار واضحة في حياة الناس الاجتماعية في هذا العصر»^(١).

فالبينة المجتمعية في البلاد الإسلامية شهدت امتزاجاً للعرب مع غيرهم من الشعوب... حيث كان لهذا التمازج آثاره الخطيرة على الأخلاق والقيم والمعتقدات.

ولقد شهد هذا العصر سوء في التوزيع لملاكية الأراضي حيث اعتبر السلاجقة المملكة ضيقة للسلطان يمتلكها نيابة عن قومه وله أن يملكها لأقاربه وأنصاره، وجنوده، وعبيده... فكان الوزير بدوره يهيمه أن تزداد إيرادات التمليكات ليزداد راتبه تبعاً لذلك^(٢).

ويشير بعض الكتاب إلى أن بداوة السلاجقة جعلتهم يهتمون بالمظاهر البراقة كالمباني الفخمة واللوحات الجميلة ومظاهر الترف والملبس والحفلات ومجالس اللهو والشراب، مما جعلهم لا يعنون كثيراً بالاستماع إلى الشعر وتذوقه وإبداء الرأي فيه كما كان يفعل معظم الخلفاء العباسيين^(٣).

ولقد كان للمرأة دوراً بارزاً في الميادين المختلفة سواء السياسية أو الاجتماعية منها. ومن أشهر نساء ذلك العصر ترکان خاتون زوجة السلطان ملكشاه ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م. حيث إنها استولت على السلطة بعد وفاة زوجها وساست الأمور، وسعت إلى ترتيب ولدها سلطاناً وعمره لا يتجاوز خمس سنوات. إضافة إلى ذلك فلقد باشرت الحروب وأدارت الجيوش وقادت العساكر^(٤).

(١) مريزن سعيد مريزن عسيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ص ١١٠.

(٢) احمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٢٠١.

(٣) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٩، ص ٦٢، ٨٤.

وحيث أن السلاجقة كانوا قوما غلبت عليهم البداوة، وانتصر سلاطينهم الأوائل إلى الثقافة. فلقد وجدوا أنفسهم بحاجة إلى موظفين أكفأ لإدارة الشؤون المختلفة لدولتهم الأمر الذي تسبب بظهور طبقة الموظفين التي تلت طبقة السلاطين والأمراء أهمية ونفوذاً وكان من أبرز أفراد هذه الطبقة الوزراء والحجّاب والكتاب، حيث إنهم لعبوا دوراً هاماً وفاعلاً في كثير من الأحيان^(١).

ولما كان الحكام من القبائل السلجوقية التركية، فلقد سهل ذلك انتشار عدد كبير من هذه القبائل في إيران والبلدان الإسلامية الأخرى، مما أوجد طبقة أبناء القبائل السلجوقية التي كانت تتقاضى رواتبها من السلطان. ولقد كان وجود هذه الطبقة مصدر قلق وفتن في كثير من الأحيان خاصة عندما يمتنع السلطان عن دفع مرتبات أفرادها^(٢).

ومن فئات الشعب التي كانت معروفة في العهد السلجوقي فئة الرقيق وكان أكثرهم من شعوب غير مسلمة انتزعوا قسراً من بلادهم أو أسروا في الحرب أو اشتروا بالمال. وكان من بينهم أرقاء زنج وآخرون ترك وآخرون بيض^(٣).

ولم ينظر إلى الخدم والارقاء نظرة إصغار أو احتقار خاصة وأن أمهات بعض الخلفاء كانت من هؤلاء. ولقد شغف الخلفاء وكبار الموظفين باتخاذ الإماء من غير العرب لدرجة أنهم كانوا يفضلونهم أحياناً على العربيات الحرائر^(٤).

ونتيجة الاضطرابات السياسية وتفشي الفساد والجهر بالفسق وسيطرة القلق الذي أدى إلى انتزاع الاطمئنان من القلوب، شاع الشك وانعدم الإخلاص بين الناس مما شجع على الميل للاعتكاف أو الوحدة والانفراد هرباً من هذا الواقع الأليم. فانتعشت الحركة الصوفية بحيث أصبحت جماعة رجال الصوفية من أبرز وأهم فئات المجتمع في ذلك العصر علاوة على كون الصوفية الملاذ والعلاج لآفات وأمراض المجتمع السلجوقي.

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص ٤١٨.

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٤٢٥.

ولقد أدى التطرف في الرد على الأوضاع المتردية إلى ظهور إحدى فرق الصوفية التي لجأت إلى استعمال السلاح والعنف كوسيلة لإصلاح المجتمع وعرفت هذه الفرقة بإسم فرقة الإخية الفتیان. ولقد كانت تعاليمها تتمشى لدرجة بعيدة مع عقيدة وأفكار سكان الثغور مما شجعهم على الانخراط في صفوفها^(١).

ومن فئات الشعب الجديرة بالذكر في ذلك الوقت العيارون ولفظة العيار لغة الكثير المعجىء والذهاب في الأرض^(٢). والعرب تمدح بالعيار وتذم به، يقال غلام عيار نشيط في المعاصي، وغلام عيار نشيط في طاعة الله عز وجل^(٣).

ويبدو أن العيارين كانوا من السنة والشيعة... وانتشر العيارون بكثرة في بغداد بشكل خاص ومع وجود بعض العيارين من يحمل روح الفتوة ومبادئها السامية، ولكن سوء الأوضاع، وانهيار الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي جعل الكثير من العاطلين والشقاء ينخرطون في صفوف العيارين الأمر الذي أدى إلى أن تصطبغ هذه الحركة بصبغة اللصوصية والعدوان^(٤).

«ويبدو أن العيارين كانوا باديء الأمر لا يتحركون إلا بسرية ولا يظهرون على مسرح الأحداث إلا عندما تدعو الحاجة. ولقد تجلّى ذلك عام ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م عندما انقضوا على الجانب الغربي من مدينة بغداد»^(٥).

ومن فئات الشعب التي كانت معروفة في ذلك العصر أهل الذمة - اليهود والنصارى - الذين نعموا بجو من الود والتسامح أتاح لهم إقامة شعائهم الدينية بعيداً عن تدخل أهل الحكم من المسلمين^(٦). وكثيراً ما تقلد اليهود والنصارى مناصب هامة في الدوائر والمهن الحرة^(٧).

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١٨١.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٠١.

(٣) الزبيدي: تاج العروس، ج ٣، ص ٤٣٤.

(٤) حسن أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ٣٣ - ٣٤.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٩، ص ١٠٣.

(٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٤٢٥.

(٧) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص ٤٣٣.

ومجمل القول إن أهل الذمة قد عاشوا في جو من الأمن والعدل، كما وأنهم شاركوا مشاركة فاعلة في مختلف نواحي الحياة العلمية والاقتصادية خاصة زمن المستظهر حيث عرف من بينهم أعلام نبغوا في ميادين الأدب والطب وحصلوا على شهرة عالية^(١).

ـ الأحوال الاقتصادية:

إن اقتصاد الدول يعتمد أساساً على التجارة والصناعة والزراعة حيث إنها تشكل المعيار الحقيقي للتقدم الاقتصادي في أي بلد من البلدان، ولهذا كان لا بد من الحديث عن الأحوال الاقتصادية للدولة السلجوقية في ضوء الأوضاع المرافقة والتي كان لها أثر بالغ على الوضع الاقتصادي إبان تلك الفترة.

التجارة: لقد كانت بادئ الأمر في أيدي النصارى واليهود والزرادشتية، ومع مرور السنين ومجيء الدولة السلجوقية تبدلت الأمور نتيجة نشاط المسلمين الذين حلوا مكان التجار الذميين خاصة وأنهم لم ينظروا إلى التجارة نظرة احتقار كما كان الحال بالنسبة للزراعة. وترتب على ذلك ازدهار في حركة التجارة البرية والبحرية بحيث أصبحت مرافئ بغداد والبصرة وسيراف والقاهرة والاسكندرية مراكز تجارية هامة في العالم الإسلامي. ولقد بلغت تجارة المسلمين شرقاً حتى الصين. وكان أساس هذه التجارة الحرير. ولقد سلكت طريقاً يدعى «طريق الحرير العظيم»^(٢).

الصناعة: وما كانت التجارة لتزدهر لو لم يكن هناك صناعة محلية تدعمها وزراعة واسعة تشد أزرها. فلقد ازدهرت الصناعة، وخاصة اليدوية منها في كثير من أنحاء البلاد. فعرفت آسية الغربية بصناعة السجاد والنسيج الموشى والحرير والقطن والمنسوجات الصوفية والديباج والأطلس وأغطية الوسائد وغيرها من

(١) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ص ١٧٠.

(٢) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص ٤٢٠ - ٤٢١.

أدوات الفرش والأثاث وأواني المطبخ. وأنتجت الكوفة المناديل الحريرية وشبه الحريرية التي تلبس على الرأس وتعرف اليوم بالكوفية. وفي بلاد فارس اشتهرت المعامل بزر كشة الدمقس الموشى بالذهب والستائر المصنوعة من الخز. أما منشوجاتهم المصنوعة من وبر الإبل... والعباءات المصنوعة من الحرير المغزول فلقد كانت واسعة الانتشار^(١).

ولقد اشتهرت بلاد الشام خاصة صيدا وصور بصناعة الزجاج حيث ضرب المثل بالزجاج السوري لرقته وصفائه... هذا بالإضافة إلى صناعات عديدة كصناعة الورق وصياغة الجواهر التي ساعد على ترويجها غنى البلاد بالمعادن المختلفة^(٢).

الزراعة: والجدير بالذكر إن الزراعة إبان العصر السلجوقي شكلت كما كانت تشكل سابقاً عصب الحياة الاقتصادية. فلقد اعتمد السلاجقة على الزراعة بسبب الأراضي الخصبة وتوفر المياه. فوادي دجلة مثلاً يعد من أخصب بقاع البلاد الإسلامية.

ولقد كانت كورة بخارى في رأي جغرافي العرب جنة حقيقية حيث يقع بين سمرقند وبخارى وادي الصفد المعدود بين جنات الأرض الأربع. ولم تقف الزراعة عند حد الفاكهة والبقول بل تعدتها إلى الزهور التي كانت تزرع على نطاق واسع بهدف الصناعة والتجارة حيث إنها كانت تباع وتستغل في الصناعات العطرية التي اشتهرت بها دمشق وشيراز وغيرها من المدن^(٣).

كل هذا يدل على مدى اهتمام الناس بالزراعة. والذي يعود إلى كتاب «الرحلة» لابن جبیر يطلع على ما تمتعت به العراق من عمران زراعي خلال تلك الفترة.

(١) المرجع السابق، ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٢٥ - ٤٢٧.

(٣) المرجع السابق: تاريخ العرب، ص ٤٣٠ - ٤٣١.

وعلى الرغم من النشاط التجاري والصناعي والزراعي في العصر السلجوقي إلا أن الأحوال الاقتصادية قد تأثرت سلباً بسبب عدد من العوامل التي تركت بصماتها على الحياة في ذلك العصر ومنها:

* تملك الأراضي: لقد كان لنظام تملك الأراضي الذي اعتمدته الدولة السلجوقية أثاره السلبية المباشرة على الزراعة بشكل خاص والوضع الاقتصادي بشكل عام. ولم تنجح كل الإجراءات التي اتخذها نظام الملك في الحد من سلبات هذا النظام. كما وإنها لم تحم الزراع والفلاحين من التجاوزات والظلم الذي لحق بهم على أيدي كبار الممتلكين. فقد تطور نظام التملك في أواخر الفترة السلجوقية، فلم يعد ينصب على الضرائب، بل صار تملكاً وراثياً للأرض يمارس فيه الممتلك صلاحيات واسعة مقابل الخدمة العسكرية وإعداد الجند^(١).

* الحروب الخارجية والفتن الداخلية: ولقد كان للحروب والفتن التي عصفت في البلاد خلال العصر السلجوقي بالغ الأثر على الأوضاع الاقتصادية حيث إنها أربكت الحياة الاقتصادية وأضعفت النشاط الاقتصادي. فالمتبع لأحداث ٤٨٧هـ/ ١٠٩٣م و ٤٩٥هـ/ ١١٠١م يلحظ مدى الشلل الذي لحق بحركة البيع والشراء إضافة إلى أنها شجعت على الفوضى والتخريب مما زاد الحالة الاقتصادية سوءاً^(٢).

* الكوارث الطبيعية: لقد تعرضت البلاد لكثير من الكوارث الطبيعية بين الفينة والأخرى مما أسهم في تردي الأحوال الاقتصادية، ومن الكوارث التي شهدتها البلاد الحرائق العديدة ومنها حريق سنة ٥١١هـ/ ١١١٦م الذي لحق بالمدرسة النظامية والمنطقة المجاورة لها، هذا بالإضافة إلى فياضانات دجلة المتكررة ومنها فياضانات سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م مما أدى إلى هلاك الغلات الزراعية^(٣).

(١) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي: ص ٩٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٤٦ - ٦٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٦، ١٣٢.

ولقد كان للزلازل نصيب في تردي الأحوال الاقتصادية وخاصة زلزال سنة ٥١١هـ/١١١٧م^(١). فكل هذا وغيره كان له الآثار السلبية على دورة الحياة الاقتصادية في البلاد خلال فترة الحكم السلجوقي.

ـ الأحوال الثقافية:

إن الأحوال الثقافية والعلمية تتأثر بشكل مباشر وغير مباشر بالظروف والعوامل المحيطة. وهذا هو واقع الحال بالنسبة للحياة الثقافية خلال العصر السلجوقي. فلقد كان لظهور الفرق المختلفة آثار إيجابية على صعيد النهضة العلمية، خاصة وأن هذا الفرق اعتمدت العلم وسيلة لنشر أفكارها وتحقيق أهدافها.

فعلى الرغم من التفكك الذي لحق بالعالم الإسلامي والضعف الذي ألم بمركز الخلافة، فلقد ترتب على الجدل والمناظرات التي قامت بين الفرق المختلفة نهضة علمية بالغة الأهمية تجلت في الآثار الفكرية التي خلفها وراءهم علماء هذه الفرق من إسماعيلية وصوفية وغيرها^(٢).

وعلى الرغم من أجواء الفوضى التي لحقت بالبلاد إلا أن الحياة العلمية خطت خطوات متقدمة إلى الأمام خاصة في حقل التعليم حيث انتشرت المدارس الفقهية كما نعمت العلوم العقلية بنهضة وازدهار ملحوظين خاصة في مجال الفلك والطب والتاريخ وعلم الكلام. وفي الوقت نفسه كان التراجع من نصيب الفلسفة والمنطق إثر تزايد الاهتمام بإنشاء المدارس. ولقد اعتبرت هذه الفترة «من أهم عصور التمدن الإسلامي من حيث كثرة المدارس. وقد تسببت هذه المدارس في الحد من انتشار العلوم العقلية، كما تسببت في رواج اللغة العربية»^(٣).

ولقد شهدت البلاد مولد أول وأكبر جامعة عرفتها الديار الإسلامية في ذلك

(١) المرجع السابق ص ١٧١.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٢٣٢.

(٣) احمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٣٧٣.

العصر، ألا وهي المدرسة النظامية، ليس هذا فحسب، بل لقد كان هناك عدد كبير من المراكز العلمية الأخرى التي تفرقت في البلاد مما يؤكد مدى تقدم وانتعاش الحركة العلمية. «ولئن ضعفت الدولة الإسلامية في هذه الفترة من الناحية السياسية فإنها لم تضعف من النواحي العلمية، فالمملكة الإسلامية في القرون الرابع والخامس والسادس، كانت أعلى شأنًا في العلم من القرون التي سبقتها. ولئن كانت الثمار السياسية قد تساقطت في هذه القرون، فالثمار العلمية قد آتت أكلها فيها. . . ولهذا فالعلم والسياسة لا يمشيان دائماً جنباً إلى جنب بل قد يكون الأمر على العكس. . . فلقد كانت الحياة العلمية في هذه القرون الثلاثة في غاية من الإنتاج والنشاط والعطاء»^(١).

ولقد اتسع أفق الفكر الإسلامي في عهد السلاجقة ونضجت ملكة البحث والتأليف عند المسلمين نتيجة حركة الترجمة التي نشطت إبان الدولة العباسية إضافة إلى تنقل رجال العلم والأدب في البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً بهدف الاتصال بحكام الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية مما أدى إلى زخور بلاط السلاطين وغيرهم من حكام الدول بالعلماء والأدباء حيث ترافق ذلك مع نشاط الحركة الفكرية ورواج الثقافة في طول البلاد وعرضها^(٢).

ولمع في هذا العصر إسم الوزير نظام الملك، ولقد كان عالماً مستنيراً استفاد من علمه وخبرته وأخذ العبر من الأحداث السياسية خاصة ما لحق بالخلافة العباسية ومؤسساتها. فتحسس حجم الأخطار التي جرّتها الانقسامات الداخلية والتيارات الفكرية إضافة إلى الدفاع عن الفكر والعقيدة الإسلامية ضد أعدائها في الداخل والخارج^(٣). وجاء في «الكامل» أنه «كان عالماً ديناً جواداً عادلاً حليماً كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح. أمر ببناء المدارس في سائر الأمصار والبلاد

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٢، ص ٢، ٣.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١٨٧.

(٣) مريزون سعيد مريزون عسيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ص ١٧٥.

وأجرى لها الجرايات العظيمة وأملى الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرها^(١). وكان يعقد مجالس للمناظرة بين العلماء كلما سنحت الفرصة لذلك تماماً كما حصل في المناظرة التي جرت بين الإمام أبي حامد الغزالي وبين عدد من علماء العصر^(٢).

ونظام للملك هو الذي أنشأ المدارس النظامية التي كان أهمها نظامية بغداد - التي سبق الحديث عنها - وفي ذلك يقول السبكي «وبنى مدرسة ببغداد ومدرسة ببلخ ومدرسة بنيسابور ومدرسة بهراة ومدرسة بأصبهان ومدرسة بالبصرة ومدرسة بمرو ومدرسة بأمل طبرستان، ومدرسة بالموصل. ويقال إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة»^(٣).

وكان للخلفاء العباسيين عميق الأثر في النهضة العلمية خلال هذا العصر حيث أنهم شجعوا الحركة العلمية من كافة النواحي وأمدوها بمالهم وجاههم وبالغوا في إكرام العلماء والأدباء وجالسوهم ولوهم أحياناً المناصب العالية. ولقد حذى الأمراء والوزراء حذو الخلفاء في أكبر مدن الدولة وكانوا يتنافسون في ذلك كما كانوا يتنافسون في إنشاء دور العلم.

وكثيراً ما ألف العلماء الكتب وقدموها للخلفاء تماماً كما فعل الغزالي عندما صنف كتاب «فضائح الباطنية» وقدمه للخليفة المستظهري بناء لطلب الآخر.

وحاصل القول إن سلاطين السلاجقة أدركوا «أن العلم هو سياج الدولة وعمادها، وأن العلماء هم مشاعل الحضارة ورواد الأمة، فعملوا على تشجيع العلوم، وبنوا المدارس والخوانق والربط لطلاب العلم، وأكرموا العلماء، وأحسنوا إفادتهم فأجزلوا لهم العطاء كما أدركوا أن خير ما يضمن لهم بقاء دولتهم ورقبها أن يشحنوا مراكزها المختلفة بالعلماء ورجال الدين، للدفاع عن بيضة الإسلام وحراسة أمور الأمة»^(٤).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج ٨، ص ٤٨٠، ٤٨١.

(٢) الغزالي: الإحياء، ج ١، ص ٤.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٣٧.

(٤) مريزن سعيد مريزن عسيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ص ١٧٣.

الفصل الثاني

سيرة الإمام الغزالي

- مقدمة
- نسبه ولقبه
- مولده ونشأته
- دراسته
- تجربته في النظامية
- رحلته داخل العالم الإسلامي
- مؤلفاته
- وفاته

– مقدمة

إن الفكر التربوي لدى أي مفكر هو نتاج تجربة ذات بعدين الأول فردي خاص بصاحب العلاقة والثاني اجتماعي يرتبط بالظروف المحيطة به.

فبعد أن تكلمنا عن الأحوال السياسية وغيرها من الأحوال التي أحاطت بالغزالي وعصره. بات من الضرورة بمكان الحديث عن الأحوال الشخصية المتعلقة به. حيث أن ترجمة الغزالي تدل «على أن هناك صلة وثيقة بين حياته وتطوره الفكري. فكما دفعته اضطراباته الباطنية وشكوكه الفكرية إلى تغيير مجرى معيشته كذلك أثرت رحلته واعتكافه، ورياضته في توجيه أفكاره وتحديد طريقته وشوقه إلى الإصلاح العلمي في الدين»^(١).

– نسبه ولقبه

هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام^(٢). والغزالي - بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاي المعجمة ومد الألف لام - هذه النسبة إلى الغزال، على عادة أهل خوارزم وجرجان فإنهم ينسبون إلى القصار القصاري وإلى العطار العطارى، وقيل أن الزاي مخففة نسبة إلى السمعاني في كتاب «الأنساب» والله أعلم^(٣). وبذلك تكون نسبته إلى صناعة الغزل عند من

(١) الغزالي: المتقدم من الضلال، القسم الدراسي، ص ١٢.

(٢) الزركلي: الاعلام، ج ٧، ص ٢٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج ١، ص ٩٨.

يقول بتشديد الزاي أو إلى غزالة - من قرى طوس - عند من يقول بالتخفيف^(١) .
وجاء في رواية ابن الصلاح على لسان الغزالي أنه قال «الناس يقولون لي الغزالي ، وإنما أنا الغزالي منسوب إلى قرية يقال لها غزالة»^(٢) . وهناك من لا يوافق على هذا الرأي بحجة أن صاحب معجم البلدان لم يسمع بغزالة عندما زار طوس إلا أن هذا لا يشكل دليلاً قاطعاً على عدم وجود هذه القرية بدليل أن ياقوت أشار أن لطوس حوالي ألف قرية^(٣) . فلعلها إحداها .

ولقد تطرق الزبيدي في مقدمة كتابه الكبير «إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين» إلى ذلك تحت عنوان «بيان حال المنتسب إليه» وأورد آراء عدة حول هذا الموضوع^(٤) .

واستمر التعاطي مع هذه المسألة حتى يومنا هذا حيث يورد «وات» مناقشة هامة وقيمة حول نسبة الغزالي إلى غزالة^(٥) .

ويورد عبد الأمير الأعسم عدة آراء حول هذه النقطة الخلافية في كتابه «الفيلسوف الغزالي» ويرجح بدوره نسبته إلى الغزال وهي مهنة أبيه^(٦) . وهذا ما لا نميل للأخذ به لتناعتنا بأن كلام الغزالي عن نفسه يبقى الأصدق والأقرب إلى الحقيقة ، لطالما لم يتوفر دليل أكيد على بطلانه .

وعرفت أوروبة الغزالي قديماً - بعد عصر الترجمة - بإسم Algazal Abu Hamet أما اليوم فهو معروف بـ Alghazali Abu Hamid^(٧) . ليس بالضرورة أن يكون له ولد بهذا الإسم فلقد ذكر أنه لم يعقب إلا البنات^(٨) .

(١) الزركلي: الاعلام، ج٧، ص٢٢.

(٢) عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي: ص٨٢.

(٣) الحموي: معجم البلدان: ج٤، ص٤٩.

(٤) المرتضى الزبيدي: إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ص١٨.

(٥) Watt, w. Montgomery, Muslim intellectual, A study of Al-Ghazali, Edinburgh, pp.181.

(٦) عبد الأمير الأعسم: الفيلسوف الغزالي، ص٨.

(٧) Wat, W. Montgomery, Islamic Philosophy and Theology, Edinburghe, 1962. p.114.

(٨) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١١٠.

ويشار إليه بالفقيه الشافعي لكونه أكبر فقهاء الشافعية في زمانه ورائد من رواد التجديد من بعده.

وهو أشعري من مؤسسي المدرسة الأشعرية وعلم من أعلامها الثلاثة الذين جاءوا من بعد الأشعري، وهم الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، والجويني (ت ٤٧٨هـ)، والغزالي (ت ٥٠٥هـ).

ويلقب بالطوسي نسبة لطوس إحدى مدن خراسان وهي المنطقة التي شهدت مولده^(١).

ويعرف الغزالي من خلال القاب كثيرة منها: حجة الإسلام، إمام أئمة الدين، الإمام البحر، أعجوبة الزمان، زين الدين، إمام الفقهاء، محجة الدين، جامع أشات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم.

مولده ونشأته:

جاء في الطبقات الكبرى أن الغزالي «ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكان بطوس، فلما حضرته الوفاة وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين فعلمهما ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما. فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني ذلك النذر الذي كان خلفه لهما أبوهما، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما فقال لهما: «اعلما إنني قد أنفقت عليكما ما كان لكما وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به. وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ إلى مدرسة، فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما» ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهم. وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله»... ويحكي أن أباه كان فقيراً صالحاً، لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف، ويطوف على

(١) الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩.

المتفقهة ويجالسهم ويتوفر على خدمتهم، ويجد في الإحسان إليهم، والنفقة بما يمكنه عليهم وأنه كان إذا سمع كلامهم بكى، وتضرع. ويسأل الله أن يرزقه إبناً ويجعله فقيهاً، ويحضر مجالس الوعظ. فإذا طاب وقته بكى وسأل الله أن يرزقه إبناً واعظاً. فاستجاب الله دعوتيه. أما أبو حامد فكان أقرنه، وإمام أهل زمانه، وفارس ميدانه، كلمته شهد بها الموافق والمخالف، وأقر بحقها المعادي والمخالف، وأما أحمد فكان واعظاً يلين الصم والصخور عند سماع تحذيره، وترعد فرائض الحاضرين في مجالس تذكيره^(١).

— دراسته:

يقول عبد الغافر بن اسماعيل الفارسي^(٢) عن الإمام الغزالي إنه «أخذ طرفاً في صباه بطوس من الفقه على الإمام أحمد الرازكاني^(٣) ثم قدم نيسابور مختلفاً إلى درس إمام الحرمين^(٤) في طائفة من الشبان من طوس. وجد واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة، وبز الأقران، وحمل القرآ، وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه في أيام إمام الحرمين، وكان الطلبة يستفيدون منه، ويدرس لهم ويرشدهم ويجتهد في نفسه، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف. وكان الإمام مع علو درجته وسمو عبارته، وسرعة جريه في النطق والكلام، لا يصفى نظره إلى الغزالي سراً لإبائه عليه في سرعة العبارة وقوة الطبع، ولا يطيب له تصديه للتصانيف وإن كان متخرجاً به منتسباً إليه كما لا يخفى من طبع البشر، ولكنه

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٠٢، ١٠٣.

(٢) أبو الحسن عبد الغافر بن اسماعيل بن عبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر ابن أحمد بن محمد بن سعيد الفارسي الحافظ. كان إماماً في الحديث والعربية قرأ القرآن الكريم وتفقه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني. (٤٥١ - ٥٢٩ هـ) (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٢٥).

(٣) أحمد بن محمد الطوسي، أبو حامد الرازكاني وهذا الرازكاني أحد أشياخ الغزالي في الفقه. تفقه عليه قبل رحلته إلى إمام الحرمين. (السبكي: طبقات الشافعية، ج ٣، ص ٣٦).

(٤) عبد الملك بن عبد الله يوسف بن محمد الجويني: أبو المعالي ركن الدين الملقب بامام الحرمين. أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي (٤١٩ - ٤٧٨ هـ). (الزركلي: الاعلام، ج ٤، ص ١٦٠).

يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه ظاهراً خلاف ما يضمّره ثم بقي كذلك إلى انقضاء أيام الإمام^(١).

ويلاحظ من خلال هذه الرواية أن دراسة الغزالي خلال فترة ما قبل وفاة الجويني جاءت على مرحلتين الأولى بطوس على الراذكاني والثانية في نيسابور على الجويني. وهذا ما أخذ به قدماء المؤرخين باستثناء السبكي الذي انفرد من بينهم في الحديث عن دراسة الغزالي في جرجان على الشيخ الإسماعيلي^(٢)، ومما قاله: «قرأ في صباه طرفاً من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الراذكاني، ثم سافر إلى جرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي وعلق عنه التعليقة ثم رجع إلى طوس»^(٣). هذا ويروي الإمام أسعد الميهني^(٤) عن الغزالي قوله «قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إليّ مقدمهم وقال ارجع ويحك وإلا هلكت فقلت أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد عليّ تعلّقتي فقط فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي وما هي تعلّقتك، فقلت كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها فضحك وقال كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليّ المخلاة، قال الغزالي هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري... فلما وافيت طوس أقبلت على الإشتغال ثلاث سنين

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٠٧.

(٢) محمد بن الإمام أبي بكر أحمد بن إبراهيم بن اسماعيل أبو نصر الإسماعيلي كان عالماً رئيساً (ت ٤٠٥ هـ). (السمعاني: الأنساب، ج ١، ص ١٥٣ والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٣، ص ٣٧). لم يترجم السبكي لغيره بهذا الاسم لذلك يبدو وكأن الأمر قد اختلط بينه وبين الإمام أبي القاسم اسماعيل بن مسعدة بن اسماعيل بن الإمام أبي بكر أحمد بن إبراهيم بن اسماعيل الإسماعيلي (٤٠٧ - ٤٧٧ هـ) أوحد عصره وفريد وقته. (السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٣، ص ١٢٩ - ١٣٠).

(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٠٣.

(٤) أبو الفتح أسعد بن أبي نصر ابن أبي الفضل الميهني الفقيه الشافعي الملقب محي الدين، فوض إليه التدريس في النظامية ببغداد مرتين (ت ٥٢٧ هـ). (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٠٧).

حتى حفظت ما علقتة وصرت بحيث لو قلع علي الطريق لم أتجرد من علمي»^(١).

ثم إن الغزالي قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين، وجدّ واجتهد حتى بزغ في المذهب، والخلاف، والجدل، والأصلين، والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم... وكان رضي الله عنه شديد الذكاء، شديد النظر، عجيب الفطرة، مفرط الإدراك، قوي الحافظة، بعيد الغور، غواصاً على المعاني الدقيقة، جبل علم مناظراً محججاً. وكان إمام الحرمين يصف تلامذته فيقول: الغزالي بحر مغدق والكيّا^(٢) اسد مخرق، والخوافي^(٣) نار تحرق، ويقال إن الإمام كان بالآخرة يمتعض منه في الباطن وإن كان يظهر التبجح به في الظاهر^(٤).

ويبدو أن في رواية الامتعاظ الآنف الذكر ما لا ينسجم وأخلاق عالم كبير كالإمام الجويني الذي شهد للغزالي باتساع معرفته فقال عنه أنه «بحر مغدق» مما يدل على تعظيم وتقدير له. أما فيما يتعلق بقوله للغزالي «دفتني وأنا حي هلاً صبرت حتى أموت»^(٥) فالمقصود بذلك حسب ابن الجوزي «أن كتابك لقد غطى على كتابي»^(٦). وبدورنا نرى أن في هذا اعترافاً للغزالي بعلمه إضافة لكونه اعترافاً وافتخاراً به وإشارة أكيدة إلى اغتباط الجويني لا امتعاضه من تلميذه خاصة وأنه أكد على هذا النبوغ عندما قال فيه أنه «بحر مغدق». ومما يثير الشكوك حول

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٠٣.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري، الملقب عماد الدين المعروف بالكيّا الهراسي الفقيه الشافعي تفقه على إمام الحرمين أبو المعالي الجويني، وكان من رؤوس معيدي إمام الحرمين في الدرس والثاني بعد أبي حامد الغزالي. (٤٥٠ - ٥٠٤هـ). (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٨٦).

(٣) أبو المظفر أحمد بن المظفر الخوافي الفقيه الشافعي. كان انظر أهل زمانه. تفقه على إمام الحرمين الجويني وكان رفيق أبي حامد الغزالي في الاشتغال. (ت ٥٠٠هـ). (ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١، ص ٩٦ - ٩٧).

(٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٠٣.

(٥) ابن الجوزي: المتظلم، ج ٩، ص ١٦٩.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

مقولة الامتعاض المذكورة تقديمه للغزالي على غيره من الأقران واتخاذها مساعداً له في التدريس، مما يزيدنا قناعة بوضع علامات استفهام حول ما قيل في هذا الباب، والله أعلم بالصواب.

أما بالنسبة لدراسة الغزالي يبدو أن رواية السبكي عن طريق الميهني أقرب للصواب لما يمكن استخلاصه من آثار عميقة لحادثة سرقة التعليقة على شخصية الغزالي في التعاطي مع العلوم وتحصيلها، وبالتالي تحقيق طموحاته في تلقي العلوم الشرعية على الجويني علاوة على أن الحادثة تشير إلى تلقي الغزالي للعلم في جرجان. فاستناداً إلى ما سبق يمكننا تقسيم دراسة الغزالي إلى ثلاث مراحل فيما لو استثنينا المرحلة التي تلت وفاة الجويني:

- المرحلة الاولى بطوس.

- المرحلة الثانية في جرجان.

- المرحلة الثالثة في نيسابور.

ولقد اكتملت في المرحلة الثالثة معالم شخصية الغزالي التي اتسمت باتجاهات فكرية خاصة به في شتى العلوم سواء الدينية أو الدنيوية منها.

ولقد كانت مرحلة ما بعد وفاة الجويني ٤٧٨هـ متميزة عن غيرها بسبب استغراق الغزالي في التعلم الذاتي والبحث المضي عن الحقيقة، إلى جانب إقباله في نهاية المطاف على علوم الحديث، وفي ذلك يقول عبد الغافر الفارسي: «ثم حكى أنه راجع العلوم وخاض في الفنون وعاود الجهد والاجتهاد في كتب العلوم الدقيقة واقتفى تأويلها حتى انفتح له أبوابها وبقي مدة في الوقائع وتكافؤ الأدلة وأطراف المسائل، ثم حكى أنه فتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شيء وحمله على الإعراض عما سواه حتى سهل ذلك وهكذا هكذا إلى أن ارتاض كل الرياضة، وظهرت له الحقائق، وصار ما كنا نظن به تمرسا وتخلقا طبعاً وتحققاً، وإن ذلك أثر السعادة المقدرة له من الله»^(١).

وفي مجال إقباله على تحصيل علم الحديث يشير عبد الغافر إلى أن الغزالي

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٠٩.

عمد في خاتمة أمره لمجالسة أهل الحديث ومطالعة الصحيحين . ويؤكد على أنه لو عاش لسبق الكثيرين في هذا المجال . ومن الذين أخذ عنهم الحديث أبي سهل محمد بن عبدالله الحفصي المرمزوي^(١)، وأبي الفتيان عمر بن أبي الحسن الزواسي الدهستاني^(٢) وغيرهما^(٣).

وفي التصوف قرأ على الإمام الفارمدي الصوسي^(٤) . وطالع كتب أبي طالب المكي^(٥) والحارث المحاسبي^(٦) والجنيد^(٧) واشبلي^(٨) وأبي يزيد البسطامي^(٩) وغيرهم^(١٠) . أما علوم الفلسفة لا شيخ له فيها حسب ما صرح بذلك في كتابه «المنقذ من الضلال»^(١١).

-
- (١) ابو سهل محمد بن عبدالله الحفصي المرمزوي . حدث بنيسابور ودرس بالنظامية (ت ٥٠٦هـ) . (السماعاني: الانساب، ج ٢، ص ٢٣٩) .
- (٢) ابو الفتيان عمر بن عبد الكريم بن سعدوية الدهستاني الرواسي . شيخ مشهور عارف بالطرق كتب الكثير وجمع الابواب وصنف، خرج من نيسابور الى طوس فأنزله ابو حامد الغزالي عنده وقرأ عليه الصحيح (الذهبي: سير اعلام النبلاء ج ١٩، ص ٣١٧ - ٣١٩) .
- (٣) انظر السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٠٥ - ١١٩ .
- (٤) الامام الكبير، شيخ الصوفية ابو علي الفضل بن محمد الفارمدي الخراساني الواعظ شيخ الشيوخ في عصره (الذهبي: سير اعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٥٦٥) .
- (٥) ابو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي الواعظ المكي صاحب كتاب (قوت القلوب) كان رجلا صالحا مجتهدا في العبادة وله مصنفات في التوحيد (ت ٣٨٦ هـ) (ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج ٤، ص ٣٠٣) .
- (٦) ابو عبدالله الحارث بن اسد المحاسبي البصري الاصل الزاهد المشهور، احد رجال الحقيقة له كتب في الزهد والاصول وكتاب (الرعاية) له (ت ٤٣٣ هـ) (ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج ٢، ص ٥٧ - ٥٨) .
- (٧) ابو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاري الزاهد المشهور، اصله من نهوند ومنشأه العراق وكان شيخ وقته وفريد عصره (ت ٢٩٧ هـ وقيل سنة ٢٩٨ هـ) (ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج ١، ص ٣٧٣) .
- (٨) دلف بن جحدر ويقال بن جعفر . اشتهر بالصلاح وسلك مسالك المتصوفة، اصله من خراسان ونسبته الى قرية «شبله» من وراء النهر . ولد بسر من رأى وتوفي في بغداد (٢٤٧ - ٣٣٤ هـ) . (الزركلي: الاعلام، ج ٢، ص ٣٤١) .
- (٩) طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي البسطامي . الزاهد المشهور . كان جده مجوسيا ثم اسلم (ت ٢٦١ هـ وقيل ٢٦٤ هـ) (ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج ٢، ص ٥٣١) .
- (١٠) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٣١٠ - ١٣٢ .
- (١١) أ - المرجع السابق، ص ٩٥ .
ب - المرتضى الزبيدي: اتحاف السادة المتقين بشرح اسرار احياء علوم الدين ج ١، ص ١٩ .

– تجربته في النظامية:

كان لوفاة الإمام الجويني أثاراً بالغة الأهمية على حياة الغزالي الذي لم يكن يفارق أستاذه. فلقد كان ملازماً له، مشاركاً إياه في إعادة بناء العقيدة الأشعرية بروح من التجدد. مما جعله مميزاً عمن سبقوه سواء في عملية الدفاع عن هذه المدرسة أو الإسهام في بناء صرحها.

ولقد عيّن الغزالي مدرساً في النظامية بعد وفاة الجويني إثر لقائه نظام الملك، ففي جمادى الأول من عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م باشر التدريس في النظامية وهو في سن الرابعة والثلاثين من العمر مما يعكس مقدرة علمية متفوقة أهله لتحقّق هذا الشرف العظيم في سن مبكرة، حيث أنه نادراً ما تأتي لعالم أن يبلغ شأواً كهذا في سن كهذه، وتحدّث المؤرخون عن هذه الفترة من حياة الغزالي مبينين كيف «علت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة»^(١).

ومما قاله السبكي في معرض حديثه عن هذه المرحلة من حياة الغزالي «ثم لما مات إمام الحرمين خرج الغزالي إلى «العسكر» قاصداً الوزير نظام الملك إذ كان في مجلسه مجمع أهل العلم وملاذهم، فناظر الأئمة العلماء في مجلسه، وقهر الخصوم، وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقاه صاحب التعظيم والتبجيل، وولاه تدريس مدرسته ببغداد وأمره بالتوجه إليها... فقدم بغداد في سنة أربع وثمانين واربعمائة ودرس بالنظامية وأعجب الخلق حسن كلامه، وكمال فضله، وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة، وإشارته اللطيفة، وأحبه وأقام على تدريس العلم ونشره بالتعليم والفتيا، والتصنيف مدة، عظيم الجاه، زائد الحشمة، عالي الرتبة، مسموع الكلمة، مشهور الاسم، تضرب به الأمثال، وتشد إليه الرحال، إلى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا فرفضت ما فيها من التقدم والجاه وترك كل ذلك وراء ظهره»^(٢) متخلياً عن التعليم في النظامية حيث كان مستغرقاً بالتدريس

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٠٧.

(٢) المرجع السابق ص١٠٣، ١٠٤.

والإفادة لثلاث مائة نفر من الطلبة^(١). «واستتاب أخاه في التدريس»^(٢) بدلا منه.

ـ رحلته داخل العالم الإسلامي؛

اختلف رجال الطبقات والمؤرخون والباحثون قديماً وحديثاً حول حادثة سفر الغزالي وخروجه من بغداد سواء لجهة المدة التي قضاها أو الأمكنة التي توجه إليها. وكان لهم في ذلك آراء اختلفت حيناً وابتعدت أحياناً كثيرة.

ويمكن تصنيف الأسباب التي تكمن وراء رحلة الغزالي إلى فئتين رئيسيتين:

١ - الأسباب التي تعزى لتصوف الغزالي وزهده وهي التي عبر عنها في كتابه «المنقذ من الضلال».

٢ - الأسباب ذات البعد السياسي وهي التي أفرزتها الأحداث والصراعات بين الفئات المتناحرة في تلك الفترة.

وهناك من اختلق أسباباً أخرى أو دمج بين أكثر من سبب، إلا أن ما سبق ذكره يشكل القاعدة الأساسية التي انطلق منها جميع الذين تطرقوا للحديث عن هذه المرحلة من حياة الغزالي.

أما بالنسبة لما قاله الغزالي عن نفسه في هذا المجال فقد جاء في كتابه «المنقذ من الضلال» حيث يقول:

«ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أهدقت بي من كل الجوانب، ولاحظت أعمالي - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة.

ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت. فتيقنت أنني على شفا جرف هار وإنني قد أشفيت على النار، إني لم اشتغل بتلافي الأحوال.

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ٩٥.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٠٤.

فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى. لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل! الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل! فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن (هذه العلائق) فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار!

ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الإضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطبيقاً لقلوب المختلفة إلي، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا استطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراعاة الطعام والشراب: فكان لا ينساغ لي ثريد، ولا تنهضم لي لقمة، وتعدى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: «هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم».

ثم لما أحسست بعجزتي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة

الأصحاب على عزمي على المقام في الشام، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً. واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة، إذا لم يكن فيهم من يجوز أن يكون للإعراض عما كنت فيه سبب ديني، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين وكان ذلك مبلغهم من العلم.

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات، وظن من بعد عن العراق، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قرب من الولاة فقد كان يشاهد الحاحهم في التعلق بي والإنكباب علي، وإعراضهم عنهم، وعن الالتفات إلى قولهم، فيقولون: «هذا أمر سماوي، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة أهل العلم».

ففارقت بغداد، وفرت ما كان معي من المال، ولم أدر إلا قدر الكفاف وقت الأبطال، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح، لكونه وقفاً على المسلمين^(١).

هذا ما كان عند الغزالي من أسباب دعوته للرحيل... والذي يرجع إلى كلام أصحاب الطبقات وقدامى المؤرخين من أمثال عبد الغافر الفارسي، وابن عساكر الدمشقي، وابن الجوزي، وابن خلكان، والذهبي، والياقعي اليماني وغيرهم، يجد أن هناك شبه إجماع على اعتبار أن سبب رحلة الغزالي هو زهده وتصوفه، وبهذا فإنهم يأخذون بما قاله الغزالي عن نفسه.

وهناك من عزى ذلك إلى علاقته بابن تاشفين ورضاه عن إطلاق لقب أمير المؤمنين عليه، وإمكان تسبب ذلك بانزعاج وإثارة حفيظة ذوي السلطان في بغداد^(٢).

وبالنسبة للمحدثين والمعاصرين، فلقد ذهب عدد كبير منهم باتجاه سعى من خلاله إغفال ما قاله الغزالي عن نفسه، إضافة إلى تجاهل ما تمسك به

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٣٤ - ١٣٧.

(٢) عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي، ١٨ - ٢١.

أصحاب الطبقات من أسباب . فكارادوفو مثلاً يقول معلقاً على سفر الغزالي : «فإن الرغبة في السلوك مع الصوفية لا ينظر إليها في ذلك الحين بالذات كدافع أساسي لخروجه من بغداد»^(١).

ويرى آخرون أن للحوادث السياسية - التي شهدتها البلاد الإسلامية - أثرها في خروج الغزالي من بغداد^(٢). وهذا ما يشير إليه الأعمش^(٣)، ويعتبره من الأسباب الرئيسة إلا أنه يغالي في تصوير تأثير الخوف على تحرك الغزالي من مكان إلى آخر لدرجة لامست اتهامه بالجبن وهذا ما يتنافى كدية مع شخصية الغزالي العالم العامل بما يعلم.

ولو سلمنا فرضاً بصحة الآراء التي تعتبر أن أسباب السفر سياسية يصبح من حق المرء أن يتساءل فيما إذا تعرض الغزالي لضغوط حاولت إرغامه على القاء دروس وإصدار فتاوى وإبداء آراء لا تتفق وقناعاته خصوصاً وأن الغزالي قد كتب كتابه «المستظهر» بناء لطلب الخليفة.

إلا أن الغزالي لم يفصح عن أسباب محددة أو حوادث معينة وقفت وراء مغادرته بغداد. وإذا كان هناك من يرى أن اعتراف الغزالي - في المنقذ - لا يرضي النقد العلمي في توضيح أسباب خروجه وعزلته. إلا أننا نرى أنه من الأصوب أن نلتزم بحرفية ما قاله عن نفسه حيث أنه عزی خروجه لأسباب دينية ونفسية مردها تصوفه وزهده، الذي عبّر عنه بإسلوب مشوق وجذاب ترك من خلاله الباب مفتوحاً لمن يرغب في الاجتهاد، طمعاً في الوقوف على الأسباب.

وهناك نقطة هامة في حياة الغزالي لم يتطرق إليها أحد من القدامى أو المحدثين في الوقت الذي يمكن أن نخلص من خلالها إلى إضافة - قد تكون - مقبولة على ما قاله الغزالي في دواعي خروجه من بغداد. وبتقديري أن شبح اليتيم - بمعنييه الحقيقي والمجازي - الذي كان يطارده طيلة حياته قد شكل أحد العوامل

(١) كرادوفو: الغزالي، ص ٤٨، ٤٩.

(٢) عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي، ص ٢٠.

(٣) عبد الأمير الأعمش: الفيلسوف الغزالي، ص ٢٠.

الحافزة له على مغادرة بغداد علّه يحظى بالأبوة التي افتقدها طفلاً وإستمر في افتقادها طيلة حياته وكان آخرها فجعه بالجويني ومن ثم بنظام الملك الذي شكلت وفاته منعطفاً هاماً في حياته خاصة وأنه كان قد تبنى فكره وآراءه وشكل له حماية نفسية ومعنوية فكان من الطبيعي جداً أن ينعكس ذلك على مجرى حياته. فما كان منه إلا أن سعى خارج بغداد طمعاً في إيجاد البديل الذي تجسد في اللجوء إلى مجير المستضعفين ومجيب دعوة الداعين الله رب العالمين.

ولم يقتصر الخلاف حول سفر الغزالي على اسباب خروجه فحسب بل تعداها ليطال المدة التي قضاها مسافراً والبلاد التي زارها... وقبل أن نستعرض الآراء الخاصة بهذا الموضوع، يستحسن أولاً أن نستمع إلى ما قاله الغزالي عله يلقي الضوء على ما نسعى للوصول اليه....

يقول أبو حامد: «ثم دخلت الشام وأقمت بها قريبا من سنتين لا شغل إلي إلا العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة، اشتغالا بتزكية النفس، وتهذيب الاخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من كتب الصوفية فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي... ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي... ثم تحركت في داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه، فسرت الى الحجاز... ثم جذبتني الهمم، ودعوات الاطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه. فأثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة، وتصفية القلب للذكر.

وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش، تغير في وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة. لكنني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين»^(١).

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٣٨، ١٣٩.

ويورد عبد الكريم العثمان في كتابه «سيرة الغزالي» آراء عدد من المؤرخين ورجال الطبقات الذين تطرقوا لهذه النقطة فيقول «ومن الذين نحوا نحو هذا الاتجاه»^(١) - أي الذين اعتبروا أن رحلة الغزالي دامت سنتين - ابن الجوزي وأبو الفداء وابن العماد والقاضي ابن العربي .

ويقول ابن الجوزي «وفي ذي العقدة خرج ابو حامد الغزالي من بغداد متوجهاً إلى بيت المقدس تاركاً للتدريس في النظامية زاهداً في ذلك لابساً خشن الثياب بعد ناعمها، وناب عنه أخوه في التدريس، وعاد في السنة الثالثة من خروجه وقد صنف كتاب «الإحياء» فكان يجتمع إليه الخلق الكثير كل يوم في الرباط يسمعون منه»^(٢) .

ويقول أبو الفداء في حوادث ٤٨٨ هـ «وفيها سار ابو حامد الغزالي إلى الشام وترك التدريس في النظامية لأخيه نيابة عنه، وتزهّد ولبس الخشن وزار القدس وحج ثم عاد إلى بغداد، وسار إلى خراسان»^(٣) .

أما ابن العماد فيذكر في الشذرات في حوادث سنة ٤٨٨ هـ أيضاً «وفيها قدم الإمام الغزالي دمشق متزهداً وصنف الإحياء وأسمعه بدمشق وأقام فيها سنتين ثم حج ورد إلى وطنه»^(٤) .

ويحدث القاضي ابن العربي أنه لقي الغزالي في بغداد وفي رباط أبي سعد بالذات في جمادي الاخرى، سنة ٤٩٠ هـ «ورد علينا دانشمند»^(٥) يعني الغزالي فنزل برباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظامية، معرضاً عن الدنيا، مقبلاً على الله تعالى فمشينا إليه وعرضنا أمانيتنا عليه، وقلت له أنت ضالتنا التي كنا ننشد وإمامنا الذي به نسترشد فلقينا لقاء المعرفة وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة»^(٦) .

(١) عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي، ص ٢٣.

(٢) ابن الجوزي: المتظم، ج ٩، ص ٨٧.

(٣) ابو الفداء: تاريخ ابي الفداء، ج ٤، ص ١٢٢.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٣، حوادث ٤٨٨، ص ٣٨٣.

(٥) دانشمند: صاحب العلم.

(٦) المقرئ: نفح الطيب، ج ١، ص ٤٨٢.

«ولكن بعض رجال الطبقات يرون أنه كان مدة العزلة كلها في بلاد الشام بين دمشق والقدس. ذهب منها مرة إلى الحج. أي أن الغزالي أمضى عشر سنين في الشام... وممن نحا هذا النحو عبد الغافر وابن عساكر والسبكي»^(١).

أما بالنسبة للبلاد التي زارها، فلو أننا تخطينا الخلاف حول سير خط رحلته وسواء أكان ذهابه للحج أولاً أم أنه جاء فيما بعد، إلا أنه اختلف في موضوع سفره إلى مصر. فهناك من يقول بأن الغزالي قصد مصر وأقام بالاسكندرية. ومن الذين أخذوا بهذا الرأي صاحب معجم البلدان الذي يقول في ذلك «وقيل أنه قصد الاسكندرية وأقام بمنارتها»^(٢). وجاء في تاريخ أبي الفداء أن الغزالي «قصد دمشق وأقام بها مدة ثم انتقل إلى القدس واجتهد في العبادة ثم قصد مصر وأقام بالاسكندرية مدة»^(٣).

ونميل بدورنا للأخذ بما قاله الغزالي لقناعتنا - كما سبق وأشرنا - أن حديث الرجل عن نفسه يبقى الأصدق والأقرب إلى الحقيقة، فكيف إذا كان صادراً عن رجل بمستوى علم الغزالي وأخلاقه؟! فانطلاقاً من وجهة النظر هذه فإننا نلتقي مع ما جاء على لسان اليافعي اليماني في تعليقه على بعض من سبقوه في الحديث عن سيرة الغزالي. ومما قاله:

«قلت: وأما قول الذهبي^(٤) إنه صنف الاحياء، وأسمعه بدمشق فمخالف لما ذكر الإمام ابو حامد المذكور في كتابه (المنقذ من الضلال) إنه أقام في الشام قريباً من سنتين مختلياً بنفسه، ولم يذكر إسماعه الاحياء ولا تصنيفه إياه، ولو كان لذكره كما ذكر علوماً أخرى، صنف فيها قبل السفر أيضاً. فتصنيف الاحياء مع ما

(١) عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي، ص ٢٣ - ٢٤.

(٢) الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩.

(٣) ابو الفداء: كتاب المختصر في اخبار البشر، ج ٤، ص ١٤٤.

(٤) محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، ابو عبدالله: حافظ مؤرخ، علامة متحقق تركماني الاصل من اهل ميفارقين مولده ووفاته في دمشق تصانيفه كثير تقارب المئة. كف بصره سنة (٧٤١هـ). وحل الى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان (٦٧٣ - ٧٧٤هـ / ١٣٧٤ - ١٣٤٨م) (الزركلي: الاعلام، ج ٥، ص ٣٢٦).

اشتمل عليه من العلوم الواسعة، المحاكاة للبحر الذي امواجه متدافعة لا يمكن وضعه في سنتين ولا ثلاثة ولا اربعة.

وأما ما ذكره ابن كثير^(١) وغيرهم من كونه حج قبل سفره إلى الشام، وأنه أقام في الشام عشر سنين، وأنه دخل مصر والاسكندرية، ورام الاجتماع بملك المغرب، فكل ذلك مخالف لصريح ما نص عليه أبو حامد في كتابه المذكور فإنه ذكر فيه أنه توجه إلى الشام قبل توجهه إلى مكة ثم توجه إلى الحج بعد السنتين المذكورتين، ثم كر راجعاً إلى وطنه وأولاده. وهذا يدل على بطلان القول المذكور وفساده. والعجب كل العجب من قوله إنه قصد سلطان المغرب بقضاء أرب، وهو من ملاقة السلاطين قد هرب^(٢).

وإذا كنا نختلف مع ابن الأثير لقوله بأنه صنف الاحياء خلال مدة سنتين إلا أننا نلتقي معه بأن الغزالي «عاد إلى بغداد بعدما حج في السنة التالية وسار إلى خراسان»^(٣).

ومما يقوي هذا الرأي في نظرنا بالإضافة إلى ما ذكرناه أن الصليبيين استولوا على بيت المقدس عام ٤٩١هـ وذلك بعد أن ملكوا أنطاكية وقتلوا ملك معرة النعمان وتوالى استيلاؤهم على بلاد الشام واحدة بعد الأخرى ومع ذلك لا نسمع للصليبيين ذكراً في كتابات الغزالي، ولا تحريضاً منه للمسلمين على الجهاد والدفاع عن الدين والبلاد، ولا نظنه لو كان في الشام آنذاك يغفل عن مثل هذا الواجب. وقد سبق له أن شارك في تبليان خطر الباطنية ووقف أمامهم وهم في قوتهم وعظمتهم^(٤) إضافة إلى أنه وقف إلى جانب الخلفاء وتكلم عن ظلم

(١) اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصري ثم الدمشقي ابو الفداء، عماد الدين. حافظ مؤرخ فقيه. من كتبه «البداية والنهاية» (الزركلي: الاعلام، ج ١، ص ٣٢٠) (٧٠١ - ٧٧٤هـ = ١٣٠٢ - ١٣٧٣م).

(٢) الياضي اليماني: مرآة الجنان، اخبار سنة ٤٨٨هـ. ج ٣، ص ١٤٦.

(٣) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٥٠٦ - ٥٠٧.

(٤) عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي، ص ٢٤.

السلاطين للرعية في الوقت الذي لم يكن فيه للخليفة حول ولا قوة أمام سلطة السلاطين الذين كانوا يمسكون بمقاليد الأمور ويسيطرون على مقدرات البلاد.

ويمكننا من خلال ما سبق أن نرجح الاعتقاد بأن الغزالي:

١ - لم يبق في دمشق إلا سنتين عاد بعدها إلى بغداد.

٢ - لم يعزم لملاقة السلطان يوسف بن تاشفين.

٣ - لم يسافر إلى مصر، خاصة وأنه لم يشر في كتبه إلى مثل هذه الرحلة^(١).

ـ مؤلفاته^(٢)؛

الغزالي علم من أعلام الفكر الإنساني الذين بلغوا - في حياتهم ومماتهم - مكانة رفيعة. ولقد لعبت الحقيقة والأسطورة دوراً في ذلك تبعاً لما فطر عليه الناس من نسبة جلائل الأعمال إلى من يحظون بالشهرة والمجد حتى ولو لم يكن هم أصحابها ولذلك ليس غريباً أن ينسب إلى الغزالي كما نسب لغيره من العظماء أعداد كثيرة من المؤلفات التي شغلت الباحثين في التحقيق منها على مدار سنوات طويلة.

فالبحت عن مؤلفات الغزالي بدأ فعلياً في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي مع ر. جوشه R. Gosche الذي كتب بحثاً تناول فيه حياة الغزالي ومؤلفاته وكان ذلك عام ١٨٥٨م حيث تناول بالبحث أربعين مؤلفاً تقريباً.

وتبعه مكدونالد D.B. Macdonald في بحث نشرته «مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية» JAOS سنة ١٨٩٩. كما تعرض المستشرق أغناطيوس جولدتسير لكتب الغزالي في كتاب نشره في الجزائر سنة ١٩٠٣. ثم عاد وتعرض لكتب الغزالي في مقدمة كتاب «فضائح الباطنية» الذي نشره سنة ١٩٢٦ في لندن.

(١) عبد الرحمن بدوي: مؤلفات الغزالي، ص ٢٣. وقمير: الغزالي، ج ١، ص ٣.

(٢) أكثره مستقى من كتاب عبد الرحمن بدوي: مؤلفات الغزالي، ص ٩ - ١٩.

وفي مقالة نشرت سنة ١٩١٤ تحدث جيردner W.H.T. عن كتاب «مشكاة الأنوار ومشكلة الغزالي».

ويعتبر ما قام به ماسينيون أول محاولة جدية لترتيب مؤلفات الغزالي في كتاب أسماه «مجموع نصوص غير منشورة خاصة بتاريخ التصوف في بلاد الإسلام» نشر في باريس سنة ١٩٢٩ م. واعتمد ماسينيون المنحى التاريخي لهذه المؤلفات، إلا أنه لم يتطرق إلى المؤلفات المنحولة.

ويعتبر كتاب اسين بلاثيوس Asin Palacios الضخم أول بحث جاد عالج الصحيح والمنحول من كتب الغزالي. ولقد جاء الكتاب في أربعة مجلدات نشرت في مدريد بين عامي ١٩٣٤ - ١٩٤١.

ويعادل هذا الكتاب في الأهمية البحث الذي كتبه مونجيمري وات W.M.Wat ونشرته «مجلة الجمعية الآسيوية الملكية JRAS سنة ١٩٥٢ بعنوان «صحة المؤلفات المنسوبة إلى الغزالي» معتمداً في ذلك على ثلاثة معايير هي:

١ - إن الغزالي يعد النبوة ملكة فوق العقل.

٢ - إن الغزالي يرتب كتبه ترتيباً منطقياً.

٣ - إن للغزالي موقفاً من العقائد السنية.

ولا يفوت مونجيمري وات من التنبيه إلى ضعف هذه المعايير. وعلى الرغم من ذلك نراه يأخذ بها ويزاوج بينها ويرتبها ترتيباً تاريخياً معتمداً على الإشارات الواردة في كتب الغزالي.

وهي القاعدة التي اعتمدها جورج حوراني في مقال حول «الترتيب التاريخي لمؤلفات الغزالي». نشر في مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية JAOS في أكتوبر - ديسمبر سنة ١٩٥٩ م (المجلد رقم ٧٩، العدد ٤، ص ٢٢٥ - ٢٣٣). ويعتبر الثبت الذي تقدم به حوراني أدق من ذلك الذي قدمه مونجيمري رغم أنه لا يختلف عنه في الخطوط العامة.

ويعتبر كتاب موريس بويج Maurice Bougges «بحث في الترتيب التاريخي

لمؤلفات الغزالي» الذي نشره ميشيل الار Michel Allard في بيروت سنة ١٩٥٩ مع إضافة زيادات عليه أفضل ما كتب حتى الآن عن مؤلفات الغزالي لجهة حصر عددها والبحث في ترتيبها والتحدث عن كل كتاب منها من حيث صحته.

وفيما يلي الترتيب الزمني لمؤلفات الغزالي وفق ما أورده موريس بويج :

(أ) الفترة الأولى (من ٤٦٥ - ٤٧٨هـ) أي قبل وفاة إمام الحرمين :

١ - التعليقة في فروع المذهب .

٢ - المنحول في أصول الفقه .

(ب) الفترة الأولى من التعليم العام (من ٤٧٨ - ٤٨٨هـ) :

٣ - البسيط .

٤ - الوسيط .

٥ - الوجيز .

٦ - خلاصة المختصر .

٧ - المنتحل في علم الجدل .

٨ - مآخذ الخلاف .

٩ - لباب النظر .

١٠ - تحقيق المآخذ .

١١ - المباديء والغايات .

١٢ - شفاء الغليل .

١٣ - فتوى (لابن تاشفين) .

١٤ - فتوى خاضة بلعن يزيد بن معاوية .

١٥ - غاية الغور في دراية الدور .

١٦ - تهافت الفلاسفة .

١٧ - مقاصد الفلاسفة .

- ١٨ - معيار العلم .
- ١٩ - معيار العقول .
- ٢٠ - محك النظر في المنطق .
- ٢١ - ميزان العمل .
- ٢٢ - المستظهري .
- ٢٣ - حجة الحق .
- ٢٤ - الإقتصاد في الاعتقاد .
- ٢٥ - الرسالة القدسية في العقائد .
- ٢٦ - المعارف العقلية والاسرار الالهية .
- ٢٧ - قواعد العقائد .
- (ج) فترة العزلة من (٤٨٨ - ٤٩٩ هـ):
- ٢٨ - احياء علوم الدين .
- ٢٩ - كتاب في مسألة كل مجتهد مصيب .
- ٣٠ - جواب (الغزالي على مؤيد الملك بشأن دعوته للتدريس بالنظامية) .
- ٣١ - مفصل الخلاف .
- ٣٢ - جواب المسائل الاربع التي سألها الباطنية بهمذان .
- ٣٣ - المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنی .
- ٣٤ - رسالة في رجوع اسماء الله إلى ذات واحدة على رأي المعتزلة والفلاسفة .
- ٣٥ - بداية الهداية .
- ٣٦ - الوجيز .
- ٣٧ - جواهر القرآن .
- ٣٨ - الأربعين في أصول الدين .
- ٣٩ - المضمون به على غير أهله .

- ٤٠ - المضمون به على أهله .
- ٤١ - الدرج المرقوم بالجداول .
- ٤٢ - القسطاس المستقيم .
- ٤٣ - فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة .
- ٤٤ - القانون الكلي في التأويل .
- ٤٥ - كيمياء السعادة .
- ٤٦ - أيها الولد .
- ٤٧ - نصيحة الملوك .
- ٤٨ - زاد آخرت .
- ٤٩ - رسالة إلى أبي الفتح أحمد بن سلامة بالموصل .
- ٥٠ - الرسالة اللدنية .
- ٥١ - رسالة إلى بعض أهل عصره .
- ٥٢ - مشكاة الأنوار .
- ٥٣ - تفسير ياقوت التأويل .
- ٥٤ - الكشف والتبيين في غرور الخلف أجمعين .
- ٥٥ - تليس إبليس .
- (د) الفترة الثانية من التعليم بين (٤٩٩ - ٥٠٣هـ):
- ٥٦ - المنقذ من الضلال .
- ٥٧ - عجائب الخواص .
- ٥٨ - غاية الغور في دراية الدور .
- ٥٩ - المستصفى من علم الأصول .
- ٦٠ - سر العالمين وكشف ما في الدارين .
- ٦١ - الإملاء على الإحياء .
- (هـ) السنوات الأخيرة (من ٥٠٣ - ٥٠٥هـ):

٦٢ - الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة.

٦٣ - الجام العوام في علم الكلام.

٦٤ - منهاج العابدين.

ويحاول بويج أن يعرف بكل كتاب مستنداً إلى ما جمع من أخبار حوله من مخطوطات القاهرة واستانبول. ويصل بمجموع ما نسب من كتب للغزالي إلى الرقم ٣٨٣. أما الآر فقد وصل بها إلى ٤٠٤.

وبالنسبة للبحث الذي تقدم به عبدالرحمن بدوي فإنه يختلف عما فعله بويج والآخرين من وجوه عدة أجملها المؤلف في ست نقاط^(١).

ويمكن حصر أهم ما ألف الغزالي في ثلاثة كتب حتى لو لم يؤلف غيرها لبقى هو الغزالي العملاق المعروف بشخصيته المتميزة بعملها ومعرفتها وهذه الكتب هي:

١ - المنقذ من الضلال.

٢ - تهافت الفلاسفة.

٣ - الاحياء (وهو أهمها).

«ويعد الغزالي بحق، إمام أهل البيان، في الأسلوب العلمي، والإسلوب الاجتماعي، وقد حرص أشد الحرص على إفهام القارئ وإقناعهم بما يريد إبلاغهم إياه، فجانب التعقيد والاصطلاحات الفنية، وأكثر من ضرب الأمثال في تقريب المعاني الدقيقة، كما يعد بحق إمام العلماء الذين حاولوا تقريب الفلسفة، ومدرجات الصوفية إلى عقائد الدين وقواعدها»^(٢).

- وفاته:

كان الإمام الغزالي قد استقر في طوس عندما ألزم بالعودة إلى نيسابور

(١) انظر عبد الرحمن بدوي: مؤلفات الغزالي: ص ١٨ - ١٩.

(٢) احمد فريد رفاعي: الغزالي، ص ١٢.

للتدريس استجابة لرأي الوزير فخر الملك - ابن نظام الملك - في الوقت الذي لم يغب عنه خطر الفرق الهدامة والتيارات الإلحادية الباطنية، فلقد كان يعيش هذه الأزمة، ويستشعر خطرها إلا أنه كان يتحين الظروف المناسبة للوقوف بوجهها وتبيان زيفها ومن ثم درء خطرها. ويصور الغزالي ذلك أصدق تصوير في كتابه «المنقذ من الضلال» حيث يقول: «فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب، ورأيت نفسي ملبة بكشف هذه الشبهة حتى كان إفصاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم، أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء، انقذ في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت محتوم. فما تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عمّ الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك! ثم قلت في نفسي: متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة (ومصادمة هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة والدور دور الباطل)، ولو اشتغلت بدعوة الخلق، عن طرقهم إلى الحق، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم وأئى تقاومهم، فكيف تعايشهم) ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر؟».

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللا بالعجز عن إظهار الحق بالحجة، فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت نفسه لا بتحريك من خارج. فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور، لتدارك هذه الفترة وبلغ الإلزام حدا كان ينتهي، لو أصررت على الخلاف، إلى حد الوحشة. فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة والكسل والاستراحة... فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة... ويسر الله تعالى الحركة إلى نيسابور، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة»^(١).

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٥٧ - ١٥٩.

ولم يلبث الغزالي أن ترك نيسابور مرغماً بسبب الظروف التي أحاطت به إثر سقوط الوزير فخر الملك ذبيحاً بيد الباطنية. ولم يحدد أي مصدر إلى متى استمر الغزالي بالتدريس بنظامية نيسابور. ومعلوم أن فخر الملك قد قتله أحد الباطنية في اليوم العاشر من المحرم سنة ٥٠٠هـ^(١). ويشير عبد الغافر الفارسي إلى هذه الفترة من حياة الغزالي فيقول: «ثم ترك ذلك قبل أن يترك، وعاد إلى بيته واتخذ في جواره مدرسة لطلب العلم، وخانقاه للصوفية، وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن، ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس»^(٢).

وعلى الرغم من انشغال الغزالي في التعلم والتعليم والتربية الروحية غير أنه «لم يترك... مشاكل الناس بل عايشها وعاش معهم فبعث في سبيل ذلك، رسائل كثيرة إلى السلاطين والوزراء والأمراء ينصحهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحذرهم من الظلم وكثرة الضرائب على الشعب»^(٣).

«وبقي هكذا عالماً معلماً زاهداً ناصحاً مريباً داحضاً لحجج الفرق الهدامة إلى أن لبي نداء ربه»^(٤). «فنقله إلى كريم جواره بعد مقاساة أنواع من التقصر والمناوأة من الخصوم... وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين البخاري ومسلم... ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام يستفرغه في تحصيله، ولا شك أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية واشتغل بآخر عمره بسماعها...»^(٥).

«وكانت وفاته بطوس في يوم الاثنين رابع عشر جمادي الآخرة سنة خمس وخمسمائة ومشهده بها يزار بمقبرة الطابران. قال أبو الفرج بن الجوزي في كتاب الثبات عند الممات. قال أحمد أخو الإمام الغزالي لما كان يوم الاثنين

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٠٠.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٠٩.

(٣) الغزالي: ايها الولد، القسم الدراسي، ص ٢٣.

(٤) الغزالي: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٥) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٠٥، ١٠٦.

وقت الصبح توضعاً أخى أبو حامد وصى، وقال على بالكفن، فأخذه وقبله،
ووضعه على عينية، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مد رجله،
واستقبل القبلة ومات قبل الاسفار قدس الله روحه^(١).

..

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

الفصل الثالث

الغزالي وعصره

- مقدمة.
- موقف الغزالي من الأحوال السياسية السائدة.
- موقف الغزالي من التيارات الفكرية والدينية.
- موقف الغزالي من الأحوال الاجتماعية.
- موقف الغزالي من علوم عصره.

— مقدمة:

إن الفكر سواء كان تربويا أم غير ذلك لا ينبت في فراغ وإنما ينبت في تربة معينة ذات بعدين اثنين أولهما يتصل بالمفكر نفسه، وما أحاط به من ظروف خاصة. والثاني يتصل بالمجتمع الذي نشأ فيه ذلك المفكر، والآثار التي تركها عليه وعلى فكره، سواء كانت هذه آثار سلبية تعتبر رد فعل للواقع الاجتماعي. أو قد تكون آثار تعديل مسار تجمع بين السلب والإيجاب كما نرى في المفكرين المصلحين من أمثال مفكرنا الغزالي^(١). وهذا ما سنطلع عليه من خلال المواقف التي عبر عنها الإمام الغزالي في الأحوال التي سادت العصر الذي عاش فيه، حيث استطاع أن يكون «ذا أثر على التفكير الإسلامي، ولعل هذا الأثر يظهر في ناحيتين: الناحية الأولى في موقفه أمام الفلاسفة، وهدم مبادئهم وقد أدى ذلك إلى الحد من شأن الفلسفة والشك في قيمتها والتهجم عليها، ولولا الغزالي وأثره في القرن الخامس لسطعت جذوتها، ولكن حملة الغزالي قد صرفت الناس عن الفلسفة والفلاسفة وجذبتهم إلى الدين والتعلق به.

أما الناحية الثانية، فهي أن الغزالي المتصوف قد أثرت تعاليمه وكتبه في الشرق ولفتت كثيرا إلى الدين وأهله، وأشاعت الثقة بالعقائد الموروثة؛ تلك الثقة التي كادت أن تتزعزع أمام الفلاسفة ومن شايعهم. ولهذا عد الغزالي في نظر علماء المسلمين حاميا للإسلام أو حجة الإسلام».

(١) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي (كما يبدو من رسالة أيها الولد)، ص ١٧، ١٨.

من هنا تبرز أهمية موقف الغزالي من أحوال عصره خاصة وأنه «يهتم بالناس جميعاً لا بأفراد منهم»^(١).

ـ موقف الغزالي من الأحوال السياسية السائدة:

لقد عكست الأحوال السياسية نفسها على العلماء المسلمين مما حدى بهم للبحث في موضوع الحكم وإبراز ما للحاكم وما عليه تماماً كما فعل الإمام الغزالي الذي اعتبر السياسة من أشرف العلوم، فكانت له مواقف وملاحظات هامة على الحكم والحكام رغم صداقته وعلاقته المتميزة بنظام الملك. فلقد اندفع للكتابة في مجال السياسة والحكم والعلاقة بالسلطين انطلاقاً من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فحذر من أموال سلاطين عصره واعتبرها حراماً لأنها مجموعة من الخراج المضروب على المسلمين. ومن أنواع الرشوة ومن الجزية المأخوذة ظلماً من أهل الذمة لذلك لا يجوز أخذ شيء من هذه الأموال لأن الحلال فيها معدوم^(٢).

ويفرد الغزالي فصلاً كاملاً يتناول فيه موضوع التعامل مع الحكام الظالمين حيث يعرض بشجاعة منقطعة النظير الأدلة الشرعية التي يجب على المسلم مراعاتها في تعامله مع رجال السلطة وأهل الحكم.

ويتحدث الغزالي عن الفتن التي قد تنجم عن مخالطة السلاطين فيقول «الداخل على السلطان متعرض لأن يعصي الله تعالى إما بفعله أو بسكوته وإما بقوله وإما باعتقاده فلا ينفك عن أحد هذه الأمور»^(٣).

كما وأن الغزالي يحذر من الدخول على الحكام الظلمة ويقول إن لذلك ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: وهي شرها أن تدخل عليهم.

(١) بهي الدين زيان: الغزالي ولمحات عن الحياة الفكرية الإسلامية، ص ٨٢.

(٢) الغزالي: الإحياء، ج ٢، ص ١٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٧.

الحالة الثانية : دونها، أن يدخلوا عليك .

الحالة الثالثة : وهي الأسلم أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك^(١) .

• ويقر الغزالي بجواز الدخول على السلاطين في حالتين :

«إحداها: أن يكون من جهتهم أمر إلزام لا أمر إكرام، وعلم لو أنه امتنع أودي أو فسد عليهم طاعة الرعية . واضطرب عليهم أمر السياسة فيجب عليه الإجابة لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لا تضطرب الولاية .

والثاني: أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواء أو عن نفسه إما بطريق الحسبة أو بطريق التظلم فذلك رخصة بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً فهذا حكم الدخول»^(٢) .

وانطلاقاً من هذه القناعات ألف الغزالي كتاب «التبر المسبوك» بهدف نصيحة السلطان محمد بن ملكشاه انسجاماً مع إيمانه العميق بأن الدين النصيحة وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات كل مسلم خاصة أهل العلم والمعرفة وهو ما يؤكد عليه في قوله: «فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين لكونهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة فلما اخلصوا لله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فلينها وأزال قساوتها وأما الآن فقد قيدت الاطماع ألسن العلماء وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا . ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأرزال، فكيف على الملوك والأكابر؟ والله المستعان على كل حال»^(٣) .

(١) المرجع السابق، ص ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٩ .

(٣) المرجع السابق، ص ٣٨٥ .

ولم يقف الغزالي عند حد الموعظة إنما ترجم ذلك واقعا ملموسا ومواقف جلية. فهو لم يتردد في إصدار فتواه إلى جانب الخليفة المقتدي عندما توترت العلاقة بين الخليفة وخاتون زوجة السلطان ملكشاه بعد أن رفض المقتدي أن يحضر أمر الجيش وجباية الأموال بابنها محمود نظراً لصغر سنه. ولقد أيد الغزالي موقف الخليفة وأفتى بعدم جواز هذا الأمر^(١).

فالغزالي لم ترهبه سلطة السلاطين عن قول كلمة الحق في الوقت الذي لم يمنعه ضعف الخلفاء عن الوقوف إلى جانبهم والدفاع عنهم ففي «فضائح الباطنية» نرى كيف أنه في الباب التاسع من الكتاب يقيم البراهين الشرعية على أن الإمام الحق القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته هو الإمام المستظهر^(٢).

فمؤازرة الإمام الغزالي للخلافة العباسية ودفاعه عن المستظهر والولاء الكامل له لم يكن طمعاً بالمال أو الجاه وإنما كان طاعة لله ورسوله ولما يمثله المستظهر بصفته خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في سياسة الدنيا والدين.

– موقف الغزالي من التيارات الفكرية والدينية:

وفي غمرة الأحوال الدينية والفكرية التي كانت سائدة عشية الغزو الخارجي للعالم الإسلامي وفي خضم التشردم والصراعات بين القوى الإسلامية كان لا بد من وقفة لرأب الصدع ووقف النزف وإعادة اللحمة ومواجهة الصراع «بإعادة صياغة مفهوم الإسلام على نحو يسلك الجماعة الإسلامية في وحدة فكرية وسطية متكاملة»^(٣).

فعلى الصعيد الفكري حمل الغزالي لواء «إعادة صياغة مفهوم الإسلام» بالانتجاء نحو القرآن نفسه كمصدر أساسي. وإعطاء الإسلام تكامله وشموله

(١) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ص ٤٠.

(٢) الغزالي: فضائح الباطنية، ص ١٦٩.

(٣) انور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ، ص ٢٧٠.

بالجمع بين العقل والقلب في مواجهة انحرافات الباطنية والفلسفات القديمة^(١). ولقد أظهر في اختياراته الشخصية الدينية كل ما في الإسلام من مظاهر ومعان روحية وإليك ما قاله عن نفسه^(٢).

«ولم أزل في عنفوان شبابي... مذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف، السن على الخمسين اقتحم لجة هذا البحر العميق... وأتوغل في كل ظلمة... واستكشف أسرار مذهب كل طائفة... ولا أغادر باطنيا إلا وأحب أن اطلع على باطنيته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن اعلم حامل ظاهريته، ولا فلسفيا إلا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلميا إلا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيا إلا واحرص على العثور على سر صوفيته، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عباداته ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته. وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور ودأبي وديدني من أول أمري وربعان عمري غريزة وفطرة من الله تعالى وضعتا في جبلتي لا باختيارى وحيلتي»^(٣).

وانحصر أصناف الطالبين عند الإمام في اربع فرق:

١ - المتكلمون: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

٢ - الباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام العصوم.

٣ - الفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

٤ - الصوفية: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة»^(٤).

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص ٥١٩.

(٣) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ٧٩ - ٨١.

(٤) المرجع السابق، ص ٨٩.

وبطبيعة الحال كان للغزالي موقف من كل هذه الأصناف يمكن إيجازه على النحو التالي:

* علم الكلام:

يحدد الغزالي موقفه إزاء علم الكلام من خلال ما ورد على لسانه في «المنقذ» عندما يقول:

«ثم إنني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم وصنفت فيه ما أردت أن أصنف، فصادفته علما وافيا بمقصوده، غير واف بمقصودي إنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة... وحراستها عن تشويش أهل البلاغة. فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار. ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة، فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها. فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثه، على خلاف السنة الماثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله، ولقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه فأحسنوا النذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم، واضطروهم إلى تسليمها: إما التقليد، أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار. وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا فلم يكن الكلام في حقي كافيا، ولا لدائي الذي كنت اشكوه شافيا. نعم لما نشأت صنعة الكلام، وكثر الخوض فيه، وطالت المدة، تشوق المتكلمون إلى محاولة النذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور وخاضوا في البحث عن الجواهر والاعراض وأحكامها. ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، فلم يحصل منه ما يمحى بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق. ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك

لغيري، بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة، ولكن حصولا مشوبا بالثقة. بعض الأمور التي ليست من الأوليات! والغرض الآن حكاية حالي لا الإنكار. من استشفى به. فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء. وكم من دواء يمرض ويستضر به آخر»^(١).

ويشمل اصطلاح علم الكلام جميع الفرق التي اعتمدت على الدفاع عن العقيدة الدينية وبعد المعتزلة أشهر من زاول علم الكلام. وللكم المعتزلة وغيرهم من علماء الكلام على أن الاعتماد على العقل واجب. اختلفوا في مصدر هذا الواجب، فقالت المعتزلة: إن هذا المصدر ذاتي ناجم عن طبيعة العقل نفسه، وإن هذا العقل إذا بلغ تمامه استطاع أن يصرف معرفة الله. أما سائر المتكلمين فيثبتون تقدم النقل على العقل ويقولون لولا الشرع لما تمكن العقل من معرفة الله. ويأتي على رأس هؤلاء الأشاعرة يذهبون إلى أن العقل لا قيمة له بذاته وأن براهينه لا تكون صادقة إلا إذا مبنية على معطيات الشرع. وإذا تذكرنا أن الغزالي كان أشعري النزعة لم لوقوفه إزاء العقل موقفا قريباً من مذهب الأشاعرة وإن كان مختلفاً عنه غاية^(٢).

وفي كتاب «إلجام العوام عن علم الكلام» يحذر الغزالي العامة من الخوض في علم الكلام حيث يرى إن «السكوت عن السؤال واجب العوام لأنه بالسؤال متعرض لما لا يطيقه وخائض فيما ليس أهلاً له»^(٣).

وبهذا فإن سعي الغزالي لتحديد موقفه من علم الكلام وإظهار إيجاب وسلبات هذا العلم وإمكانيات الإفادة منه ينبع من حرصه على خدمة المسلمين.

(١) المرجع السابق، ص ٩١ - ٩٣.

(٢) جميل صليبا: تاريخ الفلسفة العربية، ص ٣٤٦.

(٣) الغزالي: إلجام العوام عن علم الكلام، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ٤، ص ٦٨.

* الفلسفة :

بالنسبة لما يتعلق بموضوع الفلسفة فلقد صُنّف حجة الإسلام كالفلاسفة» حيث بيّن فيه مجموع المسائل التي غلطوا فيها واعتبرها عرّاء مخالفة للدين ينبغي تكفيرهم في ثلاث منها وتبديعهم في الأخرى والمسائل الأساسية الثلاث التي كفر الفلاسفة فيها هي :

١ - قدم العالم وأزليته .

٢ - اقتصار علم الله على الكليات دون الجزئيات .

٣ - إنكار حشر الأجساد .

وتعتبر مسألة السببية من المسائل الهامة التي تعرض لها الغزالي «الإقتران بين ما يعتقد في العادة سبب، وما يعتقد مسبباً، ليس ضرور ولا إثبات أحدهما متضمناً لإثبات الآخر، مثل الري والشرب والاحترق ولقاء النار... وهلم جرا إلى كل المشاهدات... فإن سبق من تقدير الله سبحانه، يخلقها على التسوق لا لكونه ضرورياً فقابل للفوت»^(٢) وفي الحديث عن احتراق القطن عند ملاقاته النار يرى فاعل الاحتراق في القطن ليس النار، وإنما هو الله فإن النار وهي جله. ويضيف موضحاً رأيه «وليس لهم دليل، إلا مشاهدة حصول الملاقة النار، والمشاهدة تدل على الحصول عندها، ولا تدل على الـ وإنه له علّة له سواها»^(٣).

وبديهي أن الأسباب التي حملت الغزالي على إنكار مبدأ السببية النهائية إلى رغبته في ترك باب المعجزات مفتوحاً. فهو لم ينكر فعل ليعلق الأفعال والأسباب كلها بإرادة الله. وهو لم يجوز أن يلقي نبي

(١) الغزالي: تهافت الفلاسفة، ص ٢٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

يحترق إلا باعتقاده أن الله قادر على خرق العادات . . والسببية الحقيقية - في نظر الغزالي - ترجع إلى علاقة إرادية بين الله والعالم . أما ارتباط الأسباب والمسببات الطبيعية بعضها ببعض فليس له قيمة بنفسه ، ولا معنى له إلا إذا استند إلى إرادة الله^(١) .

أما فيما يتعلق بأصناف الفلاسفة فيقول الغزالي : «إنهم على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : الدهريون ، والطبيعيون والآلهيون»^(٢) . ولقد كان حكمه عليهم واضح عندما قال : «فاسمع الآن حكاياتهم وحكاية حاصل علومهم فإني رأيتهم أصنافاً ورأيت علومهم أقساماً وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه»^(٣) .

وينكر الغزالي على الفلاسفة سحب المقولات الرياضية والمنطقيات لتطبيقها على الأمور الدينية لأنه «لايتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفعاً وإثباتاً»^(٤) . ويرى أن مصدر انحرافهم هو إيمانهم واتباعهم «لأسماء هائلة كسقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م) وإيقراط (٤٦٠ - ٣٧٧ ق.م) وأفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) وأرسطوطاليس (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) وأمثالهم ، وأطناب طوائف من متبعيهم وظلالهم في وصف عقولهم وحسن أصولهم ودقة علومهم»^(٥) .

فالغزالي يهدف من وراء ذلك للرجوع إلى النبع الصافي للعقيدة . ففرض شرحه للأسباب التي دعت به إلى وضع كتاب التهافت يقول «أما بعد فإني قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأثراب والنظرء بمزيد الفطنة والذكاء ، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات واستحقروا شعائر الدين

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٧ - ٢٣٧ .

(٢) الغزالي : المنقذ من الضلال، ص ٩٦ .

(٣) المرجع السابق، ص ٩٥ .

(٤) المرجع السابق، ص ١٠٠ .

(٥) الغزالي : تهافت الفلاسفة، ص ٥٩ - ٦١ .

وظائف الصلوات والتوقي عن المحظورات واستهانوا بتعبات الشرع وح
يقفوا عند توقيفاته وقيوده فلما رأيت هذ العرق من الحماقة نابضاً ع
الأغنياء انتدبت لتحريز هذا الكتاب رداً على الفلاسفة القدماء مبينا تهافت
وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالآلهيات، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعو
هي على التحقيق مضاحك العقلاء وعبرة عند الاذكياء^(١).

* الباطنية:

يعتبر «الحسن بن الصباح أجد دعائهم وكان لا يدعو إليه من الناس
جاهلاً»^(٢). من أجل السيطرة على عقولهم. ولقد «التف عليه بشر ك
غفير»^(٣) فكان بمثابة العقل المدبر الذي نظم طائفة الباطنية خلا
السلجوقية، ولقد أثبتت الأحداث أن خطر هذه الحركة كان بالغ الأثر
الأصعدة لدرجة أن وقع أفعالهم طغى على وقع أخبار الحملات الصليبي
مما يجعل بعضهم يذهبون بعيداً بتفكيرهم لدرجة تكاد تجعلهم على
الإعتقاد بوجود علاقة ما بين الحملات الخارجية على الديار الإسلامية
الباطنية على الديانة الإسلامية عبر الفتن والاغتيالات والسيطرة على بعض
والقلاع إضافة إلى إباحة نهب أموال المسلمين وسفك دمائهم. وهذا
الأحداث التي أرخ لها ابن الأثير وابن الجوزي وغيرهما.

لذا لم يكن غريباً على الإمام الغزالي أن يقف بوجه هذه الفئة للث
دفاعاً عن الحق وقطعاً لدابر الملحدين من خلال بيان فساد مذهبهم في
كتاب حيث أنه يقول «وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم فقد ذكرت
كتاب «المستظهر» أولاً، وفي كتاب «حجة الحق» ثانياً. . . وفي كتاب
الخلافة» ثالثاً. . . وفي كتاب «الدرج المرقوم بالجداول» رابعاً. و

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٥٩.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

«القسطاس المستقيم» خامساً، وهو كتاب مستقل مقصوده بيان ميزان العلوم وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم لمن أحاط به»^(١).

ويشير الغزالي في كتاب «فضائح الباطنية» إلى بواغث ظهورهم، وأهداف دعوتهم ومرامي بدعتهم عندما يقول «مما تطابق عليه نقلة المقالات قاطبة أن هذه الدعوة لم يفتحها منتسب إلى ملة ولا معتقد لنحلة معتضد بنبوة فإن مساقها ينقاد إلى الإنسلاخ من الدين كانسلاخ الشعرة من العجين. ولكن تشاور جماعة من المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية والملحدين وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين وضربوا سهام الرأي في استنباط تدبير يخفف عنهم ما نابهم من استيلاء أهل الدين، وينفس عنهم ما دهاهم من أمر المسلمين حتى أخرجوا ألسنتهم عن النطق بما هو معتقدتهم، من إنكار الصانع وتكذيب الرسل وجحد الحشر والنشر والمعاد إلى الله»^(٢).

ويسعى الغزالي للكشف عن أساليبهم وطرقهم في الوصول إلى المسلمين من خلال الإستشهاد بما يقولون: «فسبيلنا أن نتحل عقيدة طائفة من فرقهم هم أركهم عقولا وأسخفهم رأياً وألينهم عريكة لقبول المحالات، وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات، وهم الروافض. ولنتحصن بالإنتساب إليهم والإعتزاء إلى أهل البيت عن شرهم... وتبالي لهم على ما حل بآل محمد صلى الله عليه وسلم»^(٣). ولقد كان لهذا الأسلوب أثره البالغ مما جعل عقيدة الباطنية تلقى قبولاً واستحساناً ورواجاً عند عامة الناس على الرغم من ضعف الحججة وفساد الطريقة^(٤).

ولقد صنف الإمام هذه الفئات إلى ثمانية أصناف حيث يقول: «وهم ثمانية أصناف: الصنف الأول طائفة ضعفت عقولهم، وقلت بصائرهم وسخفت في أمور آراؤهم لما جبلوا عليه من البله والبلادة»^(٥). ويتابع الغزالي تعداده إلى أن يقول

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٢٧.

(٢) الغزالي: فضائح الباطنية، ص ١٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٣.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٣ - ٣٤.

«وطائفة استولت عليهم الشهوات فاستدرجتهم متابعة اللذات واشتد عليهم وعيد الشرع وثقلت عليهم تكاليفه»^(١).

ومن يعود إلى ما قاله الإمام بن الجوزي في كتابه «تليس ابليس» والدبلمي في كتابه «بيان مذهب الباطنية وبطلانه» يرى أنهما يعكسان رأياً مطابقاً لرأي الإمام الغزالي في الباطنية ومشاربها وأسباب ظهورها ومراميها.

ويمكننا القول أن آراء الغزالي قد جاءت رداً على ما ساد الدولة الإسلامية من انحلال خلقي واضطراب سياسي وبعد عن الدين - سواء على يد الباطنية أم أتباع المذاهب الفلسفية - فكانت مواقفه نابعة من حرصه على الإسلام وليست نتيجة تأثير سياسي كما يحلو لبعضهم أن يقول. فالإمام عندما وقف إلى جانب الخلافة تحدث عن ظلم السلاطين، وما يجب أن يكون عليه الوزراء الظلمة لم يكن بذلك مسaireاً أو متملقاً للقوى الحاكمة وإنما كان متحدياً لها إستجابة لدافع الدين وتكريساً لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إقتداء بالرسول الكريم.

* الصوفية:

لقد أسهمت ثورة الغزالي على الفلاسفة إسهاماً فاعلاً في نصرة الصوفية التي كانت تمثل حركة مضادة لما كان يجري من نزاعات بين الفرق الإسلامية أدت إلى بلبلة الأفكار، وتفريق المسلمين وغلبة التعصب^(٢). فالتصوف كان العلاج لأمراض العصر لأن «ما في التصوف من الدعوة إلى طهارة الباطن، وحب الخير، وبغض الشر، وما إلى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات يرجع في جوهره إلى روح الإسلام. أما ما يختص بقطع العلائق مع الناس والتزهيد في الحياة فهو بعيد عن روح الدين»^(٣).

وعلى الرغم من أن لفظ التصوف لم يرد في الكتاب ولا في السنة إلا أن

(١) المرجع السابق، ص ٣٦.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١٧٤، ١٧٥.

(٣) زكي مبارك: الاخلاق عند الغزالي، ص ٨٠.

الله ورسوله قد أمرا بالتقوى والصدق والإخلاص ونهيا عن النفاق والرياء والخيانة. إذن فكل ما ينطبق عليه الصدق والإخلاص فهو من الإسلام في الصميم، وكل ما ينطبق عليه الرياء والنفاق فليس من الإسلام في شيء وبهذا المقياس وحده يمكننا الحكم على التصوف وكل ما قد يطرأ على الدين^(١).

فالصوفية في نظر الغزالي «خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة»^(٢) و«طريقهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل (بها) إلى تخلية القلب من غير الله (تعالى)»^(٣). وهذا «ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات». ويشير الغزالي إلى أن الصوفية «أرباب أحوال لا أصحاب أقوال»^(٤). و«هم السالكون لطريق الله (تعالى) خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من (نور) مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به»^(٥).

وبما أن تصوف الغزالي وأمثاله هو التقوى والحب والإخلاص لله وللإنسانية كان حقا وهداية^(٦). حيث أنه ابتعد عن جنوح المتصوفة الذين شطحوا فانتهوا «إلى دعوى الإتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالخطاب»^(٧). كما وأنه

(١) محمد جواد مغنية: «مصدر المعرفة عند الامام الغزالي»، ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية القاهرة. ص ٥١٣.

(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٤) المرجع السابق، ص ١٣٣.

(٥) المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٦) محمد جواد مغنية: «مصدر المعرفة عند الامام الغزالي» ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية القاهرة. ص ٥١٣.

(٧) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٤٨.

تجنب الذين تفيقهم فتكلموا «كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل... ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريد بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه»^(١).

فمفتاح طريق الغزالي «استغرق القلب بالكلية بذكر الله»^(٢). حيث ينتهي الأمر بعد ذلك إلى قرب «يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل ذلك خطأ»^(٣).

«فتصوف الغزالي تصوف مسلم سني متعبد آمن بالله والنبوة، وباليوم الآخر وكف نفسه عن الهوى، وأعرض عن الجاه والمال، وهرب من الشواغل والعلائق وأقبل بكنهه همتة على الله تعالى، لذلك كان التصوف عنده مبنيا على علم وعمل»^(٤). وهو في ذلك يقول «وكان العلم أيسر علي من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي... وكتب «الحارث المحاسبي» والمتفرقات المأثورة عن «الجنيد» و«الشبلي» و«أبي يزيد البسطامي»... وغيرهم... وكم من الفرق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن تكون صحيحا وشبعانا؟ وبين أن تعرف حد السكر... وبين أن تكون سكران... فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن تكون جالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا»^(٥).

ولقد رجع الغزالي إلى القلب لينقذ هذا الدين من المفاهيم الفاسدة والأفكار الخاطئة التي هددته بخطر بالغ، لقد أراد الغزالي هذا الدين خالصا من تأويلات أهل الباطن وإمعانهم في التعسف والتكلف، ومن جهل أهل الظاهر

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٤) جميل صليبا: تاريخ الفلسفة العربية، ص ٣٨٠.

(٥) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٣٠ - ١٣٣.

وجمودهم على الالفاظ ومن شطحات الصوفية التي تجاوزت كل حد ومن أوهام الفلاسفة وتخيلاتهم التي اعتبرت حقائق الروح في مرتبة أدنى من أقيسة أرسطو وتصورات...»^(١).

ففي زمن «كان جوهر الإسلام قد اختفى وتوارى خلف تيارات الكلام والفلسفة والباطنية فاستصفى الغزالي الإسلام من جديد، وأزال عن وجهه ذلك الغشاء الذي حجب صفاءه وصارع القوى التي كانت في يوم من أيام الإسلام أسلحة قوة ثم تحولت مع الزمن ومع انفصالها عن شمول الإسلام وتكامله ووسطيته لتصبح وكأنها مفهوم الإسلام نفسه، صارع قوى المتكلمين والباطنية والفلاسفة وواجه انحرافاتهما وردّها جميعها في صياغة جديدة وصبها جميعها من جديد في «بوتقة الإسلام» ليبرز الإسلام بمفهومه الاسنى وقد استصفى عناصر القوة والحيوية التي تتمثل في هذه الافكار والدعوات وأعادها إلى منابعها من الإسلام وأقام من جوهرها بناء فكر الإسلام في شموله»^(٢).

– موقف الغزالي من الأحوال الاجتماعية:

وفي هذه البيئة الاجتماعية التي اختلطت فيها العادات والمعتقدات والأجناس والألوان برزت العصبية والعنصرية كظاهرة اجتماعية وآفة من آفات المجتمع التي كانت سببا في نشوء الصراعات بين العناصر المختلفة، إضافة إلى أنها كانت عاملا من عوامل انحلال الاخلاق وتفشي المجون ومعاقرة الخمرة والاستهتار بالقيم مما حدا بالغيارى على الإسلام للتصدي لهذه الآفات والظواهر المرضية البعيدة عن منهج الإسلام.

ولقد شاءت إرادة المولى عز وجل أن يشهد الغزالي مشكلة العصر، فعاشها في عقله ووجدانه وكتابات. وعمد للكشف عنها وتشخيصها ومن ثم تحديد

(١) محمد جواد مغنية: «مصدر المعرفة عند الامام الغزالي»، ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ص ٥٢١.

(٢) انور الجندى: الاسلام وحركة التاريخ، ص ٢٧٠، ٢٧١.

العلاج المناسب لكل ظاهرة بما يتمشى معها ويناسبها من الجبرعات كماً وكيفاً. انتهى

٠ تابع كتاب الرسالة الإسلامية من ص ٦٥ الفقرة الثالثة لغاية ص ٨٥ ناهدة

«لذا فإن علم الأخلاق عند الغزالي هو علم نفس خلقي على الخصوص»^(١)
«وعمل الغزالي يقوم بوجه خاص، على الاستقصاء في الفروق وفيما دق من التحليل النفسي»^(٢).

ومن يرجع إلى كتاب «الاحياء» يرى مدى موضوعية الإمام الغزالي ودقته في تشخيص الآفات الاجتماعية. ففي الجزء الثالث الذي يتضمن ربع المهلكات يتجلى الإمام الغزالي كعالم في الأخلاق خبير في نفوس الناس قادر على سبر غورها والوصول إلى نتائج باهرة في علاجها ووضع حد لمعاناتها طمعاً في تحقيق المجتمع الإسلامي الخالي من الامراض والجدير بلقب خلافة الله تعالى في الارض.

ويتأكد لنا من خلال هذا الجزء وغيره إضافة إلى ما ورد في كتاب «الأدب في الدين» وسواه، مدى شمولية وتكاملية نظرة الغزالي إلى المجتمع بأسره حيث إنه استطاع بفضل عقيدته الإسلامية أن يضع منهجاً من السلوك القادر على توحيد القيم والاتجاهات بما يتلاءم مع الكتاب والسنة. ولئن أخذ بعضهم على الإمام الغزالي ذلك - رغم ما يميز هذه الآداب من شمولية وتجانس - بحجة ما تلحقه من جمود وقيود وحدود بكل من التربية والأجيال والثقافة - حسب ما يرددون - فإن المرء ليتساءل: هل نسي هؤلاء أن الإسلام منهج حياة صالح لكل زمان ومكان؟! أم أنه غاب عنهم أن الاعتدال والوسطية سمة هذا الدين الحنيف البعيد عن الجمود والقيود والمحدودية؟! فإذا ما قدر لهم ووعوا هذه الحقائق يكون مطلوبهم الخروج عن تعاليم الإسلام تحت مظلة الانفتاح على الثقافات الهدامة

(١) كرادوفو: الغزالي: ص ١٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣١.

وهذا ما لا يرضاه مسلم . تماماً كما لم يرض به الغزالي الذي انبرى
لمأساة المسلمين في عصره والعصور التي تلت .

ولقد عكس الإمام الغزالي في مواقفه الوضع الذي كان سائداً في
«كتاب ذم الغرور» الكتاب العاشر من ربيع المهلكات، يتحدث عن أجناس
وأصناف المغترين بأسلوب واقعي مشوق جذاب يتسم بالصدق والصراحة
على الإقناع . علاوة على أنه يعكس مدى اطلاع الإمام الغزالي ومعرفة
الناس حيث يقول «والمغترون هم الذين اراد الله أن يضلهم فجعل صدق
حرجاً كأنما يصعد في السماء . والمغرور هو الذي لم تفتح بصيرته ليكشف
نفسه كفيلاً وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلاً»^(١) . ويروي
حديثه فيقول «ونحن نشرح أجناس الغرور وأصناف المغترين من القضاة
والصالحين الذين اغتروا بمبادئ الأمور . الجميلة ظواهرها القبيحة سر
ومن ثم يخلص لتحديد المغترين في أربعة أصناف»^(٢) .

الصنف الاول: من العلماء .

الصنف الثاني: من العباد .

الصنف الثالث: من المتصوفة .

الصنف الرابع: من أرباب الأحوال .

ويمكن الجزم بأن الغزالي يمثل عصره أصدق تمثيل وهو يتناول
الاتقياء المزيفين من المتصوفة الذين يخدعون الناس بإسم التقى وهم في
أنصار غي وضلال^(٤) . فتراه يتكلم في هذه الشؤون بحماسة عظيمة ليس
لمطالعائه في المؤلفات القديمة ، وإنما هي أثر لغضبته من قوم عاش بيننا
من مكرهم وريائهم أنواع الشقاء^(٥) .

(١) الغزالي : الاحياء ، ج ٣ ، ص ٣٩٩ .

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه .

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه .

(٤) زكي مبارك : الاخلاق عند الغزالي ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه .

ويبدو أن كرادوفو كان محققاً عندما قال «وفي الشرق لم يسبق الغزالي فلسفة الاخلاق»^(١). مما يؤكد عظمة الدور الذي قام به الغزالي لعلاج الاجتماعية التي عصفت بمجتمع عصره. فكان عالم ومصلحاً اجتماعياً لاعتماده على تحليل النفس كوسيلة لتشخيص الظواهر المرضية وإيجاد الناجعة. وبهذا يكون الإمام السباق للإسهام في وضع أسس «علم الاجتماعي» بلغة أهل هذا العصر.

– موقف الغزالي من علوم عصره:

إن استهلال الغزالي كتاب «الاحياء» بالحديث عن العلم والتعلم وإيراد الشواهد العقلية والعقلية لإظهار فضيلة كل منها ورفع مكانة أصـ يعكس مدى اهتمامه بالعلم وإيمانه به كوسيلة لبناء شخصية الإنسان المسـ المجتمع الإسلامي الذي يضمن لأفراده البيئة الحافزة على الإخلاص في وتحقيق سعادة الدنيا والآخرة والقرب من الله تعالى.

ففي الباب الأول من الجزء الأول من كتاب «الاحياء» يتحدث الغزالي فضل العلم ومكانة العلماء ومن جملة ما يورد قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ لِلَّهِ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾^(٢) ويعقب على ذلك قائلاً كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثالث بأهل العلم، وناهي شرفاً وفضلاً وجلاءً ونبلاً^(٣). ومما يأتي على ذكره أيضاً لتعزيز وجهة نظر الرسول صلى الله عليه وسلم «العلماء ورثة الانبياء»^(٤). «ومعلوم» كـ الغزالي «إنه لا رتبة، فوق النبوة ولا شرف فوق الوراثة لتلك الرتبة»^(٥). كل الفخر لأهل العلم ودعائه كما يقول الإمام علي رضي الله عنه^(٦).

(١) كرادوفو: الغزالي، ص ١٤٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٣) الغزالي: الاحياء ج ١، ص ١٥.

(٤) رواه البخاري في كتاب العلم، حديث رقم ١٠.

(٥) الغزالي: المرجع السابق ص ١٦.

(٦) المرجع السابق، ص ١٨.

ما الفخر إلا لإهل العلم إنهم
 على الهدى لمن استهدى
 وقدر كل امرء ما كان يحسنه
 والجاهلون لأهل العلم
 ففز بعلم تعش حيا به أبدا
 الناس موتى وأهل العلم
 ومن ثم ينتقل الغزالي للحديث عن فضيلة كل من اتعلم والتعليم إلى
 ينهي هذا الباب وهو يقول:

«وأشرف موجود على الأرض جنس الإنس، وأشرف جنس من جو
 الإنسان قلبه، والمعلم مشغول بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب
 الله عز وجل، فيعلم العلم من وجه: عبادة الله تعالى ومن وجه خلافة الله تعالى
 وهو من أجل خلافة الله، فإن الله قد فتح على قلب العالم العلم الذي هو أحد
 صفاته، فهو كالحازن لأنفس خزائنه، ثم هو مأذون في الإنفاق منه على
 محتاج إليه، فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه
 تقريبهم إلى الله زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى...»^(١).

والعلوم تختلف مثلما تختلف الأفراد «والخلق مع هذه العلوم وهي
 إما كالغذاء لهم وإما كالدواء»^(٢) إلا أن الدواء الذي ينفع أحدهم قد يضر بالآخر
 ورب سائل يقول أليس الغزالي ممن يؤمنون بأن «العلم هو معرفة الشيء على
 هو به وهو من صفات الله تعالى، فكيف يكون الشيء علما ويكون مع كونه
 مذموما»^(٣)؟ ولن تطول حيرة السائل ولا انتظاره لسماع وجهة نظر الغزالي
 ذلك حيث يقول «والعلوم إنما هي بالإضافة فلقد يوجد لله تعالى:

خلق تضر الحقائق بهم كما تضر رياح الورد بالجم
 وقد قال صلى الله عليه وسلم «حدثوا الناس بما يعرفون»^(٤) وقال عيسى
 السلام لا تعلقوا الدر في أعناق الخنازير.

(١) المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) الغزالي: معراج السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ١، ص ١٥٤.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٤٢.

(٤) رواه البخاري في كتاب العلم، حديث رقم ٤٩.

فمن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم
وتعليقاً على هذه النقطة يوضح الغزالي رأيه فيقول «فاعلم أن العلم لا
لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة» سيتم الحديث عنها في الف
السابع الخاص بالمنهاج.

ولقد أشار الغزالي إلى الالتباس والتحريف، الذي لحق بعلوم الشريعة
عصره وكان له موقف من ذلك ومما يقوله: «إعلم أن منشأ التباس العلم
المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغ
الفاصلة إلى معان غير ما أراد السلف الصالح والقرن الأول، وهي خمسة الف
الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة فهذه أسماء محمودة والمتصو
بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة، فصا
القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليها»^(٢)
وانطلاقاً من هذا الفهم للعلوم المختلفة تمكن الغزالي من تحديد موقفه
علوم عصره كالفلسفة وعلم الكلام والتصوف والفقه والمناظرة وغيرها من الع
إيماناً منه بقول الرسول صلى الله عليه وسلم «تعوذوا بالله من علم لا ينفع
ومعلوم كما يقول الغزالي «إن العلم لا يكون جهلاً ولكنه يؤثر تأثير الجهل
الاضرار»^(٤)

(١) الغزالي: معراج السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ١، ص ١٥٥.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٤٤.

(٣) رواه ابن ماجة في كتاب الدعاء حديث رقم ٣.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٤٣.

الفصل الرابع

الغزالي ونظريته العقدية

- مقدمة
- الله
- الكون
- الإنسان
- المجتمع
- الحياة الآخرة

— مقدمة: —

إن الفكر التربوي عند الإمام الغزالي حصيلة «تصور إسلامي شامل متكامل للكون والإنسان والمجتمع والمعرفة البشرية والقيم الإنسانية لأن عملية التربية وأنشطتها المختلفة لا يمكن أن تتم، ولا يمكن حتى تصورها بمعزل عن هذه النواحي... والفلسفة التربوية كفلسفة تطبيقية لا بد أن نحدد موقفها من المباحث الفلسفية الرئيسية، وهي: مبحث الوجود ومبحث القيم، وأن تتضمن المبادئ التي تصور موقفها من هذه المباحث»^(١). وبناء عليه فإن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يشكلان الأساس الذي انطلق منه الغزالي في التعبير عن فكره التربوي وذلك بسبب «الارتباط الواضح بينهما وبين حياة الإنسان وفلسفة هذه الحياة»^(٢).

فالتربية عند الغزالي إذن تنبع من نظام كلي قدم التفسير الواضح لجوانب الحياة المختلفة وحدد نوع العلاقة التي يجب أن تربط بين الإنسان وخالقه ومخلوقاته. هذه العلاقة التي تقوم على الإيمان والعبودية من خلال اعتراف الخلق «لله بالملك والسلطان والأمر والنهي، ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة»^(٣).

والعقيدة الإسلامية التي اعتنقها الغزالي وأفنى حياته في الدفاع عنها تقوم

(١) عمر محمد التومي الشيباني: من أسس التربية الإسلامية، ص ٣٧.

(٢) عبد الجواد السيد بكر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، ص ١١١.

(٣) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٨٤.

على تكامل النظرة إلى كل من المادة والروح باعتبارهما مظهرين متكاملين للكون والحياة خاصة وأن «القرآن الكريم منهجه الذي يتوجه إلى النفس بأكملها فهو يقدم إليها غذاءه كاملاً يستمد منه العقل والقلب كلاهما نصيباً متساوياً»^(١).

فالشخصية الإسلامية المتميزة التي سعى الغزالي لإيجادها لم تكن مثالية غير واقعية كما يتحلو لبعضهم أن يقول، حيث أن التاريخ الإسلامي شهد ولادة مثل هذه الشخصية فترة جيل مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم وأجيال الصحابة العلماء من بعده. ويجب أن لا يخفى أن خاصية تميز هذه الشخصية «تعود في الأصل إلى تميز النظرية الإسلامية في التربية عما سواها من نظريات بدوافعها وأهدافها»^(٢).

وهذا هو التميز الذي سعى الغزالي لتحقيقه في بناء الشخصية الإسلامية من خلال فهمه للإسلام. فلا معنى في نظره «لأن يكون الإسلام دين الدولة في مجتمع من المجتمعات الإسلامية إلا إذا كانت جميع نظم هذا المجتمع - بما فيه ذلك نظامه التعليمي ونظامه التشريعي ونظامه الاقتصادي - منسجمة مع الإسلام وأحكامه... ولا يمكن لفكرة الحياد الديني أن يكون لها وجود شرعي في المجتمعات الإسلامية، لما فيها من إقصاء للإسلام عن واقع الحياة وعن معالجة مشاكلها ومن حصر له في حدود ضيقة كالعبادة بمفهومها الضيق ومادة الدين في المناهج الدراسية والأحوال الشخصية»^(٣).

وبناء عليه جاء موقف الغزالي واضحاً من الخلفاء والسلطين والعلماء والاتجاهات الفكرية المختلفة التي شهدتها. كل ذلك على ضوء إيمانه بالعقيدة الإسلامية فكراً وممارسة لأنه أدرك أن الإيمان هو الركن الأساسي الذي بدأ الإسلام به في تكوين شخصية المسلم، لأنه هو الجذر الأول في بناء شخصيته

(١) محمد عبدالله دراز: دستور الاخلاق في القرآن، ص ١٤.

(٢) الزرنوجي: تعليم المتعلم طريق التعلم، القسم الدراسي، ص ١١.

(٣) عمر محمد التومي الشيباني: من أسس التربية الإسلامية، ص ٣٠٠.

وهو العنصر الأساسي المحرك لعواطفه والموجه لإرادته . ومعلوم أن «الإيمان الصادق الراسخ في القلب لا بد وأن يوجه السلوك ويحرك العواطف فيظهر له آثاراً عملية»^(١) وذلك لأن «مثل الإيمان والإسلام كمثل الشجرة وجذرها»^(٢) .

لذا كان لا بد من تحديد المبادئ والمعتقدات والفروض والمسلمات التي آمن بها الغزالي والتي تشكل الأساس الذي أقام عليه رسالته التربوية وعالج في ضوئه مشكلاته التعليمية التعلمية على أساس أن التربية عملية تطبيقية تحتاج لأن يحدد صاحبها موقفه من المباحث الرئيسة المحيطة به كمبحث الله والكون والإنسان والمجتمع واليوم الآخر .

— الله:

يرى الإمام الغزالي أن الإيمان بالله تعالى أساس كل ما عداه ولذا نجده مذكوراً في القرآن في آيات تزيد على (٧٦٣) آية كما حصرها في كتابه «جواهر القرآن» إذ لا تكاد تخلو سورة من السور من إسم الله .

ومعرفة ذات الله تشكل الركن الأول من أركان الإيمان وتستلزم هذه المعرفة معرفة وجوده تعالى وهو ما تقودنا إليه الآيات الكريمة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٣) . ومن يتفكر في عجائب خلق الله، وبالترتيب والاحكام العجيبين لهذا الخلق يدرك أنه لا بد من وجود صانع «وتكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيرها ومصرفة بمقتضى تدبيره»^(٤) ولذلك خاطب عباده قائلاً: ﴿أَفِي اللَّهِ سَكُنٌ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥) . وقال: ﴿فَاقْمْ وَّجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾^(٦) .

(١) عبد الرحمن حسن حنكه الميداني: العقيدة الاسلامية، ص ٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٤) الغزالي: الاحياء ج ١، ص ١٢٦.

(٥) سورة ابراهيم، الآية: ١٠.

(٦) سورة الروم، الآية: ٣٠.

ويؤكد الغزالي على ضرورة «العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل»^(١) وإنه «تعالى مع كونه أزليا أبديا ليس لوجوده آخر فهو الأول والآخر والظاهر والباطن لأن ما ثبت قدمه استحالة عدمه»^(٢).

والله جل وعلا «ليس بجوهر يتحيز»^(٣) كما وإنه «ليس بجسم مؤلف من جواهر»^(٤) و«ليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل»^(٥). فهو «منزه الذات عن الاختصاص بالجهات»^(٦) وهو «مستو على العرش بالمعنى الذي أراده تعالى بالإستواء - بعيدا عن سمات الحدوث والفناء»^(٧). حيث يقول: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾^(٨).

وعلى الرغم من صفة التنزيه «عن الصورة والمقدار»^(٩) والتقديس «من الجهات والاقطار»^(١٠) فإن الله تعالى «مرئي بالأعين والأبصار في الدار الآخرة دار القرار»^(١١) لقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَّوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾^(١٢) في الوقت الذي تستحيل رؤيته في الدنيا تصديقا لقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(١٣).

والوحدانية - في نظر الغزالي وكافة المسلمين - أساس في معرفة ذات الله

(١) الغزالي الإحياء ج ١، ص ١٢٧.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٨) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٩) الغزالي: الإحياء، ج ١، ص ١٢٨.

(١٠) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(١١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(١٢) سورة القيامة، الايتان: ٢٢، ٢٣.

(١٣) سورة الانعام، الآية: ١٠٣.

تعالى الذي «انفرد بالخلق والإبداع واستبد بالإيجاد والاختراع لا مثل له يساهمه ويساويه ولا ضد له فينازعه ويناديه»^(١) لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٢).

وفي الركن الثاني من أركان الإيمان الخاصة بمعرفة ذات الله تعالى يؤكد الغزالي على صيغة القدرة عند الله. فهو الذي أحكم صنع العالم مما يعتبر عن صدق ما جاء به القرآن الكريم ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣) هذا إلى جانب صفة العلم بجميع الموجودات والإحاطة بكل المخلوقات بحيث ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٤). وهو ما يعززه قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٥). إضافة إلى أن في علمه وقدرته سبحانه تأكيد على كونه حياً «فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته»^(٦). وكل ما هو موجود يستند بالضرورة لإرادة الله تعالى القدير السميع البصير الذي «لا يعزب عن رؤية هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ولا يشذ عن سمعه صوت ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء»^(٧).

ويتحدث الإمام الغزالي عن صفة الكلام الخاصة بالله تعالى «وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف»^(٨) علاوة على أنه لا شبه لكلام الله تعالى كلام ولا لوجوده وجود. والكلام القائم بذاته قديم وهكذا بالنسبة لجميع صفاته فهو يرى أن ما يجب للذات من نعوت القدم يجب للصفات لذلك جاء علم الله تعالى قديم «ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بأحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلي»^(٩).

(١) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ١٢٩.

(٢) سورة الانبياء، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الملك، الآية: ١.

(٤) سورة يونس، الآية: ٦١.

(٥) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٦) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ١٢٩.

(٧) المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٨) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٩) الغزالي: المرجع السابق، ص ١٣١.

وحصيلة القول في صفات الله تعالى إنه «عالم بعلم، حي بحياة، قادر بقدرة، ومريد بإرادة، ومتكلم بكلام، وسميع بسمع، وبصير ببصر، وله هذه الاوصاف من هذه الصفات القديمة...»^(١) أضافة إلى أن هذه الصفات حسب الغزالي كلها قائمة بذات الله تعالى^(٢).

– الكون:

يرى الإمام الغزالي أن العلم بأفعال الله تعالى يعتبر الركن الثالث من الأركان التي يبنى عليها الإيمان^(٣). ومعلوم أن الكون من فعل الله وصنعه بحيث أنه يشمل كل خلق لله يقع عليه اسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف. وهذا يعني «أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته»^(٤). وليس بالإمكان إحصاء ذلك، ولا يمكن الإحاطة بجميع مخلوقات الله حيث أنها تقسم إلى فئتين الأولى: «ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكير فيها وكم من الموجودات التي لا نعلمها»^(٥) ويوضح هذا قوله تعالى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٦) والثانية: «ما يعرف أصلها وجمالها ولا يعرف تفصيلها»^(٧) حيث يكون بمقدور الإنسان أن يتفكر في تفصيلها. وتنقسم هذه الفئة إلى ما يمكن إدراكه بحس البصر وما لا يمكن إدراكه بالبصر^(٨) وما يجب أن لا يغفل عن بال أحد أن مخلوقات الله لا تتحرك إلا بأمره «فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع السابق، ج ٤، ص ٤٦١.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) سورة الواقعة، الآية: ٦١.

(٧) الغزالي: الاحياء، ج ٤، ص ٤٦١.

(٨) المرجع نفسه والمكان نفسه.

حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية، ودال على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه^(١) وبحثنا تعالى للتفكر بهذه الآيات فيقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) ﴿٢﴾.

والوجود حسب القرآن الكريم يقسم إلى نوعين: ما يمكن إدراكه بالعقل عن طريق الحواس وهو «عالم الشهادة» وما لا يمكن إدراكه ببصر أو حواس وهو «عالم الغيب» كالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك^(٣). «وطريق معرفته الكشف الروحي والوحي أكمل أشكاله وأروعها ومن الخطأ أن تطبق مقاييس عالم الشهادة على عالم الغيب، لذلك كان الطريق إلى معرفة مخلوقات عالم الغيب كالملائكة والجن والشياطين هو الوحي الإلهي الملقى إلى الأنبياء»^(٤) فإدراك الغيبيات أو معرفة معاني أسماء الله الحسنى لا تتأتى إلا «على سبيل المكاشفة والمشاهدة حتى تتضح لهم حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ، وينكشف لهم اتصاف الله عز وجل بها انكشافاً يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة التي يدركها بمشاهدة باطنه لا بإحساس ظاهر»^(٥).

ومعرفة الكون ومخلوقات الله دليل لمعرفة الباري عز وجل ويبدأ بمعرفة النفس حسب ما يشير إليه الغزالي قائلاً: «فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال: ﴿وَقَدْ أَنفِسَكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١) ﴿٦﴾ وبعد معرفة النفس لا بد من

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ٤، ص ٤٦١.

(٤) احمد محمد جمال: محاضرات في الثقافة الاسلامية، ص ٧١.

(٥) الغزالي: المقصد الاسنى، ص ٤٣.

(٦) سورة الذاريات، الآية: ٢١.

التوجه للأرض لتكون الخطوة الثانية باتجاه معرفة الخالق. أي في حال تعرفك على «طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك ثم في أنهارها وجبالها ومعادنها»^(١) ومن ثم يوصي الإمام الغزالي بالارتفاع إلى ملكوت السموات. ولقد كثر في القرآن الكريم ذكر الأرض للتفكر في عجائبها «فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرقد للأموات»^(٢) حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾^(٣) وعلى الرغم من أن الأرض مئة «إذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات»^(٤).

ولا يغفل الإمام الغزالي عن السموات وعظم أمرها عند الله تعالى «فما من سورة إلا وتشمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم في القرآن بها»^(٥) ومنها قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿٦﴾﴾^(٦) ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿٧﴾﴾^(٧) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴿٨﴾﴾^(٨).

والنظر إلى الملكوت حسب الغزالي لا يعني رؤية زرقاء السماء وضوء الكواكب وغير ذلك من عجائب خلق الله. فالبهائم تشارك الإنسان في هذا النظر. ويشير الغزالي إلى أن «كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت ولا يحيط أحد بعلمه إلا بما شاء»^(٩) ومصدق ذلك قوله تعالى ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ

(١) الغزالي: الاحياء ج ٤، ص ٤٦٦.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) سورة المرسلات، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ٤، ص ٤٦٦.

(٥) المرجع السابق، ص ٤٧١.

(٦) سورة البروج، الآية: ١.

(٧) سورة الطارق، الآية: ١.

(٨) سورة الذاريات، الآية: ٧.

(٩) الغزالي: الاحياء، ج ٤، ص ٤٧١.

أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ آزَغَیْ مِنْ رَّسُولٍ ﴿١﴾.

ومعرفة عقل الإنسان لبیت الله كمعرفة النملة لبیت الإنسان وهو ما عبر عنه الغزالي في قوله «فأنت أيضا غافل عن بیت الله تعالى وعن ملائکته الذين هم سكان السموات إلا ما تعرف النملة منك ومن سكان بیتك»^(٢). وإن كانت النملة عاجزة عن معرفة ذلك إلا أن الإنسان يملك القدرة على هذه المعرفة التي تبقى حقيرة بالنسبة لما عرفه الأنبياء كلهم قليلة بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبرائیل وغيرهما ثم أن جميع علوم الملائكة والجن والإنسان إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى دهشاً وحيرة قصورا وعجزا أقرب^(٣). فسبحان الذي خاطب خلقه قائلا: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤).

- الإنسان:

قال تعالى في خلق الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^(٥) وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٦) وفي القول الثاني لله تعالى إشارة للفصل بين الإنسان والبهيمة التي اقتصر خلقها على الجسد والروح بينما تميز الإنسان بنفخة الرحمن التي عبر عنها الغزالي بالنفس فقال: «والفصل بين الآدمي والبهيمة هي النفس التي أضافها الله تعالى إليه»^(٧) لقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٨) فهي بالتالي علة التكليف «ولو أن البهيمة أعطيت النفس التي أعطيها الإنسان لكانت عاقلة مكلفة فخرج من الجملة أن للإنسان روحاً ونفساً وجسماً

(١) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ٤، ص ٤٧٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٧٤.

(٤) سورة الاسراء، الآية: ٨٥.

(٥) سورة المؤمنین، الآية: ١٢.

(٦) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

(٧) الغزالي: معراج السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ١، ص ٨٩.

(٨) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

وللبهيمة جسماً وروحاً لا غير»^(١) ففاق الإنسان بذلك خلقاً كثيراً بسبب استعداده لمعرفة الله سبحانه^(٢). وبذلك استحق التكريم والتشريف الذي قال فيه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾^(٣).

ويقرّر الغزالي في معرض حديثه عن الإنسان أنه «حيوان ناطق مائت منتصب القامة ضحاك»^(٤) ويدخل الجسم تبعاً لرأيه «تحت الكون والفساد المركب المؤلف الترابي الذي لا يتم أمره إلا بغيره»^(٥). ويتوصل الغزالي لتعريف الجسم فيقول عنه «المؤتلف من المواد والعناصر الحاملة لروحه ونفسه وهو الشكل المنتصب ذو الوجه واليدين والرجلين الضاحك»^(٦).

واستناداً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾^(٧) أي جهلها حيث لم يعرف ربها. يقرر الغزالي بأن من عرف نفسه فقد عرف ربه. فمعرفة النفس في نظره خطوة على طريق معرفة الله تعالى إذ «ليس من شيء أقرب إليك من نفسك فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك؟»^(٨) ومعرفة النفس هذه لا تعني مطلقاً الإلمام بمعرفة «الجسم الظاهر» وإنما هي المعرفة التي توجبك «أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدري أي شيء أنت ومن أين جئت . . . ولأي شيء خلقت، وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاؤك»^(٩). فلتعرف نفسك عليك أن تعلم «أنك من شيئين: الأول هذا القلب والثاني يسمى النفس

(١) الغزالي: معراج السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ١، ص ٨٩.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٣.

(٣) سورة الاسراء، الآية: ٧٠.

(٤) الغزالي: معراج السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ١، ص ٨٨.

(٥) الغزالي: الرسالة اللدنية، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ٣، ص ٩١.

(٦) الغزالي: معراج السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ١، ص ٨٨.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

(٨) الغزالي: كيمياء السعادة، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ٥، ص ١٢٤.

(٩) المرجع نفسه والمكان نفسه.

والروح»^(١). فحقيقة الإنسان باطنه وهي الجزء العلوي منه الذي يرمز إليه الغزالي بألفاظ متعددة لا بد أن نعرض لمفهومها عنده لأنه يستعملها أحياناً بمعانٍ تكاد تكون مترادفة وأحياناً أخرى تكون متميزة، مما يتسبب في إرباك وحيرة لجهة إدراك مراميها أو تدبر معانيها خاصة وأن الغزالي نفسه يشير إلى صعوبة ذلك حتى على العلماء حيث يقول «ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي - النفس والروح والقلب والعقل - واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها»^(٢).

ولا بد من الإشارة إلى استعمال هذه الألفاظ في القرآن الكريم قبل الحديث عن معانيها عند الغزالي. فلقد ورد استعمالها في مواقع عديدة بحيث استعملت لفظة الروح في ٢١ موقعاً، والنفس في ٣٦٥ موقعاً والقلب في ١٣٢ موقعاً والفؤاد الذي جاءت استعمالاته كاستعمالات القلب - إشارة إلى القلب الذي في الصدر - في ١٦ موقعاً. ومن أبرز المواقع التي برزت فيها هذه الألفاظ:

١ - الروح:

- أ - ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^(٣).
- ب - ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^(٤).
- ج - ﴿وَسْتَلُونَاكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٥).
- د - ﴿فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾^(٦) ﴿فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾^(٧).

٢ - النفس:

- أ - ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾^(٨).
- ب - ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(٩).

(٦) سورة مريم، الآية: ١٧.

(٧) سورة الانبياء، الآية: ٩١.

(٨) سورة يوسف، الآية: ٥١.

(٩) سورة القيامة، الآية: ٢.

(١) المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٥) سورة الاسراء، الآية: ٨٥.

ج - ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿(١)﴾ .

٣ - القلب :

- أ - ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٩٣) ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ (٢) .
ب - ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣) .
ج - ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (٤) .
ولقد جاءت استعمالات الفؤاد في مواقع مشابهة لاستعمالات القلب :
- ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٥) .
- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (٦) .

٤ - العقل :

واستعمال العقل في القرآن الكريم لم يأت بصيغة الإسم المفرد وإنما ورد بصيغة الفعل الذي يدل على الفهم :

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٠) ﴿(٧)﴾ .

ومن خلال هذه الاستعمالات للالفاظ الأربعة اجتهد الإمام الغزالي في توضيح دلالاتها وتبيان حدودها وتحديد نوع العلاقة التي تربطها بالخالق والمخلوق، وفيما يلي محاولة لبلورة رأي الإمام الغزالي في هذه الالفاظ :

١ - النفس :

يطلق الإمام الغزالي لفظ النفس على معنيين :

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٩٤.

(٣) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

(٥) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٦) سورة الملك، الآية: ٢٣.

(٧) سورة الملك، الآية: ١٠.

أحدهما المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان وهو استعمال المتصوفة إذ «يسمون الروح الحيواني نفساً»^(١) «لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون: لا بد من مجاهدة النفس وكسرها»^(٢) استناداً لقول الرسول عليه السلام «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبك»^(٣).

والثاني: هي اللطيفة الربانية التي هي الإنسان بالحقيقة وهي نفس الإنسان وذاته وتوصف بأوصاف حسب اختلاف أحوالها. فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة. وإذا لم يتم سكونها إلا أنها أصبحت مدافعة ومعتضة عن النفس الشهوانية سميت النفس اللوامة. أما إذا تخلت عن الاعتراض وانسأقت وراء الشهوات ووساوس الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء^(٤).

وقال تعالى في وصف أحوال النفس المختلفة:

أ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾^(٥).

ب - ﴿وَلَا أَقِمُّ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴿٢٩﴾﴾^(٦).

ج - ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴿٣٠﴾﴾^(٧).

٢ - القلب:

ويطلق الغزالي لفظ القلب على معنيين:

أحدهما: «اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من

(١) الغزالي: الرسالة اللدنية، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ٣، ص ٩٢.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٥.

(٣) اخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس، المغني بذييل الاحياء ج ٣، ص ٥.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٥.

(٥) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٦) سورة القيامة، الآية: ٢.

(٧) سورة يوسف، الآية ٥٣.

الصدر»^(١) حيث يحتوي على «دم أسود هو منبع الروح ومعدنه»^(٢) ويشترك الإنسان الحي والميت والبهائم في هذا القلب الذي ينتمي لعالم الملك والشهادة^(٣).

والثاني: «هو لطيفة ربانية روحانية لها بذا القلب الجسماني تعلق وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب»^(٤) وتعلقه بالقلب الجسماني «يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان»^(٥).

٣ - الروح:

ويطلق الغزالي هذا اللفظ على معنيين:

أحدهما: «جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينشر بواسطة العروق الضواريب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت»^(٦) ويشير الإمام الغزالي كيف أن «هذا الروح لا يهتدي إلى العلم ولا يعرف طريق المصنوع ولا حق الصانع، وإنما هو خادم أسير يموت بموت البدن... وليس خطاب الباري سبحانه، ولا تكليف الشارع لهذا الروح»^(٧). إضافة إلى أن هذا الروح موجود عند جميع الحيوانات.

والثاني «هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان... وهو الذي أراده الله

(١) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٤.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٧) الغزالي: الرسالة اللدنية، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ٣، ص ٩٢، ٩٣.

بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(١) والإنسان إنما يكلف ويخاطب لأجل هذا المعنى^(٢).

٤ - العقل:

يشارك العقل في معان مختلفة يمكن حصرها في معنيين:
أحدهما: «أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب»^(٣).
والثاني: «أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب»^(٤) أي تلك اللطيفة الربانية^(٥).

ويتضح لنا مما سبق أن الغزالي يستعمل هذه الالفاظ على وجهين يتعلق أحدهما بعالم الخلق والآخر بعالم الأمر وطبيعي أن يكون الأول أقل شرفاً من الثاني وهو ما يصرح به الغزالي عندما يقول بأن «معاني هذه الأسماء موجودة: وهي القلب الجسماني والروح الجسماني والنفس الشهوانية والعلوم، فهذه أربعة معان يطلق عليها الالفاظ الأربعة، ومعنى خامس: وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان والالفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها فالمعاني خمسة والالفاظ أربعة وكل لفظ أطلق لمعنيين»^(٦).

ويشير الغزالي إلى استعمالات هذه الالفاظ بالنسبة له قائلاً «فالقلب والروح عندنا والمطمئنة كلها أسامي النفس الناطقة والنفس الناطقة هي الجوهر الحي الفعال المدرك وحيثما نقول الروح المطلق أو القلب فإنما نعني به هذا الجوهر»^(٧).

(١) سورة الاسراء، الآية: ٨٥.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٥.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع السابق، ص ٦.

(٧) الغزالي: الرسالة اللدنية، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ٣، ص ٩٢.

وهو ما يؤكد في «معارج القدس» عندما يشير إلى أن المراد بالفاظ «النفس والروح والقلب والعقل» هو «النفس الإنسانية التي هي محل المعقولات»^(١).

وبالنسبة لطبيعة الإنسان: فمن المعلوم أنه مجبول بطبيعته على التوحيد ولقد «بعث الله الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا (لا إله إلا الله) وما أمروا أن يقولوا لنا إله وللعالَم إله فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم»^(٢) ولقد خلق الله الناس مفلطحين على الإعتراف له بالربوبية وحده وأودع هذا فطرتهم. فهي تنشأ عليه. وقال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(٣). وفي هذا إشارة لتشريف وتكريم الله للإنسان مما جعله أهلاً لحمل الأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٤).

«فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره وفي الآخرة عدته وذخره»^(٥).

فالإنسان إذن وحسب ما جاء في القرآن الكريم «مجبول على التوحيد فطبيعته الأصلية خيرة ثم إنه قد ينحدر إلى الشر وذلك نظراً لقابليته للاختيار وليس معنى هذا إنه خير مطلق أو شر مطلق بل إن لديه من الإمكانيات ما يفعل به الخير والشر»^(٦). ولقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٧). ومعنى ذلك «إنا خلقنا القلب وأعطيناه الملك والعسكر وجعلنا النفس مركبة حتى

(١) الغزالي: معارج القدس، ص ١٦.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٢٦.

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٤) سورة الاحزاب، الآية: ٦٢.

(٥) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٣.

(٦) علي خليل ابو العنين: فلسفة التربية الاسلامية في القرآن الكريم، ص ١٠٤.

(٧) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

يسافر عليه من عالم التراب إلى أعلى عليين»^(١).

ولئن انفرد تعالى في خلق الخلق واختراع حركات العباد، فإن هذا لا يتناقض مع كون هذه الحركات «مقدورة للعباد على سبيل الإكتساب»^(٢). ويرى الغزالي «أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه. فلا يجري في الملك والملوك طرفة عين ولا لفظة خاطر ولا لفظة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وإرادته ومشئته»^(٣) سبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(٤).

فالغزالي في كل ما يورده عن الإنسان يؤكد على ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية لجهة كون الإنسان وحدة متكاملة وليس أجزاء منفصلة، فهو «ليس بالكيان المادي من فيزياء وكيمياء وسلوك آلي ميكانيكي كما ينظر إليه الفلاسفة الماديون، كما أنه ليس بالروح التي تتجرد عن المادة وتزدي بها كما يفعل بعض المتقشفين، فالإنسان مكون من مادة وروح معا»^(٥). «وهذه الطبيعة المزدوجة ليست أمرا طارئاً على الإنسان ولا ثانوياً فيه بل هي فطرته التي فطره الله عليها وأهله للخلافة في الأرض منذ خلق آدم خلقاً جمع بين قبضة الطين ونفخة الروح»^(٦).

فليس غريباً إذاً أن يحتل الإنسان منزلة عظيمة في الإسلام وذلك «لأن الله سبحانه خالقه وخالق الكون ومدير الأمر كله أراد له ذلك يوم خلقه»^(٧) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٨).

(١) الغزالي: كيمياء السعادة، مجموعة رسائل الامام الغزالي ج ٥، ص ١٣٠.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ١٣٢.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) سورة الانبياء، الآية: ٢٣.

(٥) محمد فاضل الجمالي: تربية الانسان الجديد، ص ١٠٠.

(٦) يوسف قرضاوي: الايمان والحياة، ص ٧٦.

(٧) عبد الغني عيود: الاسلام والكون، ص ٨٩.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

- المجتمع:

إنسجاماً مع ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية حيث الاعتقاد بوحداية الله هو أساس العقيدة، لا بد أن يقوم المجتمع الإسلامي على رهط الحق «الذين هداهم الله إلى المنهج الرشيد والملك السديد وأنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد فسلك بهم إلى إتباع رسولهم المصطفى واقتفاء آثار أصحابهم الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد»^(١).

فالركيزة الأساسية للمجتمع الإسلامي - كما يرى الغزالي - هي الإيمان بالله ايماناً لا يتزعزع ولا يهتز. وسلوك المسلم تعبير عن هذا الإيمان، فكسله وراحته وعيشه على كدح الآخرين مناقض لإيمانه بالله تعالى الذي قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(٢). فالعمل ضرورة من ضرورات المجتمع الإسلامي «فمن استعمل قواه على وجه التوصل بها إلى العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة»^(٣). وإتقان العمل يدفع صاحبه درجات، لأن في ذلك إستجابة لقول الله تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾^(٤). فالتفاضل إذن مرده للعمل تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾^(٥).

والإيمان بالله - الذي يعتبره الغزالي الأساس لبناء المجتمع الإسلامي - دعوة للمؤمن ليتحسس مشاعر أخيه وليعمل على شد أزره في النوائب لأن الأنانية والإبتعاد عن مشاكل المسلمين دليل نقص في الإيمان لأن للمسلم حقوق كما يشير الغزالي لذلك ومنها «أن تسلم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشتمه إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه إذا أقسم عليك،

(١) الغزالي: الإحياء ج ١، ص ١٠٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٣٠.

(٣) الغزالي: ميزان العمل، ص ٢٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

(٥) سورة الانعام، الآية: ١٣٢.

وتنصح له إذا انتصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك»^(١). وقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»^(٢). وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤِثِّرُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣).

والفرد في المجتمع الإسلامي مدعو لتحمل المسؤولية وتبعاتها وفي طليعتها التزام أوامر ربه ونواهيه فيما يوكل إليه من عمل إذ «ليس التشمير في الدنيا مقصوداً على المعاد دون المعاش، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه»^(٤). فالمسلم في إطار مجتمعه يتحمل قسطاً من المسؤولية بمقدار ما يوكل إليه من واجبات، ويتجلى هذا في قول الرسول الكريم «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^(٥).

ومجالات الحياة في المجتمع الإسلامي متاحة لجميع أبنائه على السواء خاصة وأن الله تعالى قد ساوى بين الناس في الحقوق والواجبات وسخر ما في الكون لمنفعة الجميع فقال وهو أصدق القائلين ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْوَلَدُ الْإِنْتَهَرَ﴾^(٦) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾^(٦) ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(٦). ولا يعني هذا مطلقاً أن توزع هذه النعم جزافاً بحيث يتساوى في ذلك العامل والخامل لأن القاعدة في الإسلام أن ينال كل واحد ثمرة كده وجده بحيث يكون التمايز قائماً على البذل والسعي لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ

(١) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٢١٠.

(٢) أخرجه الحاكم من حديث حذيفة، والطبراني في الاوسط من حديث ابي ذر وكلاهما ضعيف.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ٢، ص ٦٩.

(٥) رواه البخاري في كتاب الجمعة حديث رقم ١١، وكتاب الجنائز حديث رقم ٣٢.

(٦) سورة ابراهيم، الآيات: ٣٢، ٣٣، ٣٤.

لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَ ﴿٤١﴾ (١)

ومبدأ تكافؤ الفرص من أهم المبادئ التي بني عليها المجتمع الإسلامي وهو ما طبقه الرسول صلى الله عليه وسلم على نفسه وعلى أسرته عندما وقف وناداهم قائلاً «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً يا بني عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت رسول الله سأليني ما شئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئاً» (٢).

ويقوم المجتمع الإسلامي على الوحدة والمحبة والإيثار والتعاون خاصة وأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ﴾ (٣) والرسول الكريم يؤكد على ذلك فيقول «المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً» (٤). وفي هذا الخطاب دعوة للوحدة ونبذ لفرقة الصف وتمزيق الشمل علاوة على أن ظلم المسلم لأخيه المسلم وخذلانه وتحقيره له مرفوض. وهو ما عبر عنه الرسول الكريم عندما قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا مشيراً إلى صدره بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» (٥).

والمجتمع الإسلامي يكفل للمسلمين وغير المسلمين أن يعيشوا آمنين فلا تفتحهم بيوتهم ولا يتعدى عليهم لما للبيوت من حرمة لقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَلَسْلِمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب الوصايا حديث رقم ١١.

(٣) سورة الصف، الآية: ٤.

(٤) رواه البخاري في كتاب الصلاة، حديث رقم ٨٨.

(٥) رواه البخاري في كتاب المظالم حديث رقم ٣.

لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَحْجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ بُذِنتَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْجِعُوا فَأَنْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴿١﴾

ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن إنسان المجتمع الإسلامي يستحق كرامته إنسانيته وليس للونه أو طبقته أو ثروته فحقوق الإنسان في هذا المجتمع مستمدة من هذه الإنسانيّة التي ترجع لأبوية آدم وحواء كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا﴾ (٢).

والشورى الإسلامية تقوم على المساواة والمسئولية الفردية، وقيام الحكم على العدالة استناداً لدستور معلوم من الحدود والتبعات. وهذه هي العناصر التي نادى بها الإسلام لأول مرة في تاريخ الإنسان. وتعتبر المساواة والمسئولية الفردية والشورى من أهم الأسس التي قام عليها المجتمع الإسلامي إمتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٣).

﴿كُلُّ أَمْرٍ بِيَّ مَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٤).

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (٥).

وذلك لأن الإيمان بالله تعالى إيمان بحق العدل والمساواة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٦).

وللأسرة في المجتمع الإسلامي مكانة رفيعة لكونها نواة المجتمع المسلم. ومعلوم أن الزواج يشكل نقطة البدء لتكوين الأسرة ﴿وَمِنْ أَعْيُنِنَا أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

(١) سورة النور، الايتان: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٤) سورة الطور، الآية: ٢١.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

(٦) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴿١﴾.

وحدد القرآن الكريم الأسس التي تقوم عليها العلاقات الأسرية من أجل توفير السلامة لهذا المجتمع الصغير الذي يجب عليه توفير المناخ الصالح لتربية الطفل ضمن جو علائقي يقوم على أساس من التشاور والتراضي والمعروف في المعاشرة والتعاون. ولا تقتصر على العلاقات بين الزوجين فقط بل تمتد إلى الأقارب ولذا نص القرآن على الإحسان للوالدين ولذي القربى ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (٢).

وبما أن الأسرة كيان يستمر حتى بعد وفاة أفراده فلقد شرع الإسلام نظام الميراث حفاظاً على المصلحة الاجتماعية فكان من حق الأبناء أن يرثوا ما تركه أبائهم ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (٣).

ولقد شكلت هذه الآداب والقيم منطلق دعوة الغزالي لبناء المجتمع الإسلامي فكان ميزانه «ميزان الآداب السماوية وميزان المثالية الخلقية» (٤) من خلال نظريته إلى الحياة نظرة مميزة تميز الإسلام عن غيره من الأديان ولذلك «لم يتخيّل الدنيا ملحمة بين كباش تتناطح وإنما تصورها حناناً ورحمة وطاعة وعبادة فالمجد عنده مجد النفوس المطمئنة المتحابية والنصر لديه هو الفوز على النزوات والشهوات والتطهر من الرذائل الهابطة إلى الظلمات» (٥).

كل ذلك لأنه آمن بالإسلام قلباً وقالباً ونظر إلى «الحياة الدنيا باعتبارها وسيلة لا غاية وعبادة الله لا للدرهم والدينار، والتغالب والتفاخر والتنابد بالألقاب». فكانت دعوته الأخلاقية تهدف لإقامة مجتمع إسلامي فاضل آمن به «ومن ثم ابتدع له أخلاقاً كاملة على أسس دينية وطاعات روحية وقلبية» (٦).

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

(٤) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ٨٧.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

ـ الحياة الآخرة:

إن «الإيمان باليوم الآخر الركن الثاني من أركان العقائد، ولا يكاد يذكر الإيمان بالله في القرآن حتى يقرن به الإيمان باليوم الآخر. والمؤمن يذكره دائماً فيكثر من الخير ابتغاء ثوابه ويتعدى عن الشر خوف عذابه»^(١).

والدنيا كما يقول الغزالي «عدوة لله، وعدوة لأولياء الله، وعدوة لأعداء الله، أما عداوتها لله فإنها قطعت الطريق على عباد الله... وأما عداوتها لأولياء الله (عز وجل): فإنها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهورتها ونضارتها، حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها. وأما عداوتها لأعداء الله فإنها إستدرجتهم بمكرها وكيدها فاقنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها. فاجتتوا منها حسرة تقطع دونها الأكباد ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد. فهم على فراقها يتحسرون ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون»^(٢). ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾^(٣).

هذا يعني أن حياة الإنسان لا تنتهي عند وفاته لأن الموت في نظر الإسلام انتقال إلى حياة أخرى فحال الروح بعد الموت يدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح»^(٤). ودليل ذلك قوله تعالى في الشهداء ﴿وَلَا تَحْزَنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٥). وكذلك مخاطبة الرسول الكريم لقتلى فريش يوم بدر «يا فلان، يا فلان،... قد وجدت ما وعدني ربي حقاً. فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً» فقبل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات؟ فقال صلى الله عليه وسلم «والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام إلا أنهم لا يقدرون على الجواب»^(٦). كما وأنه لا يخلو الميت عن سعادة

(١) علي الطنطاوي: تعريف عام بدين الاسلام، ص ١٠٤.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٢١٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٦.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ٤، ص ٥٢٧.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٦) رواه البخاري في كتاب الجنائز حديث رقم ٧٨.

أو شقاوة يقول صلى الله عليه وسلم «القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة»^(١). ويعلق الغزالي على ذلك مشيراً إلى أن هذا نص صريح على أن الموت هو تغير حال فقط^(٢).

وفي مقارنة بين الدنيا والآخرة يشير الغزالي إلى أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كسعة الدنيا إلى ظلمة الرحم^(٣) معتمداً في ذلك على قول الرسول صلى الله عليه وسلم «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه»^(٤). وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه»^(٥).

فبداية حياة الآخرة إذا تكون لحظة خروج الروح من الجسد وهذا ما يؤمن به المسلم إيماناً قاطعاً لأنه وعد الرحمن الذي قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(٦).

ويتحدث الغزالي عن مراحل هذه الحياة مستنداً إلى ما جاء في الكتاب والسنة حيث يبدأ ببيان كلام القبر للميت ثم بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير، ومن ثم صورتهم وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر. وفي الباب الثاني من كتاب ذكر الموت وما بعده يتحدث عن أحوال الموتى بالمكاشفة بالمنام. ويتناول في الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار وفيه يبين الإمام الغزالي «نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله،

(١) رواه الترمذي في باب القيامة حديث رقم ٢٦.

(٢) الغزالي: الاحياء ج ٤، ص ٥٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٢٨.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفي عن سليم بن عامر الجنائزي مرسل هكذا (المغني، ذيل الاحياء ج ٤، ص ٥٢٨).

(٥) الغزالي: الاحياء ج ٤، ص ٥٢٨.

(٦) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها وصفة المساءلة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الخصماء ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الحوض وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر إلى وجه الله تعالى»^(١).

«وبهذا تكتمل العدالة الإلهية في الأرض وفي السماء حيث ينال كل واحد جزء عمله كاملاً. ولذا كان اليوم الآخر في القرآن واضح المعالم»^(٢) لأن الساعة من تدبير الله عز وجل ولا يعرف موعدها أحد سواه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾^(٣).

وبذلك تكتمل ملامح النظرة العقديّة عند الإمام الغزالي والتي حدد على ضوئها منهجه وأهدافه التربوية حيث سعى لبناء الشخصية الإسلامية المتميزة اقتداء بالرسول الكريم الذي تمكن من تحقيق ذلك واستطاع أن يخرج «عباد الله جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ويخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم»^(٤).

(١) الغزالي: الاحياء، ج ٤، ص ٥٤٣.

(٢) علي خليل ابو العنين: فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، ص ١٣٣.

(٣) سورة الاعراف، الآية: ١٨٧.

(٤) ابو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٦٨.

الفصل الخامس

التربية في نظر الإمام الغزالي

— مقدمة —

— التربية رسالة —

— مفهومها —

— أهميتها —

— أهدافها —

— مقدمة: —

التربية ضرورة فردية واجتماعية على حد سواء، حيث إنه ليس بإمكان أي من الفرد أو المجتمع الإستغناء عنها. وكلما سلك الإنسان درباً من دروب الحياة كلما أحس بأهمية الحاجة إليها.

ولقد كانت التربية قبل مجيء الإسلام امتيازاً للطبقات ذات الجاه أو المال أو السلطة. ومع ظهور فجر الإسلام أصبحت حقاً لجميع الناس أغنيائهم وفقرائهم، أسيادهم وعبيدهم، فتيانهم وفتياتهم، شيوخهم وأطفالهم. نسائهم ورجالهم. وبذلك نعم أفراد المجتمع الإسلامي، بالتربية لكونها رسالة قبل أن تكون مهنة أو وظيفة.

ولم يكن غريباً أن ترافق التربية الدعوة الإسلامية منذ لحظاتها الأولى وأن يكون الرسول - وهو خريج المدرسة الآلهية التي سبق وأعدت غيره من الأنبياء - أول معلم في الإسلام «وكان بدء نزول الوحي عليه بمثابة (إجازة) له بعد أربعين عاماً من تربيته في هذه المدرسة الآلهية. وما أن أمر - بعد نزول الوحي - بتبليغ الرسالة وتحمل تبعاتها حتى اتخذ للإسلام أول مدرسة وهي (دار الإرقم بن أبي الأرقم) التي كان يجتمع فيها مع القلة القليلة التي آمنت به أول الرسالة، يتلو عليهم آيات القرآن ويعددهم إيديولوجياً لتحمل ما ينتظرهم من أعباء»^(١).

والإسلام لم يتردد في إعلان موقفه من العلم والعلماء والتعليم والتعلم فقد

(١) عبد الغني عبود: الايديولوجيا والتربية، ص ٤٢١.

أشار الإمام الغزالي إلى ذلك في الباب الأول من كتاب العلم^(١). مما يؤكد على أن الدين الإسلامي دين نور وعلم لا دين ظلمة وجهل. يقول تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٢). فللعلماء منزلة عظيمة في الإسلام تلي منزلة الأنبياء. يقول الرسول عليه السلام «العلماء ورثة الأنبياء»^(٣) ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق الورثة لتلك الرتبة^(٤).

«ولقد أبرز القرآن الكريم قيمة العلم ومكانته في كثير من الآيات وذكرت مشتقات العلم في نحو ثمانماية وخمسين موضعاً تكريماً له وتعظيماً. ومن الآيات سبعمائة وخمسين آية في الكونيات تتضمن أصولاً وحقائق ذات صلة وثيقة بعلوم الفلك والنبات وطبقات الأرض والزراعة والهندسة والتعدين والصناعة والتاريخ والجغرافية المناخية»^(٥). يقول تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾^(٦).

ويبدو من خلال الآيات القرآنية الكثيرة مقدار حض الإسلام على العلم وأمره بالتعلم. ولقد أعلی الإسلام من شأن العلماء ومجد العقل والمعرفة، وعاب على الجهل وأهله فقرنه بالعمى وشبهه بالضلالة والظلمات. إضافة إلى أن القرآن الكريم اعتبر التعليم من وظائف الرسول وعمله إذ يقول ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٧).

«وإذا كان الإسلام هو النظام الموجه للحياة عند المسلمين بكافة مظاهرها، فقد كان الإمام به ودراسته أمراً لا بد منه لأفراد الجماعة الإسلامية، والتعليم أول

(١) الغزالي: الإحياء ج ١، ص ١٥ - ٢٤.

(٢) سورة المجادلة، الآية ١١.

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم، حديث رقم ١٠.

(٤) الغزالي: الإحياء ج ١، ص ١٦.

(٥) امينة احمد حسن: نظرية التربية في القرآن الكريم وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ص ١١٤.

(٦) سورة الانعام، الآية: ٣٨.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

الوسائل لنشر الفكرة الإسلامية بين المؤمنين بها وشرحها لهم. ومن ثم كان التعليم أمراً لازماً للدعوة الإسلامية لتحقيق التربية الصحيحة التي تهدف إليها بحيث تتلاءم وحياة الأفراد^(١) مع الفكرة الإسلامية وقيم المجتمع الإسلامي الجديد.

– التربية رسالة:

ويرى الغزالي أن المراد بقوله تعالى ﴿وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٢) هو التعليم والإرشاد. أما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾^(٣) ففيه إيجاب للتعليم. وبالنسبة لقوله تعالى ﴿وَلَنْ فَرِيْقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٤) فهو تحريم للكتمان^(٥).

ولقد «كان النبي صلى الله عليه وسلم أول من جمع العرب حوله في حلقة لأخذ العلم. فلم تكن العرب في الجاهلية تعرف الاجتماع لهذا الغرض»^(٦) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾^(٧).

فاقتداء بصاحب الشرع اعتبر الغزالي التربية والتعليم رسالة إذ على المربي أن «لا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً، بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه مئة عليهم وإن كانت المئة لازمة عليهم»^(٨).

وفي نظر الغزالي إن ثواب المعلم أعظم من ثواب المتعلم عند الله تعالى

(١) محمد عبد الرحيم غنيمه: تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى، ص ٢٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٦.

(٥) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٢٠.

(٦) محمد عبد الرحيم غنيمه: تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى، ص ٢٥.

(٧) سورة فصلت، الآية ٣٣.

(٨) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٧٠.

على الرغم من أنه يقرّ بأن المعلم ما كان لينال هذا الثواب لولا المتعلم الذي «يعيرك الأرض لتزرع فيه لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقلده منّة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى؟ ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى»^(١) امثالاً لقوله تعالى ﴿وَيَقْوَمُ لَا أَشْتَكُكُمْ عَلَيْهِ مَا لََّا إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾^(٢).

ولقد حذر علماء المسلمين من طلب العلم لأغراض دنيوية واعتبروا «أن جميع ما ذكر من فضيلة العلم والعلماء إنما هو في حق العلماء العاملين الأبرار المتقين الذين قصدوا به وجه الله الكريم والزلفى لديه في جنات النعيم، لا من طلبه بسوء نية أو خبث طوية أو لأغراض دنيوية من جاه أو مكاثرة في الأتباع والطلاب»^(٣).

ويميّز الغزالي بين نوعين من العلوم من خلال تعليقه على مقولة «تعلم العلم لغير الله حرام» بشكل يحدد فيه الدلالة على لفظة «العلم» ويقيدها «بالعلوم الدينية» حيث يقول «فإن قلت تعلم العلم لغير الله حرام، أي علم كان أم مخصوص ببعض العلوم (فأقول) هو مخصوص بالعلوم الدينية التي هي من جملة العبادات فأما ما ليس من العلوم الدينية كالطب والحساب فلا يحرم أن يقصد بتعليمه الجاه وكسب المال وأما ما هو من العلوم الدينية كال تفسير والأخبار وعلم الفقه والأصول والكلام فلا يجوز تعلمها لغير الله»^(٤). والغزالي بذلك إنما ينطلق من قول الرسول الكريم «من طلب علما مما يتبغي به وجه الله تعالى ليصيب عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»^(٥).

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) سورة هود، الآية: ٩.

(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ١٣.

(٤) الغزالي: فاتحة العلوم، ص ١٥.

(٥) رواه ابو داود في كتاب العلم حديث رقم ١٢.

وليس هناك ما يمنع من أن تكون رسالة التعليم - التي تقوم على اقتناع داخلي عميق بما يؤديه صاحبها من عمل - مهنة أو وظيفة حيث أن مثل هذا العمل لا بد وأن يتحول إلى رسالة لطالما حدد المعلم أهدافه على ضوء التزامه بعقيدة الإسلام. ولذلك ونتيجة لتطور المجتمع الإسلامي وتعقيدات الحياة فيه لم يجد الغزالي حرجاً في إباحة أخذ الأجرة حتى على إفادة العلوم الدينية حيث يقول «فإن قلت أليس يجوز عند الشافعي رضي الله عنه أخذ الأجرة على تعليم القرآن والنكاح بتعليم القرآن (لما روي) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال زوجتكها بما معك من القرآن. وهذا تعليم لغير الله تعالى (فأقول) هذا جائز ونزيد على هذا فنقول يجوز أخذ الأجرة على الاذان وإقامة صلاة التراويح ويجوز للمعيد أخذ الأجرة على مسائل معينة يكررها وللمدرس على مسائل بعينها يتعب نفسه فيها»^(١)

وليس معنى هذا في نظر الغزالي أن الصلاة لغير الله جائزة، وإنما الأجرة على ذلك تكون مقابل تكبد التعب والمشقة والإلتزام بحضور مكان محدد والقيام بالعبادة في وقت معين. وفي ذلك يقول «ولا ينبغي أن يظن أن إمام صلاة التراويح يأخذ الأجرة على الصلاة وإن الصلاة لغير الله جائزة بهذا الدليل فذلك حرام بالاتفاق، ولكن إتعابه نفسه في حضور موضع معين وقيامه به في وقت معين ليس بواجب عليه. وليس من نفس العبادة وإنما الأجرة في مقابلة ذلك التعب»^(٢).

ولئن أباح الغزالي الأجر على إفادة العلم فإنما كان ذلك من منطلق حرصه على نشر العلم وإفساح المجال للمدرس كي يفرغ قلبه عن العلائق التي قد تحول دون القيام برسالة التربية والتعليم ونشر تعاليم الدين وهو في ذلك يقول: «وكذلك للمدرس أن يأخذ ما يكفيه ليفرغ قلبه عن المعيشة ليتجرد لنشر العلم فيكون مقصوده النشر وثواب الآخرة يأخذ الرزق بلغة ميسرة للمقصود»^(٣).

(١) الغزالي: فائحة العلوم، ص ١٦.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥.

والغزالي بذلك يعبر عن قناعته بأن التربية رسالة انطلاقاً من نظريته العقدية ونظرة الإسلام للتربية والتعليم. ولذلك ليس غريباً عليه أن يولي النية بالغ الأهمية في العملية التعليمية اقتداء بقول الرسول عليه الصلاة والسلام «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...»^(١). فعلى قاعدة حسن القصد وسلامة النية يقرر الغزالي بأن «المعلم سبب الحياة الباقية، ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة. أعني معلم علوم الآخرة، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه»^(٢).

والغزالي بذلك إنما يعبر عن وجهة نظره كمسلم حيث «إن المعلم احتل في التربية الإسلامية منزلة لم يصل إليها معلم في حضارة قديمة أو حديثة، وهو لا يحتل هذه المنزلة بسبب قربه من السلطة وخدمته لها، وسهره على النظام ليحميه، وإنما هو يحتلها بسبب ضخامة الرسالة التي يضطلع بها، وهي السهر على هداية الناس والسير بهم - ومعهم - في طريق الله»^(٣). فاحتلال المعلم لهذه المنزلة في التربية الإسلامية نابع من عظم المسؤولية المناطة به «لأنه يحمل على كتفيه أعباء لم يحملها في التاريخ قبله إلا رسل الله»^(٤). ولذا كما يقول الغزالي إن من «اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه»^(٥).

وفي ظل التحولات التي شهدتها المؤسسات التربوية الإسلامية في القرن الخامس الهجري، إثر قيام نظام المدارس تحت الإشراف الحكومي أصبح المعلم موظفاً عند الدولة يتقاضى راتباً شهرياً على عمله. ولقد حدا هذا التحول - الذي فرضته ضرورات الحياة - بالإمام الغزالي لتذكير العلماء والمعلمين بأهمية دورهم

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي حديث رقم ١.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٩.

(٣) عبد الغني عبود: «المدرس في التربية الإسلامية»، مجلة التربية القطرية، العدد ٢٦، ربيع الثاني ١٣٨٩هـ/ابريل ١٩٧٨م، ص ٣٤.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٩.

الذي يحتم عليهم أن يكونوا أصحاب رسالة يقدرّون خطورتها ويتحملون تبعاتها وابعاءها بحيث يجعلون من أنفسهم صورة صادقة صافية لها، أسوة بالمعلم القائد محمد صلى الله عليه وسلم، ولكي يبقى المسلمون دعاة حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ففي حال «جمع المعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المتعلم: الصبر والتواضع وحسن الخلق. وإذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المعلم: العقل والأدب وحسن الفهم. وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرئاسة»^(١).

ونتيجة إحساس الغزالي بخطورة التحوّل الذي أخضع التعليم لميول الحكام وأهوائهم، ورغبات أصحاب الأوقاف وشروطهم، اندفع للكشف عن مخاطر الإنجراف وراء الحكام والسلاطين قناعة منه بأن «من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صحب السلطان تملقاً إليه وطمعاً فيما لديه خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه»^(٢). وبذات الاتجاه يقول الإمام الإوزاعي «ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملاً»^(٣). والعامل في هذا الموقع يعني الحاكم أو الوالي.

انطلاقاً مما سبق ذكره يمكننا القول بأن التربية في نظر الغزالي رسالة لها مفهومها وأهميتها وأهدافها لجهة بناء الشخصية الإسلامية على مستوى الفرد والجماعة على حد سواء.

- مفهوم التربية:

● علاقة التربية بالدين:

إن «الفكر التربوي - إيا كانت طبيعته ومنحاه - هو أداة الحضارة ووسيلتها في تخليد ذاتها. وضمان انسيابها وتناقلها بين الأجيال. إن هذا بطبيعة الحال لا يلغي فعل التربية في الحضارة، ولكنه يرسم دور هذا الفعل ويحدد مداه. وهو لا

(١) المرجع السابق، ص ٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٤.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

يفترض بالضرورة سبق الحضارة على الفكر التربوي، ولكنه لا يجعل الفعل التربوي لاحقاً بها، فبمحض أن تعي حضارة ما ذاتها... تحرص على حماية تلك الذات من عوامل الإنحلال والاندثار. وعندما يقع هذا الوعي... يتولد التفكير في التربية... ويولد معه القلق الخلاق على التماس خير الوسائل وأجداها في حفظ الذات الحضارية... أي يبدأ الفكر التربوي. تلك ظاهرة عامة وثابتة في تاريخ الحضارات البشرية كلها^(١).

ويشكل الإسلام كلا متماسكا يمتاز بنظام فكري متكامل وبناء حضاري يحتوي على كل عناصر الحضارة المختلفة كالثقافة والعقيدة والعبادة والسياسة إضافة للجانب القانوني والتشريعي هذا إلى جانب رؤيته الخاصة بثقافة المجتمع المختلفة ومعاملة الأقليات والمساواة بين الأجناس... كما وأنه يحتوي على مبادئ أخلاقية إنسانية سامية تشمل كافة نواحي الحياة. أي أن لها علاقة وثيقة بكل من الثقافة والعقيدة، والعبادة والسياسة والقانون والمجتمع والأجناس وتفسير التاريخ.

ولقد كان للإسلام سبق في إدراك مدى تكامل وتشابك كل من الجانب المادي والروحي في الإنسان وفي المجتمع الإنساني، الأمر الذي حدى به للإهتمام بكلا الجانبين مما جعله يتميز عن اليهودية التي غالت في تقدير القوة المادية والمسيحية التي غالت في تقدير القوة الروحية. وبذلك كرس الإسلام حقيقة كونه «دين التوازن الحق بين الناحيتين على أساس أن كليهما عنصر أساسي في الطبيعة البشرية وأن كليهما ضروري لتقدم الإنسان»^(٢).

ولقد تميّز الإسلام بخاصية ثانية هي «الربانية» مما يعني أنه دين رباني لم يلحق به أي تحريف كما لحق بغيره من الأديان. وهذا يقودنا للتسليم بوحداية التشريع الإسلامي «أي أن المشرّع الوحيد هو الله سبحانه وتعالى. وأن هذا

(١) محمد جواد رضا: العرب والتربية والحضارة، ص ١٣.

(٢) أحمد عبد الحميد غراب: «التصور الفلسفي للإسلام»، مجلة الفكر الاسلامي، السنة الخامسة، العدد ١٠، رمضان: ١٣٩٤ هـ - تشرين الاول ١٩٧٤، ص ٢٨.

التشريع قد وصل عن طريق الوحي إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ويتحدد معنى الشريعة الإسلامية، ويتضح أنها تقوم على ثلاث دعائم: عقيدة عقلية، وعبادة روحية ونظام قضائي. وهذا هو المراد عندما يقال: إن الإسلام دين ودولة وعبادة»^(١).

والخاصية الثالثة التي تميز الإسلام عن غيره من الديانات هي «خاصية الثبات للمقومات والقيم، بالتحاكم إلى منهج الله وحده في كل شؤون الحياة»^(٢). وهي «متفرعة من التسليم لله بالحاكمة التشريعية، وهي خاصية غير خاضعة للهوى البشري المتقلب أو القيم الإنسانية الزائلة، مع إمكانية الحركة الواسعة داخل هذا الإطار»^(٣).

هذا إلى جانب خاصية الشمول التي اتسم بها الإسلام خاصة وأنه من عند الله تعالى المحيط بكل شيء علماً والعارف بكل حاجات الإنسان أكثر من الإنسان نفسه.

فحقيقة الإسلام هذه كانت القوة الكامنة وراء أفكار المربين المسلمين الذين جاءت آراؤهم متشابهة لا بل تكاد تكون متطابقة في غالب الأحيان خاصة على صعيد الأهداف وطرائق التعليم التي تبناها.

فمن ابن سحنون ٢٥٦هـ إلى القابسي القيرواني ٤٠٣هـ إلى الغزالي ٥٠٥هـ إلى ابن جماعة إلى ابن خلدون ٨٠٨هـ إلى ابن حجر الهيتمي ٩٧٤هـ نرى رجالاً كالوا بمكيال الإسلام ونهلوا من معينه، وجاهدوا بالكلمة الطيبة لتحقيق أهدافه فلم يكن غريباً أن يعكس فكرهم التربوي طبيعة الدين الحنيف ونظرته لكل من الخالق والخلق. في ظل واقع مميز للدين الإسلامي مما يؤهله لأن يكون منهج حياة صالح لكل زمان ومكان الشيء الذي لم يتأت لغيره من الأديان.

(١) شكري قنديل: «المفهوم التربوي الإسلامي» المرجع السابق، ص ٢٢.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

* التربية لغة واصطلاحاً:

أ - التربية لغة:

يعيد علماء اللغة كلمة «التربية» إلى أصول لغوية ثلاثة هي:

١ - الأصل الأول: (ربّ) - يربّ - بمعنى أصلحه وتولى أمره وسأسه، وقام عليه ورعاه.^(١)

٢ - الأصل الثاني: (ربا) - يربو - بمعنى نما ينمو.

٣ - الأصل الثالث: (ربي) - يربي - بوزن خفى - يخفى، بمعنى نشأ وترعرع^(٢).

ب - التربية اصطلاحاً:

جاء في تفسير البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل». إن «الرب في الأصل بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً. ثم وصف به (تعالى) للمبالغة»^(٢).

وجاء في المعجم الفلسفي «التربية هي تبليغ الشيء إلى كماله، أو هي كما يقول المحدثون تنمية الوظائف النفسية بالتمارين حتى تبلغ كمالها شيئاً فشيئاً، تقول ربيت الولد، إذا قويت ملكاته، ونميت قدراته إذا أحكمته التجارب ونشأ نفسه بنفسه. ومن شروط التربية الصحيحة أن تنمى شخصية الطفل من الناحية الجسمية والعقلية والخلقية حتى يصبح قادراً على مؤالفة الطبيعة يجاوز ذاته ويعمل على أسعاد نفسه، وإسعاد الناس، وتعد التربية ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الأخرى في نموها وتطورها»^(٣).

(١) أ - ابن منظور: لسان العرب.

ب - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة.

ج - الفيروز ابادي: القاموس المحيط.

(٢) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ١، ص ٣.

(٣) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج ١، ص ٢٦٦.

وترى المربية الإيطالية (منتسوري) أن التربية هي التنمية لأن «الطفل جسم ينمو وروح ينمو»^(١).

أما المربي الفرنسي المعاصر روني أوبير فيقول «التربية: جملة الأفعال والآثار التي يحدثها بإرادته كائن إنساني في كائن إنساني آخر وفي الغالب راشد في صغير، والتي تتجه نحو غاية قوامها أن تكون لدى الكائن الصغير استعدادات متنوعة تقابل الغايات التي يعد لها حين يبلغ طور النضج»^(٢).

ويقول الإمام الغزالي «الصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهره نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما ينقش ومائل لكل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له، وقد قال عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قُورًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(٣) ومهما كان الأب يصون عن نار الدنيا فأن يصون عن نار الآخرة أولى، وصيانتته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القراء السوء ولا يعود التمتع ولا يحب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره»^(٤).

ويعكس كلام الغزالي فهمه للتربية الذي يأخذ بعين الاعتبار فطرة الإنسان معتمداً في ذلك على قول الرسول صلى الله عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(٥) «فإذا كان النشوء صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثراً ناجعاً يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر. وإن وقع النشوء بخلاف ذلك... بنا قلبه عن قول الحق نبوة الحائط عن

(١) محمد عطية الإبراشي: الاتجاهات الحديثة في التربية، ص ٩٥.

(٢) روني أوبير: التربية العامة، ص ٢٧.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٧٨.

(٥) رواه البخاري في كتاب الجنائز حديث رقم ٨٠.

التراب اليابس . فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى^(١) لأن الصبي في الأساس كما يرى الغزالي «خلق قابلاً للخير والشر جميعاً وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين»^(٢) .

فالمسؤولية إذن حسب الغزالي مسؤولية الأبوين أو المربي في تحديد مصير الطفل لجهة بناء شخصيته القادرة على القيام بأعباء الخلافة . ولقد كان هذا التكليف نتيجة قابلية الإنسان للتعلم يقول تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(٣) .

فالتربية عند الغزالي عملية رعاية وبناء لشخصية الطفل بحيث يصبح فرداً صالحاً في مجتمع صالح متوازن متطور قائم على أسس ثابتة تراعي طبيعة الإنسان القائمة على ضرورة التوازن بين متطلبات الجسد والروح إلى جانب الدنيا والآخرة .

ويحدد الغزالي مفهوم التربية بإيجاز ووضوح لا لبس فيهما عندما يقول «ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه»^(٤) .

وتعريف الغزالي هذا يلخص كل ما توصل إليه من سبقوه أو لحقوه من علماء التربية . ولكن «بين عبارة الغزالي، المختصرة، وعبارات المفكرين المعاصرين غير المسلمين فرق شاسع إذ أن هناك (تشابهاً) أو (اتفاقاً) بينه وبينهم، في (الإطار العام)، إلا أننا إذا تعمقنا قوله وقولهم . . . وجدنا هذا التشابه أو الاتفاق، مجرد تشابه أو اتفاق ظاهري فقط»^(٥) . ومرد ذلك إلى أن «الغزالي قال ما قاله . . . من منطلق اعتقادي خالص، رآه الإسلام، يرى تكاملاً بين ملكات الإنسان ومواهبه، ولا يراها مناطق منفصلة، كما يرى تكاملاً بين هذه الملكات

(١) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٧٩.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٤) الغزالي: ايها الولد، ص ١٢٨.

(٥) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي (كما يبدو من رسالة ايها الولد)، ص ١٧٥.

الإنسانية مجتمعة وبين النظام الكوني»^(١) وذلك انسجاماً مع نظريته العقدية للإنسان والكون. وإذا كان المفكرون من غير المسلمين قد نحووا هذا المنحى فلقد جاء ذلك «تحت وطأ الحاجة إلى مثل هذا التكامل... وفرق كبير بين آراء، يذهب إليها القائل بها مؤمناً بها وآراء يذهب إليها القائل بها مضطراً إليها... أي على النقيض مما يؤمن به حقيقة»^(٢).

— أهمية التربية:

التربية عملية اجتماعية. وهذا ما يجعلها تختلف باختلاف المجتمعات تبعاً للحضارة والثقافة والقيم التي تسودها. ولقد صحبت التربية الإنسان منذ وجوده الأول على الأرض إذ فهي «وثيقة الصلة بالمجتمع، تعكس فلسفته وأهدافه وظروف حياته وألوان نشاطه، وقيمه ومعتقداته، أي تعكس عموماً إيديولوجيته في الحياة لتجعل الصغار يشبّون على هذه الإيديولوجية فينضمون إلى حملتها من الكبار»^(٣).

وحيث أن التربية ترتبط بجميع «المؤشرات الموجهة التي يراد منها أن تصوغ كيان الإنسان وتربي سلوكه في كل نواحي الحياة جسدية كانت أم عاطفية أم اجتماعية أم فكرية أم فنية، أم أخلاقية أم روحية، فالتربية تشمل كل المنظمات والعوامل والأساليب والطرق التي تدخل في نطاق الفعاليات التهديبية»^(٤).

فقوة الشعوب إذن تعتمد اعتماداً رئيساً على «ما يتهيأ للأفراد من إعداد خاص وتربية متميزة حتى يصبح هؤلاء الأفراد من نوعية متفوقة فإذا هم قادرون على توظيف طاقاتهم بذكاء وفاعلية في استثمار مواردهم الطبيعية فإذا هم جديرون بتحويل ما حولهم إلى قوة واقتدار وذلك بفضل مهارتهم الاجتماعية وقيمهم الخلقية وطاقاتهم الفكرية»^(٥).

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) عبد الغني النوري، عبد الغني عبود: نحو فلسفة عربية للتربية، ص ٢٣.

(٤) محمد فاضل الجمالي: آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية، ص ١٢٧.

(٥) محمد الستاوي: «أهداف التربية»، مجلة التربية القطرية، السنة التاسعة، العدد الرابعون، شعبان ١٤٠٠هـ، يوليو ١٩٨٠م، ص ٦٦.

وفي هذا دلالة على أهمية التربية ودورها في تقرير مصائر الشعوب حيث إنها تشكل قوة فاعلة سواء على صعيد الفرد أو المجتمع فهي «لا تشمل فقط كل ما نفعله لأنفسنا، أو ما يعمله الآخرون لنا بقصد تنشئتنا وتقريبنا من درجة الكمال بقدر المستطاع ولكنها فوق ذلك تشمل الآثار غير المباشرة التي تؤثر في أخلاقنا وطباعنا ومواهبنا الإنسانية مثل القانون، ونظم الحكومة، والفنون الصناعية والنظم الاجتماعية، بل إنها تشمل أيضاً آثار البيئة الطبيعية التي لا تتوقف على الإرادة البشرية من عوامل الجو والتربة والموقع الجغرافي. فكل ما يساعد على صقل الفرد وإخراجه بالشكل الذي ينتهي إليه جزء من التربية»^(١).

إذاً يمكننا القول أن كل مجهود أو نشاط يؤثر في قوى الطفل أو تكوينه الجسمي أو العقلي أو النفسي أو الخلقي هو عمل تربوي فالتربية من حيث أبعادها تمثل مجمل الجهد الإنساني عبر التاريخ لتحريك المجتمعات البشرية وتطويرها والسير بها قدماً باتجاه الكمال ولذلك التفت حولها اهتمامات كل من الأفراد والمجتمعات على حد سواء.

ومن هنا تتضح أهمية التربية وخطورتها، الشيء الذي أدركه الإسلام منذ بزغ فجره. حيث أن القرآن الكريم والسنة النبوية - العملية والقولية والتقريرية - شكلاً المرجع الرئيسي للتربية وأصولها وممارساتها «وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته يمثّلون تربية القرآن في السلوك اليومي والمعاملات المختلفة بكل أهدافه وأساليبه وخصائصه. . . ولضمان استمرار هذه التربية فيما أراد الله سبحانه وتعالى أرسل رسله مبشرين ومنذرين فقد كان من فضل الله على الناس أن بعث فيهم محمداً صلى الله عليه وسلم مربياً ومزكياً وموجهاً»^(٢). يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٣). ويقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ

(١) صالح عبد العزيز: تطور النظرية التربوية، ص ٢٣.

(٢) عباس محجوب: أصول الفكر التربوي في الإسلام، ص ٢٧.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٢.

اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ (١). وما إستجابة الله تعالى لدعاء سيدنا ابراهيم الخليل ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٦٩) (٢) إلا تأكيد على أهمية التربية في حياة البشرية جمعاء.

وسيراً على خطى الرسول الكريم وأصحابه ومن بعدهم التابعين والعلماء الصالحين أدرك الغزالي أهمية العلم والتعلم والتعليم وبالتالي أهمية التربية وخطورة دورها في بناء الفرد والمجتمع انطلاقاً من فهمه العميق للإسلام على أساس أنه «رسالة تربية قبل أن يكون رسالة تشريع ورسالة خلق بل أن يكون رسالة جهاد ورسالة سمو وقيم قبل أن يكون رسالة كثرة واتساع» (٣).

ولقد جمع الغزالي ما بين طرق التربية والتعليم وطرق التزكية والتصفية فأبدع في ذلك مستفيداً مما جاء في القرآن الكريم وأحاديث الرسول وعلوم من سبقوه من علماء المسلمين وغير المسلمين بما يخدم رسالة التوحيد. وتجلى ذلك من خلال ما جاء في رسالة «أيها الولد» وكتاب «أحياء علوم الدين» وغيرها من الكتب التي لم تخرج عما ورد في الكتابين السابقين. كل ذلك إيماناً منه بأهمية التربية في عملية بناء الإنسان والمجتمع الإسلامي.

وتعتبر إشادة الغزالي بالعلم والتعليم إشادة بالتربية التي يعتبر العلم من أبرز دعائمها وهذا ما يعكس تعليقه على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» (٤) حيث يقول «فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو من علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة» (٥).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٣) محمد شديد: منهج القرآن في التربية، ص ٧.

(٤) رواه الترمذي في باب العلم رقم ١٩.

(٥) الغزالي: الأحياء، ج ١، ص ١٧.

وفي إشارة ثانية لأهمية التربية القائمة على العلم يورد الغزالي ما جاء في وصايا لقمان لابنه «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء»^(١). . . . وهل يا ترى هناك مجتمع يرقى لمرتبة المجتمع الذي حظى أفرادُه بتربية أورثتهم نور البصر والبصيرة؟ خاصة عندما نعلم أن التربية في نظر الغزالي تخرج الناس من الظلمات إلى النور سواء كان ذلك عن طريق التلقي أو التعلم. فتثقيف النفس وتربيتها جهاد ومن يرى غير ذلك فقد نقص عقله حسب ما يقول الغزالي «من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص رأيه وعقله»^(٢).

ومن المؤشرات الدالة على أهمية التربية في نظر الغزالي إيمانه العميق بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، وتأثير التربية عليها إن سلباً أو إيجاباً. وهو في ذلك يشبه النفس بالبدن فيقول: «وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه - أي بالاعتیاد والتعليم تكتسب الرذائل - وكما وأن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكتمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم»^(٣).

فالتربية في نظر الغزالي وسيلة لإعادة الاعتدال في حال انحرف الإنسان عن فطرته وهذا ما جاء به الإسلام حيث أن الله تعالى أرسل الرسل للناس لهدايتهم إلى فطرته، وقد يفلح الإنسان بذلك وقد يخيب يقول تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٤).

(١) المرجع السابق، ص ١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠.

(٣) المرجع السابق ج ٣، ص ٦٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٥١.

فإلى جانب رد الاعتدال إلى الفطرة تبرز أهمية التربية في نظر الغزالي كما تشير أقواله السابقة إلى الدور الذي تلعبه التربية في رعاية وتكملة نمو الطفل حيث أن الطفل يولد ضعيفاً وغير مكتمل النمو مما يجعله بحاجة للاتكال على غيره أي أنه يفتقر إلى من يرعاه كي يصبح عضواً فاعلاً في مجتمعه قادراً على نفع نفسه وغيره والقيام بما خلق لأجله.

ومن دلائل أهمية التربية في نظر الغزالي كونها وسيلة لانتقال العلم من جيل إلى جيل لأن «أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم»^(١). وفي هذا إظهار لقيمة دور التربية والعلماء الذين لولاهم «لصار الناس مثل البهائم، أي إنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمة إلى حد الإنسانية»^(٢).

ولقد لامس مربو هذا العصر عبارة الغزالي، ولا نبالغ إذا قلنا أن هناك تطابقاً - رغم اختلاف المنطلقات - فيقول أحدهم مثلاً «إن التربية عملية ينتقل بها الإنسان من الهمجية إلى المدنية»^(٣). ويصرح آخر بتعبير أكثر جرأة فيقول «إن السبب الذي من أجله نحتاج إلى التربية هو أن الاطفال لا يولدون بشراً، بل يصيرون بشراً بفضل التربية»^(٤).

وفي فرضية لطيفة ومعبرة يطرح مربيان أمريكيان الفكرة التالية قائلين «لو انتقل سكان الكرة الأرضية إلى المريخ تاركين وراءهم الاطفال الصغار ثم عادوا إليهم بعد عشرين عاماً، لوجدوهم قطعاً من البهائم»^(٥).

ومن أجل استمرار الحياة وإعمار الأرض والتغلب على ما قد يواجه الإنسان من تعقيدات وتحولات تبرز التربية كضرورة ملازمة للإنسان. ومن البديهي القول إنه مع اتساع البيئة وتعدد مشكلاتها ومتطلباتها وكثرة مشكلاتها واشتداد أزماتها

(١) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ١٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢.

(٣) Morrison, /Basic Principles in Education, p. 60-83.

(٤) Barzun, ITeacher in AmericaI p.13.

(٥) Thorndike & Jates, IElementary Principles of EducationI, p.7.

تبرز أهمية التربية في حياة الإنسان مما يضطره كي يبذل جهوداً جبارة في سبيل تكييف نفسه وبيئته بما لا يتنافى مع الإيمان بالله واليوم الآخر. فبسبب جهل الإنسان بما يخبيء له الغد ولكي ينتظم أمر الدنيا أصبح من واجب التربية أن تعود النشء على كيفية مواجهة وحل ما يعتره من مشاكل في هذه الدنيا التي هي مزرعة الآخرة والسبيل إلى السعادة الأبدية في حال أحسنت التربية وفي ذلك يقول الغزالي «فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل فكان تعليمه إفادة للأفضل، وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة وهي الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلاً لمن اتخذها مستقراً ووطناً. وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين»^(١).

والغزالي لا يرى التربية ضرورة فردية فحسب بل ضرورة مجتمعية أيضاً، وحاجة المجتمع الإسلامي إلى التربية ليست بأقل أهمية من حاجة الفرد المسلم إليها، لأنها تحافظ على تراثه الثقافي والفكري وتعمل على تعزيزه ونشره، وهي المهمة الأساس على طريق خلافة الإنسان لله على الأرض، ويقول تعالى: ﴿وَلْيُنْذَرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٢) والمراد بذلك حسب الغزالي «التعليم والإرشاد»^(٣). ويرى الغزالي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾^(٤) «إيجاب للتعليم»^(٥) أما قوله تعالى: ﴿وَلَنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٦) فهو «تحريم للكتمان»^(٧) تماماً كما قال تعالى في الشهادة ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ

(١) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٢٣.

(٢) سورة التوبة. الآية: ١٢٢.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٢٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

(٥) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٢٠.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

(٧) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٢٠.

قَلْبُهُ^(١). وفي الاتجاه نفسه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «تعلموا العلم وعلموه الناس»^(٢).

وفي كل ما سبق تأكيد على أهمية التربية كضرورة فردية واجتماعية من أجل الحفاظ على التراث الإسلامي ونشر رسالة الإسلام لتكون دستور الناس أجمعين حتى يرث الله الأرض ومن عليها. خاصة وأنه على دور التربية وواجبها يترتب الجزاء الاخروي كما ذكر الغزالي مستلهما ذلك للما جاء في القرآن الكريم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾^(٣).

ـ أهداف التربية عند الغزالي:

إن التربية عملية متعددة الجوانب فهناك الأسرة والمدرسة والمجتمع. وهناك المعلم والمتعلم. وهناك الطرائق والمواد التعليمية، علاوة على الأهداف التي تسعى التربية لتحقيقها من خلال رعاية الاستعدادات الفطرية وتنميتها لدى الطفل التي تكفل له النمو السليم.

«وترتبط أهداف التربية بعوامل كثيرة منها حاجات الأطفال الذين يربون، وخصائص الحياة التي يعدون لها، ومنها نوع المجتمع ودرجة التقدم التي وصل إليها والظروف الخاصة به، ومنها آراء المفكرين الذين يهتمون بالشؤون التربوية ورغبات السلطات والهيئات التي تشرف على المدارس»^(٤).

وبما أن المجتمعات الإنسانية مختلفة في أوضاعها ونظمها ودرجة تقدمها، علاوة على أنها تتطور مع تقدم الأيام بشكل متفاوت، وبما أن لكل مجتمع سلطانه ومفكره، ولما كانت أهداف التربية تتأثر بكل ذلك فليس غريباً أن تأتي أهداف التربية الإسلامية متميزة عن غيرها من الأهداف تبعاً لتمييز نظرة الإسلام لله والإنسان والكون والمجتمع والحياة الآخرة.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.

(٢) رواه الدارمي في المقدمة، حديث رقم ٢٤.

(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ - ٤١.

(٤) جوزيف عبود كبي ورفاقه: اسس التربية وعلم النفس، ص ١٤.

ولقد أدرك المربون المسلمون أهمية التربية وأثرها في بناء شخصية الطفل مما جعلهم يهتمون بعملية تأديبه، وتهذيبه، تطلعاً لتحقيق غايتين: أولاهما: الإعداد للحياة الآخرة وهي الأهم، وثانيهما: تمكين الفرد من معرفة طائفة من العلوم والمهارات التي تؤهله للنجاح في الحياة الدنيا^(١).

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢) فالمتمعن في الآية الكريمة يدرك أن «وسائل بناء الشخصية الإنسانية على أساس من النقاء والطهر واضحة جلية... فالتزكية تمام الأخلاق والتعليم للكتاب تمام معرفة الأوامر والنواهي والحقوق والواجبات كما أنه يفيد معنى زوال الجهل وتعليم الحكمة هو أعلى درجات التعليم لأنها تعني في عرف العلماء الإصابة في القول والعمل، فإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة - بعد تزكية النفس بالأخلاق الحميدة والفضائل السامية - فإنه يكون حينئذ قد حصل الخير كله»^(٣) تصديقاً لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٤).

وفي إطار تحديد أهدافه التربوية يقول الغزالي «ونحن نبتغي من العلم تبليغ النفس كمالها»^(٥) وفي هذا تأكيد على أنه يسعى لبناء شخصية متكاملة تنمو في كافة الأبعاد والجوانب الروحية والنفسية والعقلية والاجتماعية والجسمية بشكل مترابط ومنسق، شخصية تعرف «أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها. كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له والميل عن الاعتدال مرض فيه»^(٦).

(١) عبد الله فياض: تاريخ التربية عند الامامية واسلافهم الشيعة، ص ٢١٩.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٣) محمد عبد الستار نصار: «من التوجيه التربوي في الحديث الشريف». مجلة التربية القطرية، السنة السابعة، العدد ٢٧، رجب ١٣٩٨ هـ - يونيو ١٩٧٨ ص ٦٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٥) الغزالي: ميزان العمل، ص ٣٦.

(٦) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦٦.

وحتى يتكامل حسن الصورة الظاهرة لهذه الشخصية مع حسن الصورة الباطنة يرى الغزالي أن هناك «أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث»^(١).

فحسن وصلاح هذه القوى يورث الحكمة والشجاعة والعفة والعدل وهي فضائل يعتبرها الغزالي أمهات محاسن الأخلاق والباقي فروعها. وفي ذات الوقت يشير الغزالي إلى أن أحدا «لم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه. فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٢).

والشخصية التي سعى الغزالي لتحقيقها - والتي تمثل الكمال الإنساني - لن تتمكن من بلوغ سعادة الآخرة في القرب من الله سبحانه وتعالى إلا بعد أن تكون قد حققت سعادة الدنيا عن طريق تصويب النية فيما تقوم به من أعمال وعادات، وهذا ما يفضي به إلى تلميذه عندما يخاطبه قائلاً «أيها الولد كم من ليلة أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت على نفسك النوم لا أعلم ما كان الباعث فيه؟ إن كانت نيتك نيل عرض الدنيا وجذب حطامها وتحصيل مناصبها والمباهاة على الأقران والأمثال فويل لك ثم ويل لك وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وتهذيب أخلاقك وكسر النفس الأمارة بالسوء فطوبى لك ثم طوبى لك»^(٣). ويعزز الغزالي وجهة نظره بقول الشاعر:

سهر العيون لغير وجهك ضائع وبكاؤهن لغير فقدك باطل^(٤)

(١) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٠.

(٣) الغزالي: أيها الولد، ص ١٠٥، ١٠٦.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن مقصود الإمام الغزالي (بإحياء الشرع وتهذيب الأخلاق وكسر النفس) ما هو إلا إصلاح للحياة الدنيا وليس هجرها كما وإننا «نحب أن نوضح... أيضاً، أن (وجه الله) في البيت لا يعني هجر الدنيا، بل هو يعني (تقوى) الله في علاقة الإنسان المسلم بالناس والأشياء على السواء»^(١).

فالغزالي يسعى لتحقيق الشخصية المسلمة المتميزة بذاتها إلا أن هذا التميز «لا يعني أنها ذات منعزلة بوجودها مكتفية بحدودها، مغلقة بأستارها مغلقة بأقفالها بل هي ذات إيجابية ومتفتحة على الحياة كلها»^(٢). وذلك لأنه يرى أن العلم والعمل يجب أن يسيرا على ضوء تعاليم الشارع بعيداً عن شطحات المتصوفة. ذلك لأن الصوفية في نظره هي المجاهدة^(٣) «وفرّق بين منهج التصوف الذي يؤدي إلى (الأندماج) مع الناس والأشياء ارتفاعاً بمستوى حياة الإنسان إلى أفق رباني أرحب وأنظف وأكمل، وبين منهج المتصوفة الذي يدعو إلى (هجر) ذلك كله بإسم (الانقطاع) لله ولعبادته»^(٤). فصوفية الغزالي إذن لا تعني ترك السعي في الحياة والانقطاع لله وهجر الناس، لأن كل ذلك يتنافى مع رسالة الاستخلاف التي خلق الإنسان من أجلها. وإنما هي التجسيد العملي لمعنى العبودية بشكل يوظف العبادة التقليدية لله توظيفاً يجعلها متصلة اتصالاً وثيقاً بأمور الحياة اليومية. لتنعكس بشكل إيجابي على التعامل مع الناس والأشياء على حد سواء.

هذا على مستوى الفرد. أما على مستوى الجماعة فلقد سبق لنا واطلعنا على موقف الغزالي من مجريات عصره وفي هذا دلالة على مدى اهتمام الرجل بقضايا المجتمع الإسلامي في الوقت الذي لم يغفل فيه الدعوة المتكررة لمحاسن الأخلاق. ففي رسالة «الأدب في الدين» يضع الغزالي تصوراً كاملاً للأدب التي

(١) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي، ص ٩٧، ٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٣) الغزالي: أيها الولد، ص ١١٧.

(٤) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي، ص ١٣٠.

يجب أن تسود المجتمع الإسلامي لأنه يرى «أن أكمل الأخلاق وأعلاها وأحسن الأفعال وأبهاها، هو الأدب في الدين. وما يقتدي به المؤمن من فعل رب العالمين وأخلاق النبيين»^(١).

ولو نظرنا إلى الجزء الخاص بالعادات من كتاب «الاحياء» لرأينا مدى اهتمام الغزالي في أخلاق المجتمع الإسلامي في كافة مجالات الحياة، فهو يرى أن «الإلفة ثمرة حسن الخلق والتفرق ثمرة سوء الخلق، فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يشمر التباغض والتحاسد والتدابير»^(٢). وشاهده على ذلك قوله تعالى في مدح النبي الكريم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣). وقوله صلوات الله وسلامه عليه «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق»^(٤).

فالتقوى تشكل محور الأخلاق الإسلامية كما وأنها المفسر لما قد يبدو متناقضاً في تصرفات المسلم كالتواضع والأنفة على سبيل المثال لأنه «مع الأنفة وعزة النفس، ينشئ الإيمان بهذه الكلمة التواضع في الإنسان»^(٥).

وعلى الرغم من وضوح الغايات الاجتماعية التي عمل الغزالي على تحقيقها إلا أن بعضهم رأى أن هذه الأهداف تنحصر في معرفة الدين علماً وعملاً، وإنه يسرف في هذه النظرة بحيث يجعل تلاميذه يستغرقون جميع أوقاتهم وجميع أعمالهم في سبيل الدين وبإسم الدين. لدرجة أنهم يصبحون عاجزين عن مواجهة أعباء الحياة وتقلباتها، فإننا نقول إن مثل هذا الرأي قد يكون ناجماً عن الخلط وعدم التمييز بين الإسلام والمسيحية، حيث تخلو المسيحية من النظم المادية في الوقت الذي يحفل فيه الإسلام بالتنظيمات المادية والاقتصادية والاجتماعية إلى

(١) الغزالي: الادب في الدين، مجموعة رسائل الامام الغزالي ج ٥، ص ٨٩.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ٢، ص ١٧١.

(٣) سورة القلم، الآية: ٤.

(٤) رواه احمد في المسند ج ٢، ص ٣٩٢، ٤٤٢.

(٥) المودودي: مبادئ الاسلام، ص ٧٦.

جانب المباديء والوصايا الروحية. وقد يكون مرد سوء الفهم أيضاً لقصور أو خطأ في فهم مدلول العلوم الدينية عند علماء المسلمين من قبل مفكرى الغرب والمتأثرين بهم. خاصة وأن الأوروبيين فصلوا بين الدين والحياة العامة وسلوك الإنسان وجعلوا الدين مجرد عقيدة فكرية بعيدة عن أي أثر سلوكي. بينما يرى المتتبع لأخبار علماء المسلمين - في القرون الوسطى - كيف أن العلوم الدينية تناولت كافة مشاكل الحياة الإنسانية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من المشاكل بمتهى الشجاعة والاهتمام.

ولئن تمتع الغزالي بخصوصية ذات طابع صوفي متميز فإن لذلك ما يبرره حيث أن الرجل انبرى «ليكافح تلك المادية الدنيوية الطاغية وتلك المذاهب الفكرية التي تسبح في ضباب من الظنون والتخمينات تدفع إلى الفروض والإباحية كما تدفع إلى الضلال والجحيم»^(١) فاستطاع الغزالي من خلال موقفه هذا أن يجدد «للناس إيمان القلوب، ذلك الإيمان الصافي المتجه إلى اله يدركه العلماء والحكماء والعامة»^(٢). فاستحق بذلك لقب مجدد أمر الدين لفترة المائة الخامسة من عمر هذه الأمة.

وإن كان من أحد يسعى لإيجاد طبقة كاملة الرجولة سامية الأخلاق نبيلة الأهداف فإن الغزالي يعتبر رائداً في وضع الصورة الحقيقية لمثل هذا النوع من البشرية لأن «المبادئ الأخلاقية النبيلة التي وضعها الغزالي وشرطها للمؤمن لجديرة بإيجاد مجتمع إنساني ملائكي فاضل سليم من الضغن والتنازع بعيد عن الفحش والرذيلة»^(٣).

ويذكرنا الغزالي إبان سعيه لتحقيق أهدافه المتمثلة في بناء الشخصية الإسلامية المتكاملة^(٤) «أن النمو نحو الإنسجام الكامل يتطلب الكثير من التجربة

(١) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ١٣٢.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٦، ٦٧.

(٤) انظر كتاب شرح «عجائب القلب»، الاحياء ج ٣.

كما يتطلب معرفة عميقة وشاملة بالطبيعة الإنسانية. ولذا فمن المهم أهمية خاصة بالنسبة إلى الإنسان الذي يتطلع إلى مثل هذه المعرفة أن يدرس أسرار الشخصية الإنسانية وخفاياها وأن يتفهم تركيبها. وعليه أن يعرف ما تضمه هذه الشخصية من صفات وخصائص وميول ليستطيع عن طريق معرفته لها معرفة مواضع النبل فيها، ومعرفة مواضع العيب والدمار. وعليه أن يعرف ما هي الشهوات والنزعات التي قد تسيطر عليها وتملكها والدوافع التي تستطيع التأثير على اتجاهها، وكيف يمكن ضبط كافة هذه الشهوات والدوافع والرغبات وتطهيرها لتؤدي عملها بصورة سليمة»^(١).

(١) علي عيسى عثمان: الانسان عند الغزالي، ص ١١٥.

الفصل السادس

ميادين التربية عند الإمام الغزالي

- مقدمة
- التربية الروحية
- التربية العقلية
- التربية الأخلاقية
- التربية النفسية
- التربية الجسمية
- التربية الاجتماعية

— مقدمة:

إن السعادة التي يشدها الغزالي تقوم على أساس الفطرة المستمدة من تعاليم الإسلام ونظرته للإنسان وجبلته التي جبل عليها. ومعلوم أن الإسلام ينظر إلى الإنسان من جميع جوانبه الروحية والجسدية والمادية والمعنوية. ولذا فليس غريباً على عالم مسلم كالغزالي أن يحسب لكل جانب حسابه وأن يكون له موقف واضح ممن غالوا في الجري وراء السعادة البشرية في الكمالات الروحية على حساب الغرائز الجسدية. فهو يرى أن «هذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيئات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجيلة فلو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك... وليس المطلوب إمطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط»^(١).

وكذلك كان موقف الغزالي واضحاً ممن رموا أو سعوا لأن تكون سعادة الإنسان في المال أو اللذة والشهوة على حساب الجانب المعنوي. فهو يرى أن «أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فيها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار»^(٢) وأن البطن في نظره «ينبوع الشهوات ومنبت

(١) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٧.

الأدواء والآفات»^(١) وتتبع شهوة البطن «شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه وأمال الذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعمات، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات...»^(٢).

وبهنا يبين الغزالي خطر الإخلال بالرغبات الفطرية عند الإنسان لما لذلك من تأثير على السعادة الإنسانية التي ترتبط ارتباطاً معتدلاً بكل من الجانب الروحي والمادي عند الإنسان. وبناء عليه فلقد جهد لنفسه أن تجمع رسالته التربوية بين تأديب النفس وتقوية الجسم وتصفية الروح وثقيف العقل بحيث تعنى بكافة مجالات التربية: العقلية والأخلاقية والروحية والنفسية والجسمية والاجتماعية دون التضحية بأي منها على حساب الآخر.

ولبلوغ الهدف الأسمى الذي رسمه الغزالي وهو السعادة والقرب من الله تعالى كان لا بد من الارتقاء لمستوى الكمال الإنساني من خلال بناء الشخصية الإسلامية المتميزة من كافة جوانبها المادية والمعنوية. والغزالي يقوم بذلك إيماناً منه بأن التربية الإسلامية قد أعطت لتربية الروح والنفس القدر نفسه من الاهتمام الذي أولته لتربية العقل والجسم. لذا فالتربية عند الغزالي تعكس توجهاته وقناعاته بأهمية تفتيح شخصية الفرد وتنمية جوانبها المختلفة في الاتجاه المرغوب فيه للمجتمع الإسلامي لأن «من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة... ومن صرف همهته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم»^(٣).

– التربية الروحية:

ونسبة هذه التربية إلى الروح بالمعنى الذي أشار إليه الغزالي بقوله «هو

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ١٠ - ١١.

اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان... وهو الذي أراده الله تعالى بقوله ﴿قُلِ
الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(١) وهو أمر عجيب تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك
حقيقته»^(٢)

«والإسلام يعنى عناية خاصة بالروح - إنها في نظره مركز الكيان البشري
ونقطة ارتكازه. إنها القاعدة التي يستند إليها الكيان كله ويترابط عن طريقها. إنها
المهيمن الأكبر على حياة الإنسان. إنها الموجه إلى النور. يكفي أنها صلة
الإنسان بالله»^(٣). وإذا كانت طاقة الجسم أو العقل محدودة فإن «طاقة الروح -
وحدها - في كيان الإنسان هي التي لا تعرف الحدود والقيود، لا تعرف الزمان
والمكان. لا تعرف البدء والنهاية. لا تعرف الفناء... هي وحدها تملك الاتصال
بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل. هي وحدها التي تملك الاتصال بالخلود
الأبدي والوجود الأزلي... تملك الاتصال بالله. كما أنها هي التي تملك
الاتصال بالوجود كله من وراء حواجز الزمان والمكان»^(٤).

والتربية الروحية تجهد في تنمية وتثبيت الوازع الديني والعقيدة الدينية إلى
جانب ممارسة الفضائل والشعائر الدينية بعيداً عن التصلب والجمود والاتكالية مع
مراعاة التكامل بين الأديان على أساس العمل الصالح والإخلاص وأداء الواجب
والإنتاج المثمر وإنكار الذات.

ويرى الغزالي أن «أشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله. فيه
كمال الإنسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال»^(٥)
ولذلك ليس غريباً أن تنصدر التربية الروحية اهتماماته في سعيه لبناء الشخصية
الإسلامية المتكاملة من خلال تكريس منهج الإسلام في التربية حيث أن «طريقة

(١) سورة الاسراء، الآية: ٨٥.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٥.

(٣) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج ١، ص ٤١.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ١٠.

الإسلام في تربية الروح هي أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله في كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور»^(١). ومعلوم «أن التكوين الروحي للإنسان قد ميز الإنسان بدوافع معينة كان لزاماً على التربية الاهتمام بها وتعميقها وتوجيهها في مسارها الصحيح فتزعة التدين نزعة فطرية في الإنسان»^(٢).

يقول تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) وهذا ما أدركه الغزالي واعتبره ميزة شرف وفضيلة للإنسان: «أما بعد: فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه، التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره وفي الآخرة عدته وذخره»^(٤).

لذا فإن «الروح الإنسانية تدرك بفطرتها وجود الله وتؤمن بوحدانيته ولكنها لا تخلص في عبادته وتسبيحه إلا عندما تتحرر من شهوات الجسم وضغوط رغبات النفس والهوى»^(٥).

فالقلب الذي هو بمعنى الروح في هذا المقام «هو العالم بالله وهو المتقرب إلى الله وهو العامل لله وهو الساعي إلى الله وهو المكاشف بما عند الله ولديه... فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله. وهو الذي إذا جهله الإنسان قد جهل نفسه وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل... ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصده لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه فهو ممن قال الله تعالى فيه^(٦) ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٧).

-
- (١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ص ٤٢.
(٢) عباس محجوب: أصول الفكر التربوي في الإسلام، ص ١٨٣.
(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٤) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٣.
(٥) امينة احمد حسن: نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ص ٣٥١.
(٦) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٣.
(٧) سورة الحشر، الآية ١٩.

ويعكس كلام الغزالي أهمية التربية الروحية وأثر ذلك في بناء الشخصية الإسلامية القادرة على تحديد أهدافها من خلال عبادة الله تعالى والإيمان بعقيدة التوحيد خاصة وأن «عقيدة الأنبياء واحدة وأنهم جميعاً يدعون إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل ما يغيره ذاتاً و صفاتاً وأفعالاً»^(١). وبهذا ومن خلاله يمكن للإنسان المسلم أن يتجنب القلق والصراع الذي يعيشه غيره من بني البشر الذين عجزوا عن تحذيد أهدافهم والتعرف على بارئهم عبر مسيرتهم في هذه الحياة.

فالتربية الروحية عند الغزالي تقوم على مبدئين:

المبدأ الأول هو الإيمان بالله واليوم الآخر لأنه من أهم القوى المؤثرة في حياة الفرد والمجتمع «وهذا الإيمان وحده ينبعث عنه أكمل الصفات الإنسانية والاجتماعية من الإيثار والتضحية والحب والرحمة وإسداء الجميل والتعاون على البر والتقوى واحتمال مشاق الجهاد والبذل في سبيل الحق والخير وإقرار المثل العليا في أرض الله»^(٢).

ولقد شكل الإيمان بالله واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره السبب الحقيقي لانتصار أسلافنا المسلمين على أعدائهم... ولم تكن تلك الفتوحات الإسلامية المذهلة معجزة من المعجزات ولا خارقة من خوارق العادات، وإنما كانت نوع من سنن الله الكونية التي جعلها في متناول الناس وفي طوقهم وقدرتهم. إنها نتيجة طبيعية لاستنجاد الأمة بربها ومن نجدة ربها لها أنه نتيجة لسلوك هذه الأمة التي آمنت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً وقائداً وزعيماً إنه نتيجة لذلك الإيمان الذي خالطت بشاشته القلوب «وبهذه العقيدة الصادقة انتصروا وتعلموا وصنعوا واخترعوا وأثروا التاريخ. ونقطة البدء في كل حضارة هي العقيدة، هي القيم الموجهة للجماهير، هي الأفكار التي توجد سلوك قيادتها»^(٣).

(١) رؤوف شلبي: «دروس من الاسراء والمعراج»، مجلة الأزهر، السنة التاسعة والاربعون الجزء

الخامس، رجب ١٣٩٧ هـ - يوليو ١٩٧٧م، القاهرة، ص ٨٨٧.

(٢) عمر عودة الخطيب: المسألة الاجتماعية بين الاسلام والنظم البشرية ص ٢٠٤.

(٣) محمد جلال كشك: الطريق الى مجتمع عصري، ص ١٤ - ٢٠.

ولهذه الأسباب وغيرها يصّر الإمام الغزالي في رسالته التربوية على العقيدة ووجوب تعليمها فيقول «اعلم أن أول ما ذكرناه في ترجمة العقيد ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوه ليحفظه حفظاً ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً. فابتدأه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان»^(١).

أما المبدأ الثاني للتربية الروحية فيقوم على الالتزام بآداب الإسلام وأداء فرائضه والتمسك بأحكامه لأن الإسلام نظام شامل لكافة مجالات الحياة. ولقد شرع الإسلام نظاماً وفرائض تعاون على تثبيت العقيدة وتركيزها في حال توفرت التربية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله لذلك على المتعلم أن «يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه. ويشتغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم... فيكون أول التلقين كالقاء بذر في الصدر وتكون هذه الأسباب كالسقي والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة اصلها ثابت وفرعها في السماء»^(٢).

— التربية العقلية:

يشير الغزالي إلى أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته بحيث أنه يطلق على معان مختلفة مما تسبب باختلافهم «والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل إسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان»^(٣) والمعنى المتعلق بموضوع البحث هو الأول، ولقد عرّفه الغزالي على أنه «الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية. وهو الذي

(١) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ١١٣.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠١.

أرادَه الحارث بن أسد المحاسبِي حيث قال في حد العقل: إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء. ولم ينصف من أنكر هذا^(١).

وللعقل شرف ومكانة في الإسلام «ولقد سماه الله نورا»^(٢) لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾^(٣) «وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا»^(٤) لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾^(٦). «وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل»^(٧) لقوله تعالى ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٨).

والمتتبع نظرية المعرفة عند الغزالي يرى أنه لم يستقر على موقف ثابت من العقل فلقد «كان قصده من نظرية المعرفة الحد من قيمة العقل الذي كانت تعتد به تلك المذاهب - أي المذاهب الفلسفية المنافية للدين - في سبيل الحاقه بالشرع في بعض مجالات التفكير المعينة»^(٩).

وتوصل الغزالي بعد شكه إلى اليقين بعد أن من الله عليه بنوره وفي ذلك يقول «حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية... فاعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال. لا بحكم النطق والمقال

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٩٩.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٦) سورة الانعام، الآية: ١٢٢.

(٧) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٩٩.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٩) تيسير شيخ الارض: «نظرية المعرفة عند الغزالي»، ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، ص ٥٩٥.

حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض... ورجعت الضرورات العقلية مقبولة، موثوقا بها، على أمن ويقين. ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل نور قذفه الله تعالى في الصدر. وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف... فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف، وذلك ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين»^(١).

«وعلى هذا النحو يرينا الغزالي أن العقل بنفسه قليل الغناء ولا بد له من مدد من الله لكي يستعيد ثقته بنفسه. إن مبدأ عدم التناقض. وهو الركيزة الأولى في بنية العقل يمكن أن يشك فيه ما لم ينبجس نور من الجود الإلهي، ليدعمه من جديد»^(٢).

والغزالي بذلك إنما يسعى إلى تحديد مجال النظر العقلي حتى يحول دون تيه الطاقة العقلية في الغيبيات التي لا سبيل للعقل البشري أن يحكم فيها. مستلهماً ذلك من القرآن الكريم الذي «يبدأ بتفريغ العقل من كل المقررات السابقة التي لم تقم على يقين وإنما قامت على مجرد التقليد أو الظن فينعي على المقلدين الذين يقولون ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾^(٣) ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِمْ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٤) وينعي على الذين يتبعون الظن: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾^(٥) ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾^(٦). ثم هو يأمر بالثبوت من كل أمر قبل الاعتقاد به واقتفائه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٧) وهي مسؤولية

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ٨٦، ٨٧.

(٢) تيسير شيخ الارض: «نظرية المعرفة عند الغزالي» ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، ص ٥٩٥.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

(٥) سورة النجم، الآية: ٢٣.

(٦) سورة النجم، الآية: ٢٨.

(٧) سورة الاسراء، الآية: ٣٦.

ضخمة، يبرز التعبير ضخامتها بإفراد السمع والبصر والفؤاد في مبدأ الأمر ليكون كل منها مسؤولاً على حدة، ثم جمعها كلها بعد ذلك، وإشراكها كلها في المسؤولية، بهذا الجمع والتوكيد: «كل اولئك». وذلك كله ليحس الإنسان بعظم التبعة. وهو يقدم على الأمر، فلا يأخذ الأمور باستخفاف، ولا يأخذها بلا تثبيت وهو عنها مسؤول»^(١).

ويستلهم الغزالي منهجه في التربية العقلية من القرآن الكريم عبر الدعوة الدائمة إلى إعمال العقل في النظر في ملكوت الله في السموات والأرض والإنسان. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَّأُ الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَاً وَقَضًا (٢٨) وَزَيْتُونًا تَحَلًّا (٢٩) وَحَدَاقٍ غَلًّا (٣٠) وَفَكَهًى وَابًّا (٣١) مَنَعًا لَّكُزٍّ وَلِأَنْعَمِكُزْ (٣٢) ﴿٢﴾. ويقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ (٣).

فانسجماً مع هذا النهج القرآني وضع الإمام الغزالي كتاب «الحكمة في مخلوقات الله عز وجل» ليكون أداة تربوية فاعلة تقوم على التفكير في خلق الله بهدف توجيه العقل البشري إلى ما يجب أن يتجه إليه من إيمان بالله خالق الكون بالحق. ويستهل الغزالي كتابه قائلاً «الحمد لله الذي جعل نعمته في رياض جنان المقربين وخص بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين وجعل التفكير في مصنوعاته وسيلة لرسوخ اليقين في قلوب عباده المستبصرين، استدلوا عليه سبحانه بصنوعته فعلموه وتحققوا أن لا إله إلا هو فوحده وشاهدوا عظمته وجلاله فنزهوه. فهو القيم بالقسط في جميع الأحوال وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال»^(٤).

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج ١، ص ٧٧، ٧٨.

(٢) سورة عبس، الآيات: ٣٢-٢٤.

(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١٩١، ١٩٠.

(٤) الغزالي: الحكمة في مخلوقات الله عز وجل، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ١، ص ٣.

فالغزالي على يقين من أن دراسة الحيوان والجماد والنبات ومعرفة أسرارها يؤدي حتما إلى معرفة الله تعالى ورسوخ اليقين لذلك فهو يعاود التأكيد على هذه الحقيقة في موقع آخر فيقول: «إنه لما كان الطريق إلى معرفة الله سبحانه والتعظيم له في مخلوقاته والتفكر في عجائب مصنوعاته، وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته. وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين، وفيه تفاوت درجات المتقين، وضعت هذا الكتاب منبهاً لعقول أرباب الألباب بتعريف وجوه من الحكم والنعم التي يشير إليها معظم آي الكتاب. فإن الله تعالى خلق العقول وكمل هداها بالوحي وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته والتفكر والاعتبار مما أودعه من العجائب في مصنوعاته»^(١) بحيث يؤدي ذلك إلى غاية عملية في حياة الإنسان تبدأ بالتسبيح الذي يشكل مدخلاً إلى «الإيمان الكامل الذي يشمل الحياة كلها والأعمال والمشاعر والأفكار»^(٢) يقول تعالى:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتَلُوا لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تُدْخِلْنَهُمْ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) ﴿٣﴾

وتعكس الآيات السابقة وجهاً من وجوه التربية العقلية في الإسلام وذلك من خلال توجيه العقل لتدبر آيات الله في الكون حيث تبدأ هذه العملية «بالتفكر وتنتهي بالعمل... العمل بمقتضى الدستور «الحق» الذي نزل به القرآن...

(١) المرجع السابق، ص ٤.

(٢) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج ١، ص ٨٣.

(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥.

والجهاد في سبيل إقرار هذا الدستور وتسيير دفة الحياة على نهجه وشريعته . ثم تصل إلى الغاية القصوى . تصل إلى الجزاء في الآخرة ، فتصل الأرض بالسماء ، والدنيا بالآخرة . وتصل البشر بالله وحين يقيس الإنسان هذا اللون من التوجيه للطاقة العقلية في تدبر حكمة الله وتدبيره ، بالفلسفة قديمها وحديثها والمعاظلات الذهنية المنبثة في تضاعيفها ، يدرك في الحال عظم الفرق وعظمة المنهج الإلهي في تربية العقل البشري . ويعلم أنه سبحانه خلق كل شيء بالحق . وجعله منهجاً لإقامة الحق في الحياة»^(١) تصديقاً لقوله تعالى : ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) . وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) «إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلالات الواضحات التي يفهمها متدبرها ، والمتلقي في اختلاف معانيها يعظم المعرفة بالله سبحانه التي هي سبب السعادة والفوز بما وعد به عباده»^(٤) .

وإذا كان عقل غير المسلمين من أوروبيين وسواهم قد شطح وهو يبحث آيات الكون المختلفة لدرجة وصلت لحد إنكار الله تعالى . نجد أن علماء المسلمين قد تجنبوا مثل هذا الشطح وهم يتأملون في عجائب خلق الله تعالى . فيوم كانت أوروية تسبح في بحر من الظلمات كان الغزالي يفكر بعقله المستضيء بنور الإيمان بالله في جو من إشراق الروح حيث التدبر في مخلوقات الله جزء من العقيدة الإسلامية التي تحت قوى الإنسان الواعية على القيام بمهامها بعيداً عن الشطح أو الجنوح . يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾^(٥) .

(١) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، ج ١ ، ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) سورة يونس ، الآية : ١٠١ .

(٣) سورة الانبياء ، الآية : ٣٠ .

(٤) الغزالي : الحكمة في مخلوقات الله عز وجل ، مجموعة رسائل الامام الغزالي ، ج ١ ، ص ٤ .

(٥) سورة آل عمران ، الآيتان : ١٩٠ ، ١٩١ .

فالتفكر الذي يدعو إليه الإسلام تفكيراً هادفاً يؤدي إلى معرفة خالق الكون .
ولذلك فإن الإمام الغزالي يرى في القرآن الكريم المرجع الرئيس الدال على
الحقيقة لأنه «ليس بعد بيان الله سبحانه بيان»^(١) والتربية العقلية في نظره تقوم
على ربط العلم بالعمل وهذا ما أكد عليه في أكثر من موقع سواء في «الاحياء» أو
«ميزان العمل» .

— التربية الجسمية:

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾^(٢) ويقول:
﴿فَإِذَا سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَجِدِينَ﴾^(٣) فالتسوية في نظر
الغزالي هي «عبارة عن فعل في المحل القابل للروح وهو الطين في حق آدم
والنطفة في حق أولاده»^(٤) . ويشير الغزالي إلى أن الله تعالى يخبر في الآية عن
ثلاثة أمور هي الجسم والروح والنفس^(٥) . فالذات الإنسانية تتشكل من الجسم
والروح والنفس إلا أنها أعم وأشمل من أي منها فيما لو ذكرت منفردة .

يقول محمد قطب «حين نتحدث عن الجسم في مجال التربية فليس
المقصود هو عضلاته وحواسه ووشائجه فحسب . وإنما نقصد كذلك الطاقة
الحيوية المنبثقة من الجسم ، والمتمثلة في مشاعر النفس . طاقة الدوافع الفطرية
والتزوعات والإنفعالات . . . طاقة الحياة الحسية على أوسع نطاق»^(٦) .

ويؤكد الغزالي على كون الإنسان نظام . وعلى مكوناته أن تقوم بواجبها
حتى يجنب نفسه مالا تحمده عقابه فيقول: «إعلم أن البدن كالمدينة والعقل - أعني
المدرّك - من الإنسان كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة

(١) الغزالي، الاحياء، ج ١، ص ١٢٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٩.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

(٤) الغزالي: روضة الطالبين وعمدة السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ٢، ص ٤٦.

(٥) انظر البحث نظرية الغزالي العقدية.

(٦) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ص ١٠٤.

والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيته. والنفس الأمارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته، فصار بدنه كرباط وثغر ونفسه كمقيم فيه مرابط فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمده أثره... وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة: يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير، اليوم أنتقم منك^(١).

ويشكل الجسد «الأداة التي عن طريقها تترجم الذات الإنسانية الأعمال وتبتدى أهمية ذلك جيداً إذا عرفنا أن النشاط الإنساني في عمومته عبادة ما دامت لوجه الله تعالى»^(٢) لذا فإن القرآن الكريم يوصي بالعناية بالجسم والإهتمام به يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٣). ﴿وَلَا تَنسَ نَفْسِيكَ مِنْكَ الدُّنْيَا﴾^(٤). وعن عبدالله بن عمر أنه قال: «دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلت بلى قال: فلا تفعل، قم ونم وصم وافطر فإن لجسمك عليك حقاً وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً وإنك عسى أن يطول بك عمر وإن من حسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام فإن بكل حسنة عشر أمثالها فذلك الدهر كله»^(٥).

«وليس يمكن العبد أن يصل إلى سبحانه ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا... فالبदन مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك»^(٦).

وفي هذا دعوة صريحة للغزالي للعناية بالتربية الجسدية انسجاماً مع فطرة

(١) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٨.

(٢) علي خليل ابو العيين: فلسفة التربية في القرآن الكريم، ص ١٦٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٩.

(٤) سورة القصص، الآية: ٧٧.

(٥) رواه البخاري في كتاب الادب حديث رقم ٨٦.

(٦) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦، ٧.

الإنسان في حدود طاقته وواقع حياته المادي. وتقوم هذه التربية على ضرورة احترام كل طاقة من طاقات الجسم لطالما تقوم بالمهمة التي فطرت عليها. يقول الغزالي: «إن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب. فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار. وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه والإستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه»^(١).

فالغزالي يسعى كي ينمي الجسم تنمية تسهم إسهاماً فاعلاً في بناء الشخصية الإسلامية المتميزة المتكاملة المتوازنة المقرة بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) والمدرسة «أن الأظعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل... وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى»^(٣). ومن خلال ذلك يستطيع الإنسان المسلم أن يرتقي بطاقاته كلها ويوفرها لأداء رسالته في هذه الحياة ويعمل دائماً على حفظها من الهبوط والإنطلاق في ملذات الحياة^(٤).

ويعتمد الغزالي في عملية رعاية الجسد على تعاليم الإسلام ولذا فإنه يستقي من هذه التعاليم منهجه في التربية الجسدية. ولقد كان الرسول الكريم القدوة في ذلك حيث يقول صلى الله عليه وسلم «إن لجسمك عليك حقاً»^(٥). فالحديث الشريف يؤكد على ضرورة مراعاة حقوق الجسم بحيث تعتبر الرعاية الصحيحة وممارسة الرياضة ومزاولة العمل وتوفير الغذاء من أبرز مجالاتها الحيوية.

(١) المرجع السابق، ص ٦٨.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٧٩.

(٤) علي القاضي: «منهج التربية الإسلامية»، صحيفة التربية، العدد الثالث، السنة ٢٩ القاهرة يونيه ١٩٧٧ م. ص ٥٩.

(٥) رواه البخاري في كتاب الصوم حديث رقم ٥٥.

* مجال الرعاية الصحية:

تعتبر «النظافة إحدى العناصر المهمة في تكوين الحياة الصحية وازدهارها وجعلها بمأمن من التلوث بالأمراض السارية والأوبئة الفتاكة وقد تبناها الإسلام - بصورة إيجابية - ورتب عليها بعض أحكامه وواجباته، ومنح الله تعالى وسام حبه لمن يتصف بها»^(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٢) وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مفتاح الصلاة الطهور»^(٣). وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾^(٤).

ويرى الغزالي أن للطهارة أربع مراتب:

«المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والردائل الممقوتة.

المرتبة الرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين. والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها»^(٥).

ويشير الغزالي إلى أن «الإشتغال بالطهارات يجدد ذكر الله تعالى وذكر العبادات فلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف»^(٦).

وما يعنينا الآن هو المرتبة الأولى أي نظافة الظاهر وما لذلك من أثر على صحة البدن. ويقصر الغزالي هذه النظافة على ثلاثة أقسام:

«طهارة عن الخبث، وطهارة عن الحدث وطهارة عن فضلات البدن»^(٧).

(١) باقر شريف القرشي: النظام التربوي في الإسلام، ص ٣٠٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٣) رواه الترمذي في باب الطهارة حديث رقم ٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٥) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٥٠.

(٦) المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٧) المرجع السابق، ص ١٥٣.

ويظهر الغزالي في كتاب أسرار الطهارة - وهو الكتاب الثالث من ربيع العادات - مدى اهتمام الإسلام بالنظافة من خلال التشريعات الخاصة بالغسل والوضوء والإستنجاء ونظافة الثياب والحلق وتقليم الأظافر^(١).

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا﴾^(٢) إشارة إلى فرض الإغتسال عقب الإتصال الجنسي لما لذلك من فوائد تتعلق بإعادة الحيوية والنشاط بعد انتهاء عملية الجماع وكذلك بعد أن تطهر المرأة من دم الحيض. فالغسل يعيد لها حيويتها ويخلصها من القذارة والأوساخ، التي قد تكون سببا لكثير من الأمراض فيما لو تركت على حالها.

كما وأن للوضوء الذي يتكرر خمس مرات يوميا فوائد جمة على صعيد تنشيط أعضاء الجسم المختلفة ووقاية الجلد من الإصابة بالأمراض الجلدية وكذلك إبعاد الجراثيم عن العين ومجري الأنف. إضافة إلى وقاية الجوف من الجراثيم التي قد تدخل عن طريق الفم أو تلوث اليدين. فالوضوء من أهم الأنشطة الوقائية لجسم الإنسان حيث أنه يحول دون إصابته بكثير من الأمراض الخطيرة.

أما السواك يعود شجر الأراك فهو مستحب عند كل صلاة وعند كل وضوء، ويقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»^(٣) ولقد ثبت في وقتنا الحالي ما لهذا النبات من فائدة لما يحتويه من مواد عطرية وأملاح معدنية علاوة على ذلك فإن نظافة الأسنان تجنب الإنسان أمراض التسوس وغيرها من الأمراض الناجمة عن بقايا الطعام بين الأسنان. قال صلى الله عليه وسلم «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»^(٤).

وفي الإستنجاء الذي شرعه الإسلام لنظافة مخرج البدن أو الغائط غسلا

(١) المرجع السابق، كتاب اسرار الطهارة ص ١٥٠ وما بعدها.

(٢) سورة المائدة الآية: ٦.

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الطهارة حديث رقم ٧.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجمعة حديث رقم ٨.

بالماء أو مسحاً بما يقلع النجاسة بالغ الأثر في نظافة الجسم والوقاية من الأوساخ والجراثيم التي يحملها كل من البول والغائط.

وطهارة الثوب التي تعتبر شرطاً من شروط صحة الصلاة لها بالغ الأثر على الصحة، إضافة إلى أنها توفر الوقاية من بعض الأمراض.

ويتحدث الغزالي بإسهاب وتفصيل في موضوع النظافة وأثر ذلك على الصحة والفرائض المترتبة على الإنسان في كتاب «أسرار الطهارة» وهو الكتاب الثالث من ربيع العبادات^(١). ففي الطهارة وقاية للجسم من كثير من الأمراض التي قد يتسببها الإهمال في النظافة ابتداءً من الرأس وإنهاءً بأخمص القدمين. وبرنامج الغزالي في النظافة قائم على الطهارة الشرعية وفي ذلك دلالة كبيرة على مدى اهتمامه بالتربية الصحية والجسمية ولقد جهد في إظهار ذلك من خلال ما جاء في كتاب «أسرار الطهارة».

* ممارسة الرياضة:

اعتنى الإسلام بالتربية الرياضية لما لها من فوائد على صعيد التربية الجسمية. ومن أنواع الرياضة التي شرعها الإسلام السبق والرماية والصيد. وفي كل ذلك تنشيط للعضلات وتقوية للجسم وتنمية للإرادة والإعتماد على النفس.

وضمن هذا الإطار، وتطلعاً لتوفير مستوى لائق من الصحة النفسية للطفل يرى الغزالي ضرورة إفساح المجال له باللعب فيقول: «وينبغي أن يؤذن له بعد الإنصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يسترىح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يمت قلبه ويبطل ذكائه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً»^(٢).

وتستلزم هذه التربية الجسدية القائمة على القوة والإعداد لمواجهة مصاعب

(١) الغزالي: الاحياء ج ١، ص ١٤٩.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٧٩.

الحياة «أن ينشأ الشباب على الرجولة والخشونة لا على الميوعة والدعة»^(١) يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إياكم والتنعيم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين»^(٢).

وفي رياضة الصبي وتأديبه يقول الغزالي: «وينبغي أن يمنع من النوم نهائياً فإنه يورث الكسل، ولا يمنع منه ليلاً ولكن يمنع الفرش الوطينة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر على التنعم بل يعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم... ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل... وبالجمله يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما»^(٣).

«وليس معنى هذا تحريم الزينة على المسلم فقد أباح الإسلام... الزينة التي لا تجعله متسبها بالكفار أو التي تستعبده وتسترقه وقد حرم الإسلام أموراً واضحة كلبس الذهب والحريير للرجال وإطالة اللباس خيلاء أو التشبه بأبناء الكافرين، ولبس الرجال ملابس النساء والعكس. أما الثياب الجيدة الممتازة ففي لبسها إظهار لنعمة الله على العبد»^(٤).

في هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(٥).

* توفير الغذاء:

إن التغذية في الإسلام تقوم على نظام يعتمد الاعتدال في الطعام بعيداً عن الإسراف يقول الله تعالى: ﴿يَبْنَىْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٦). فالآية الكريمة توصي بعدم

(١) عباس محجوب: اصول الفكر التربوي في الاسلام، ص ١٩٧.

(٢) رواه احمد في المسند ج ٥، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٧٩.

(٤) عباس محجوب: اصول الفكر التربوي في الاسلام، ص ١٩٨.

(٥) رواه الترمذي وقال حديث حسن، رياض الصالحين، ص ٢٧٥.

(٦) سورة الاعراف، الآية: ٣١.

الإفراط في الأكل منعاً لإلحاق الأذى بالجسم كما وأنها تضع قاعدة صحية للمسلمين كي يتبعوها تقوم على ضرورة الاعتدال بالأكل . ولا يخفى على أحد ما للإسراف في الأكل من مضاعفات خطيرة قد تؤدي بصاحبها إلى الهلاك .

ويرى الغزالي أن «أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن»^(١) . ويورد في سياق حديثه عن فوائد الجوع وآفات الشبع عدداً من الفوائد يمكن الرجوع إليها في كتاب «كسر الشهوتين»^(٢) . بناء على ذلك فإن الغزالي يحث على تأديب الصبي للتخلص من آفة الشره : «وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه . . وأن لا يسرع في الأكل وأن يجيد المضغ»^(٣) فألى جانب آفة الشره يسعى الغزالي لتجنب الطفل مخاطر عدم مضغ الطعام لما يترتب على ذلك من أمراض قد تصيب الجهاز الهضمي ، مما يلحق الضرر بصحة أطفال المسلمين ويعيقهم عن القيام بالرسالة التي خلقوا لأجلها .

* مزاولة العمل :

يقول تعالى : ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّرِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِرُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وأن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»^(٥) .

ومعلوم أنه ما لم يتمتع الجسم بمستوى لائق من الصحة لن يكون بمقدور الإنسان المسلم أن يقوم بواجباته تجاه ربه وبيته ومجتمعه . فالعمل ضرورة حتمية لاستمرار الحياة . وتختلف وجهة نظر الإسلام في العمل عن وجهة نظر غيره من الأديان حيث أن «العمل في النظرية الدينية المسيحية تكفير عن الخطيئة أما في

(١) الغزالي : الاحياء ج ٣ ، ص ٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ١٠٥ .

(٥) رواه البخاري في كتاب البيع حديث رقم ١٥ .

الدين الإسلامي فالعمل لا يقصد به عقاب، إنما هو تعمیر للدنيا فالإنسان خليفة الله في الأرض وبالععمل تعمّر الأرض ويسعد الإنسان^(١).

وانسجاماً مع نظرة الإسلام للعمل وأهميته في الحياة يحث الغزالي تلميذه على العمل ويخاطبه قائلاً: «أيها الولد: لا تكن من الأعمال مفلساً ولا من الأحوال خالئاً، وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد. مثاله: لو كان على رجل في برية عشرة أسياف هندية، مع أسلحة أخرى وكان الرجل شجاعاً وأهل حرب، فحمل عليه أسد عظيم مهيب فما ظنك: هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟ ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها، ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل^(٢).

وإذا كان الجسم ضعيفاً عليلًا لن يكون بمقدور الفرد المسلم أن يقوم بواجباته والتزاماته تجاه دينه ودنياه، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإنه من حق الجسد على صاحبه «الاعتدال في العمل فلا أجهاد ولا بطالة»^(٣). «وعلى التربية دور هام في إتاحة الفرصة للإنسان أن يتعرف على قدراته الخاصة وعلى طبيعة مجتمعه وعليها دور توجيه وإذكاء وتكريس الجهود للأعمال التي تناسب قدرات الإنسان»^(٤) استجابة لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(٥). وفي مطلق الأحوال لا بد من توفر الصحة الجسمية حتى يقوم الإنسان بواجباته. فلو أنك «قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعداً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل»^(٦) لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٧).

(١) صلاح عبد الجواد: اتجاهات جديدة في التربية الصناعية، ج ١، ص ٦٩.

(٢) الغزالي: أيها الولد، ص ٩٧، ٩٨.

(٣) محمد علم الدين: التربية الإسلامية، ص ١٦.

(٤) عد الجواد السيد بكر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، ص ٢٦٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٦) الغزالي: أيها الولد ص ٩٩.

(٧) سورة النجم، الآية: ٣٩.

– التربية النفسية:

اتهم الغزالي بتقليده الفلاسفة اليونانيين ومن تبعهم من علماء المسلمين في النظرة إلى النفس. والحقيقة أنه لم يكن مقلداً قط، وإنما حاول الاستفادة من آراء من سبقوه بما يتفق وعقيدته ويدعم آرائه. لذلك ليس غريباً أن يتقاطع مع الفلاسفة اليونان في عدد من النقاط كالتقاءه مع أفلاطون في موضوع خلود النفس وصلتها بالجسم، وموافقته لأرسطو في وحدة النفس على الرغم من معارضة أفلاطون لذلك.

ولقد سبق الحديث عن ألفاظ النفس والعقل والروح^(١) ورأينا كيف أنه يستعمل هذه الألفاظ أحياناً وكأنها مترادفات وأحياناً أخرى يميز بين لفظ وآخر.

فهو يرى أن النفس «إذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة... وإذا لم يتم سكونها صارت مدافعة للنفس الشهوانية سميت النفس اللوامة، فإذا تركت الاعتراض وأذعنت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء»^(٢).

وليُعمر الإنسان الأرض وتحقق له الخلافة ويتمكن من إقامة موازين العدل لا بد وأن يكبح جماح شهواته كي لا تستعبده وتجرفه إلى حيث لا يملك لنفسه نفعاً ويحقيق به غضب الله.

ويدعو الإسلام لضبط النفس وتهذيبها بعيداً عن كبتها وقمعها لأنها طاقة يحتاج إليها الإنسان. لذا يخطيء من يعتقد «إن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبله فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك»^(٣). «وليس المطلوب إمالة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال

(١) انظر البحث نظرة الغزالي العقديّة.

(٢) الغزالي: روضة الطالبين وعمدة السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ٢، ص ٤١.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦٢.

الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط»^(١) وإلا لما قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾^(٢) ولقال: «والفاقدين الغيظ»^(٣) فكظم الغيظ الذي دعا إليه الله تعالى رد للغضب والشهوة «إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه»^(٤). ويشير الغزالي إلى أن الرياضة تؤدي إلى الوسط وتعود بالشهوة «إلى حد الاعتدال»^(٥) وهو المطلوب لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٦). «وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود»^(٧). لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٨).

«وذلك هو منهج الإسلام في تربية النفس إنه لا يكبت رغائبها فيقتل حيويتها ويبدد طاقتها ويشتت كيائها فلا تعمل ولا تنتج ولا تصلح لعمارة الأرض وترقية الحياة. وفي الوقت ذاته لا يطلق رغائبها بلا ضوابط... ووسيلته إلى ذلك... هي الضبط. إنه يعمل على تربية القوة الضابطة وتنميتها منذ نعومة الأظافر»^(٩).

ومن الضوابط التي تسهم في تعويد النفس على القيام بالأعمال في أوقاتها ومواعيدها العبادات كالصوم والصلاة ولذلك لا يتساهل الغزالي في أي منها في حال بلغ الصبي سن التمييز^(١٠).

ويعتبر الغزالي أن «رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدّها»^(١١). ويرى أن

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٣) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ٦٢.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

(٧) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ٦٢.

(٨) سورة الاعراف، الآية: ٣١.

(٩) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج ١، ص ١١٩.

(١٠) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ٧٩.

(١١) المرجع السابق، ص ٧٨.

معرفة طبيعة النفس البشرية والقوى الغريزية التابعة لها يساعد على تحديد نوع الرياضة المناسبة في علاج الآفات المختلفة للنفس وذلك لأن «الجبيلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول»^(١) إضافة إلى أن منها ما هو أقدم وجوداً من الآخر «فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان ولكن أصعبها أمراً وأعصاها على التغيير قوة الشهوة فإنها أقدم وجوداً»^(٢). لذلك فإن «طريق المجاهدة والرياضة لكل لأنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله»^(٣).

ويعتبر الحفز من المرتكزات الهامة للتربية النفسية عند الغزالي ففي حال «ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس»^(٤).

أما بخصوص التوجيه فيجب أن يتم في جو مريح وبشكل متدرج بعيد عن القسوة في المعاملة فإن أساء «الصبي في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكشف»^(٥) وإذا «عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا. . . ولا تكثر القول عليه بالعتاب»^(٦). فالغزالي في معالجته لهذه المسألة يبرهن عن خبرة واسعة ودراية عميقة في مجال علم النفس التربوي الذي يعتبر رائداً من رواده.

ولم يغفل الغزالي عن مراعاة الفروق الفردية في مجال التربية النفسية عند المتعلمين إذ يرى «إن كل مبرد لا يصلح لعله سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص. . . فكذلك النقائص التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار. وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف

(١) المرجع السابق، ص ٦١.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٨.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

أن العلة من حرارة أو برودة. فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهى ضعيفة أم قوية؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم عالج»^(١).

ويستوحى الغزالي موقفه هذا من قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٢) وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «حدثوا الناس بما يعرفون اتحبون أن يكذب الله ورسوله»^(٣).

فمن خلال ما سبق وما سيليه يمكننا القول بأن الغزالي «قد تمكن... من دراسة الظاهرة النفسية وتحليلها واستقراء أعمالها وجوارحها وبذلك غلبت عليه الدراسة التجريبية أكثر من الدراسة النظرية العقلية ولقد وضح ذلك في طرقه التي استخدمها في الكشف عن مقومات الظاهرة النفسية والتي يمكن إجمالها على النحو التالي:

أ - طريقة التأمل الباطني.

ب - طريقة الملاحظة.

ج - «طريقة التحليل النفسي»^(٤).

وينبه الغزالي إلى أن «من استولت عليه النفس صار أسيراً في حب شهواتها، محصوراً في سجن هواها مقهوراً مغلولاً زمامه في يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد»^(٥).

وبما أن النفس إحدى قوى الإنسان فإن التربية الإسلامية تتعامل معها على هذا الأساس حتى تمكن الإنسان من أن يكون عبداً صالحاً، لأن العبودية هي

(١) المرجع السابق، ص ٦٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم، حديث رقم ٤٩.

(٤) لطفي بركات أحمد: في مجالات الفكر التربوي، ص ٤٣، ٤٤.

(٥) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ٧١، ٧٢.

جوهر الإنسانية، وهذا ما يؤمن به الغزالي إيماناً واجباً حيث يرى «أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات»^(١) ويعمل على تحقيق ذلك بهدي الكتاب والسنة من خلال إنشاء قوة داخلية تساعد على ضبط كافة النزعات والشهوات وتنمية الصفات الفاضلة والنزعات الشريفة لتكون عاملاً مساعداً في بناء الشخصية الإسلامية المتكاملة والمتماسكة والمتوازنة التي تعبد الله كأنها تراه.

ويقرب الغزالي القضايا النفسية إلى إفهام الناس عن طريق الانتقال بهم وبها من اللامحسوس إلى المحسوس. وهو في ذلك إنما يسعى للحصول على أعلى درجة من التأثير على نفوسهم وعقولهم كي يتمكن من إقناعهم بفكرته التي تهدف للتغلب على نزعات النفس الشريرة عن طريق إقامة بناء من الفضيلة المستمدة من نور الإسلام. فالإنسان في نظره «من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم. ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره. ومن حيث أنه في نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾»^(٢) فإنه يدعي لنفسه الربوبية ويحب الإستيلاء والإستعلاء والتخصص والإستبداد بالأمور كلها والتفرد بالرئاسة»^(٣). إضافة إلى أنه «يشتهي الإطلاع على العلوم كلها بل يدعي لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور... ومن حيث يختص عن البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريراً يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ويظهر الشر في معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين»^(٤) ويتوصل الغزالي إلى القول بأن «المجموع في إهاب الإنسان خنزير وكلب

(١) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ٧١، ٧٢.

(٢) سورة الاسراء، الآية: ٨٥.

(٣) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ١٢.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

وشيطان وحكيم»^(١) في إشارة واضحة إلى أن الخنزير هو الشهوة والكلب هو الغضب، والشيطان هو المهيج لشهوة الخنزير وغيظ الكلب والحكيم الذي هو مثال العقل يعمل على دفع كيد الشيطان والكشف عن تليسه.

ويكشف الغزالي عن النتائج الخطيرة المترتبة على انقياد العقل لأهواء الشيطان وأثر ذلك على نفس الإنسان فيقول: «أما طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها. وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاعة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها»^(٢). ويعتبر الغزالي أن طاعة الشيطان تكون «بطاعة الشهوة والغضب»^(٣) حيث يحصل من جراء ذلك «صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجرأة والتليس والتضريب والغش والخبث والخنا وأمثالها»^(٤).

وفي حال رجحت كفة الاعتدال نتيجة عملية الضبط وتهذيب النفس وتم «قهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية: لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه، والإستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولا تنتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانسياق وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها»^(٥) كما ويترتب على «ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة، وضبط النفس والصبر والحلم الاحتمال والعفو والثبات

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

والنبل والشهامة والوقار وغيرها»^(١).

ويثبت الغزالي من خلال الأفكار التي طرحها أهمية التربية النفسية في بناء شخصية الإنسان المسلم على أساس أنه وحدة مترابطة لا سبيل لحل أجزائها. وهو بذلك إنما يعكس وجهة نظر الإسلام في الإنسان.

وخلاصة القول إن التربية النفسية عند الإمام الغزالي تقوم على قاعدة تفسير مظاهر سلوك الإنسان بأربعة دوافع أساسية هي: شهوة الطعام والجنس، والمال والجاه وأساس هذه الدوافع كلها غريزة الطعام التي يسميها الغزالي شهوة البطن وفيها يقول: «والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات، ومنبت الأدوية والآفات، إذ يتبعها شهوة المرأة وشدة الشبق، ثم تتبع شهوة الطعام والمرأة شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع في الشهوة الجنسية والمطعمومات. ثم يستتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى افتحام البغي والمنكر والفحشاء. وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد عنها من بطر الشيع والامتلاء. ولو ذلل العبد نفسه بالجوع، وضيق به مجاري الشيطان، لأذعنت لطاعة الله عز وجل...»^(٢).

ـ التربية الأخلاقية:

لقد اهتم الإسلام بالأخلاق واعتبرها أساساً ومنطلقاً للدعوة وما قوله تعالى بحق الرسول الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣) إلا تأكيد على هذا الاهتمام. وللرسول صلى الله عليه وسلم العديد من الأحاديث التي تؤكد على حسن الخلق في الوقت الذي شكلت فيه سيرة الرسول الكريم قدوة لكافة المسلمين حيث كان «خلق القرآن».

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٧.

(٣) سورة القلم، الآية: ٤.

فالإسلام دعوة تقوم على مكارم الأخلاق. ولقد أولى الإسلام التربية الخلقية بالغ الأهمية على صعيد كل من الفرد والمجتمع. ويشير الإمام الغزالي في كتابه (جواهر القرآن) إلى أن ما يقرب من ربع آيات القرآن الكريم تتعلق بالأخلاق ليس غير. ولقد قام الإمام الغزالي بتصنيف هذه الآيات على قاعدة الأخلاق النظرية والعملية بحيث اشتمل القسم الأول على ٧٦٣ آية بينما اشتمل القسم الثاني على ٧٤١ آية قرآنية وبذلك يصبح مجموع آيات كلا القسمين ١٥٠٤ آية تمثل في مجموعها ربع آيات القرآن الكريم.

ويرى علماء التربية المسلمين بأن «الفضيلة هي الصفة الجامعة للخصائص التي يجب أن يتميز بها الإنسان في الفكر والسلوك معا»^(١) مما يجعل الأخلاق جوهر العملية التربوية. وهذا ما يقر به علماء التربية من غير المسلمين من أمثال جون لوك، وجون ديوي الذي يقول «إن عملية التربية والعملية الأخلاقية شيء واحد ما دامت الثانية لا تخرج عن أنها انتقال الخبرة باستمرار من أمر سيء إلى أحسن منه وأفضل»^(٢) ويشير ديوي في موقع آخر إلى «أن النمو الأخلاقي هو الغاية القصوى من العمل المدرسي كله»^(٣).

فالخلقية الإسلامية مستمدة من القرآن الكريم الذي غطت مبادئه الأخلاقية كافة الأنشطة المتعلقة بحياة الإنسان على كافة الصعد الدينية والفردية والأسرية والاجتماعية والدولية. ولقد حدد القرآن مسؤولية الفرد في الالتزام بهذه الأخلاق وهو ما يبدو واضحاً من خلال ما جاء في كتاب (الاحياء).

ومجال الأخلاق في الإسلام هو «مجال الحياة كلها لأن الأخلاق إذا كانت نمطاً للعمل والسلوك في الحياة فإن عمل الإنسان لمساعدة الآخرين أخلاق، وعمله لكسب قوته وقوت من يعوله أخلاق»^(٤) لذلك فإن الأخلاق في الإسلام

(١) هشام نشابه: التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات، ص ٥.

(٢) جون ديوي: تجديد في الفلسفة، ص ٢٩٩.

(٣) جون ديوي: المبادئ الأخلاقية في التربية، ص ٥٤.

(٤) مقداد يالجن: منهاج الدعوة الى الإسلام في العصر الحديث، ص ٣٧.

تهدف إلى «الرضا الإلهي والقياس الخلقي الذي توزن به جميع الأعمال، إنما هو مقدار ما يحصل بها من هذا الهدف المقدس»^(١) وذلك لأن حسن الخلق هو أساس الإسلام. قال ابن عباس «ولكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق»^(٢). وقيل أيضاً «ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق»^(٣).

«والعبادات التي شرعت في الإسلام واعتبرت أركاناً في الإيمان به ليست طقوساً مبهمة من النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة... فالفرائض... تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل متمسكاً بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف»^(٤) «فالإبتعاد عن الرذائل والتطهير من سوء القول وسوء العمل هو حقيقة الصلاة»^(٥) لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٦). كما وأن «تنظيف النفس من أدران النقص والتسامي في المجتمع إلى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى»^(٧) من الزكاة لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(٨) وكذلك لم ينظر الإسلام للصوم على أنه مجرد امتناع عن الطعام والشراب، وتأكيداً لهذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس له حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»^(٩).

يتضح مما سبق أن العبادات وإن كانت متباينة في مظهرها إلا أنها تلتقي في

(١) باقر الصدر: فلسفتنا، ص ٤٥.

(٢) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ٥٧.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) محمد الغزالي: خلق المسلم، ص ٧.

(٥) المرجع السابق، ص ٨.

(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٧) محمد الغزالي: خلق المسلم، ص ٨.

(٨) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٩) رواه البخاري في كتاب العلم، حديث رقم ٣٠.

جوهرها عند الهدف الذي حدده الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١).

والغزالي إنما يستجيب لتعليمات الإسلام وتوجيهات القرآن الكريم عندما «جعل الأخلاق رسالته العليا وربط الأخلاق بالدين رباطاً لا انفصام له، بل جعل الأخلاق هي روح الدين والغاية منه وأضفى على العبادات، أصولها وفروعها ألواناً خلقية تحببها إلى النفوس وتعطرها في القلوب وتملأ الحس خشوعاً وإيماناً وجلالاً.

فلمصلاة آدابها التي هي الروح والهدف، وللصيام برنامج الخلق الذي لا يستقيم بدونه وللنفس والقلب ولكل جارحة من الجوارح وخاطرة من الخواطر صفة خلقية، ودعوة إلى تطهير وتركيز، حتى همسات القلب وسوانح الفكر يقيد بها الغزالي وينظمها ويضع لها دستور الكمال.

وتساير أخلاقيات الغزالي الإنسان في مأكله ومشربه ومناحه وحله وترحاله وتلازمه في تصرفاته مع الأصدقاء والأهل والزوج والولد والمجتمع.

فالأخلاق عند الغزالي شريعة كاملة للحياة بأسرها، شريعة لها مثلها العليا وأهدافها السامية المرتفعة إلى السماء، ثم هي أيضاً تعيش معنا على الأرض متصلة اتصالاً وثيقاً بكل حركة من حركات الروح والقلب والعقل والبدن»^(٢).

ولا يقتصر حسن الخلق عند الغزالي على مجرد الفعل وذلك لأن الصورة الظاهرة (الخُلُق) قد لا تعبّر عن الصورة الباطنة (الخُلُق) «فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء»^(٣).

لذا فإن الغزالي يقرر بأن الخُلُق هو «الصورة الباطنة»^(٤) أي أنه «عبارة عن

(١) حديث صحيح رواه أحمد والبيهقي والحاكم.

(٢) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ٨٤، ٨٥.

(٣) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ٨٥.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

هيئة النفس وصورتها الباطنة»^(١).

وفي معرض رده على الذين اشتغلوا بالمجاهدة والرياضة والإنشغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق بحجة أن الأخلاق لا يمكن تغييرها يقول الغزالي «لولا كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحسن خلقك للناس»^(٢) وكيف ينكر في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي عن الاستيحاش إلى الأنس والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية والفرس من الجماع إلى السلاسة والإنقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق»^(٣).

من هنا تبرز أهمية التربية الخلقية في نظر الغزالي لما لها من تأثير في بناء شخصية الفرد المسلم. وهي عنده تقوم على أسس من أهمها:

أ - مراعاة الفروق الفردية «لأن الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم. بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته»^(٤).

ب - التدرج في عملية التهذيب لأنه كما يقول الغزالي «لو كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه كالذي يغسل الدم بالبول ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم»^(٥).

ج - الوفاء بالعزم لأنه يعتبر أن «الأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فإذا عزم على ترك شهوة... فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت»^(٦).

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) رواه مالك في الموطأ، كتاب حسن الخلق حديث رقم ١.

(٣) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ٦٠، ٦١.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٦.

(٥) المرجع السابق، ص ٦٧.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

ومعيار حسن الخلق في نظر الغزالي هو الإيمان وأما سوء الخلق فمعياره النفاق. ويعتمد في تحديد هذين المعيارين على ما جاء في القرآن الكريم من آيات تشير إلى ذلك^(١). ومن علامات حسن الخلق حسب الغزالي أن يكون المسلم «كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان قليل الكلام كثير العمل، قليل الزلل قليل الفضول برأ وصولاً وقدوراً صبوراً شكوراً رضيعاً حليماً رقيقاً عفيفاً شفيقاً في الله يرضى في الله ويغضب في الله فهذا هو حسن الخلق»^(٢).

وبهذا التوجه يكون الغزالي قد أوضح الأسس التي يجب أن تقوم عليها التربية الخلقية في عملية بناء الشخصية الإسلامية المتميزة التي لا بد وأن يزيل صاحبها «جميع العادات السيئة التي عرف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيجتنبها كما يجتنب المستقذرات وأن يتعود العادات الحسنة يشاق إليها فيؤثرها ويتنعم بها»^(٣). وفي مثل هذا يقول صلى الله عليه وسلم «جعلت قرّة عيني في الصلاة»^(٤).

وحاصل القول إن حسن الخلق لا يتأتى إلا من خلال أحد طريقين:

الأول مرده إلى «جود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق... كعيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين»^(٥).

أما السبيل الثاني لحسن الخلق إنما يتأتى عن طريق «اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب»^(٦).

(١) المرجع السابق، ص ٧٤، ٧٥.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) الغزالي: ميزان العمل، ص ٥٠.

(٤) رواه النسائي في كتاب النساء، حديث رقم ١.

(٥) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦٣.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

والتربية الخلقية عند الغزالي تنبع من نظرة الغزالي «إلى الحياة الدنيا باعتبارها وسيلة لا غاية وعبادة لله لا للدرهم والدينار والتغالب والتفاخر والتنابد بالألقاب»^(١) فلقد «كتب الغزالي أخلاقياته للمجتمع على أسس دينية وطاعات روحية وقلبية»^(٢) ذلك لأن الأخلاق في الإسلام إنما تستمد سماتها المميزة من صفات الله تعالى انطلاقاً من «الاعتقاد بأن الله مصدر كل شيء»^(٣) ومعلوم «أن الإسلام يقرن المثل الأعلى في كل فضيلة بالصفات الإلهية - ولله المثل الأعلى» - وكل صفة من صفات الله الحسنى محفوظة في القرآن الكريم يترسمها المسلم ليلبغ فيها غاية المستطاع في طاقة المخلوق»^(٤).

فمن الطبيعي إذن أن يرى الغزالي في حسن الخلق «درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصادقون»^(٥). ولبلوغ هذه الرتبة كان لا بد من «التربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم»^(٦) والغزالي بذلك يجمع بين اتجاهين متميزين في النظرة إلى الأخلاق. الأول هو الاتجاه الروحي الخاص بالمتصوفين، أما الثاني فهو الاتجاه العقلي الذي يتزعمه المعتزلة ومن سبقوهم ممن ساروا على خطى أرسطو وأصحابه وبهذا يكون الغزالي قد أوجد اتجاهاً روحياً وعقلياً يجمع بين الاتجاهين.

ـ التربية الاجتماعية:

إن اهتمام المجتمعات الإنسانية بالتربية يرجع للخدمات الجلى التي توفرها التربية لهذه المجتمعات لجهة مساعدتها على الإستمرار والتطور والبقاء.

ومعلوم أن لكل مجتمع قيمه وتقاليده وعاداته التي يصير على تعلمها من جيل لآخر. وتشكل التربية الوسيلة الرئيسة لنقل هذا التراث إلى الأجيال الصاعدة

(١) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ٨٧.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) أحمد أمين: كتاب الاخلاق، ص ١٣٦.

(٤) عباس محمود العقاد: حقائق الاسلام واباطيل خصومه، ص ٢٦٦.

(٥) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ٧٧.

(٦) المرجع السابق ص ٦٦.

من خلال اعداد وتشكيل النشء وفقاً للثقافة والسمات المميزة لهذا المجتمع .
ولقد «عرف اميل دوركايم E.Durkheim التربية بأنها التأثير الذي تمارسه الأجيال الأكبر سناً على تلك الأجيال التي ليست مؤهلة بعد للحياة الاجتماعية . وهي تستهدف تنمية القدرات الجسمية والعقلية الأخلاقية للطفل حتى يستطيع التكيف مع المجتمع الذي يعيش فيه»^(١) .

وعلاوة على ذلك فإن توجه أفراد المجتمع نحو القيام بالأعمال التي تتطلبها التغيرات والتطورات التي تلحق بالمجتمع بحيث تكسب النشء أنماطاً من السلوك تساعد على التكيف مع الأشياء التي دخلت مجتمعه ولا يقتصر عمل التربية على ذلك لأنها لا تكتفي بأن تكون تابعة للتغيرات الاجتماعية بل تلعب دوراً بارزاً في قيادة التطور الاجتماعي «والسعي لخلق حياة اجتماعية أفضل وذلك بتوجيه الأفراد نحو الأهداف والمثل التي يحققونها في مجتمعهم وإغنائهم بما يساعدهم على تحسين الأوضاع الاجتماعية»^(٢) .

وليس بمقدور التربية «أن تقوم بوظيفتها دون هذا التفاعل بين الذات الإنسانية والظروف الاجتماعية»^(٣) مما يؤكد حقيقة كون «التربية عملية اجتماعية بمعنى أنها تشتق أهدافها من أهداف المجتمع ، وتتأثر في تفصيلاتها بثقافة المجتمع ، وبضغط الحياة عليه ، ومن ثم تختلف التربية من مجتمع إلى مجتمع ، أو يجب أن تختلف . وفلسفة التربية في أي مجتمع لا يمكن فهمها بمعزل عن فلسفة المجتمع . والفلسفة سواء كانت فلسفة تربية أو فلسفة مجتمع إنما هي نظام فكري نشأ في بيئة اجتماعية معينة وتفاعل مع مشكلات هذه البيئة ثم حاول أن يرتفع فوق هذه المشكلات فكراً وتنظيماً محاولاً أن يوجد الحلول لهذه المشكلات»^(٤) .

(١) السيد محمد الحسيني : «المعنى الاجتماعي للتربية» مجلة التربية القطرية ، السنة السابعة ، العدد ٢٨ ، رمضان ١٣٩٨ هـ - اغسطس ١٩٧٨ م ، ص ٣٨ .

(٢) جوزيف عبود كبه ورفاقه : اسس التربية وعلم النفس ، ص ١٩ .

(٣) محمد ليب النجيجي : الاسس الاجتماعية للتربية ، ص ٥٢ .

(٤) عبد الغني عبود : «فلسفة التربية الاسلامية» مجلة التربية القطرية ، السنة الثامنة ، العدد ٣٥ ذو القعدة ١٣٩٩ هـ - اكتوبر ١٩٧٩ م ، ص ٧٥ .

إذا فالتربية تكتسب السمة الاجتماعية لأنها «لا يمكن أن تتم في فراغ ولا يمكن أن تعيش بمعزل عن مشكلات واحتياجات وتطلعات الأفراد والمجتمعات وإنها قوة اجتماعية هائلة قادرة دائماً على إحداث تغيرات بعيدة المدى في البناء الحضاري للمجتمع هذا فضلاً عن كونها قوة اقتصادية كبرى باعتبارها استثماراً لأعلى ما لدى الأمم من موارد ألا وهي ثروتها البشرية»^(١).

وعلى الرغم من القناعة السائدة بأن التربية «نظام اجتماعي ينبع من فلسفة كل أمة، وهو الذي يطبق هذه الفلسفة أو يبرزها إلى الوجود»^(٢) إلا أن هناك اختلافاً بين المربين تمحور حول «أمر التربية من حيث علاقتها بالمجتمع ومهمتها بإزائه. فقال فريق منهم: إن وظيفة التربية ليست سوى العمل على استقرار المجتمع وثبوت أوضاعه الراهنة والسعي لنقل تراثه الثقافي من جيل إلى جيل دون زيادة أو نقصان. وقال فريق آخر: ما هذه وظيفة التربية وإنما هي العمل على إصلاح المجتمع وتحسين أوضاعه الراهنة فلا ينبغي لها، والحالة هذه أن تقدم على نقل التراث الثقافي للناشئين حتى تزن لهم في ميزان النقد العلمي وتفتح أبصارهم وبصائرهم على ما يحمل في تضاعيفه من بذور الضعف والفساد، فتكون بذلك قد عملت على إصلاح شأن المجتمع»^(٣).

وعلى الرغم من الاختلاف في وجهات النظر، إلا أن التربية كانت ولا تزال تعنى بتعليم أفراد المجتمع من الجيل الجديد كيف يسكلون في المواقف الاجتماعية المختلفة على أساس ما يتوقعه منهم المجتمع الذي ينشأون فيه ومعنى هذا أن التربية تعنى بالسلوك الإنساني وتنميته وتطويره وتعبيره»^(٤).

وبما أن المجتمع الإسلامي له سماته الخاصة التي حددها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فليس غريباً أن يكون هذا المجتمع «هو النتيجة الحتمية

(١) إبراهيم عصمت مطاوع: التخطيط للتعليم العالي، ص ٢٧.

(٢) أحمد فؤاد الاهواني: التربية في الاسلام، ص ٧.

(٣) جورج شهلا ورفاقه: الوعي التربوي، ص ٤٣٨.

(٤) محمد ليبب النجيحي: الاسس الاجتماعية للتربية، ص ٩.

للإيمان والتعامل الجاد مع القرآن^(١). لذلك كان من أهم أهداف التربية الإسلامية تربية النشء وفقاً لمعايير المجتمع الإسلامي وقيمه. فعلى سبيل المثال من يرجع إلى سورة «النور الآية ٥٨ - ٥٩» يلحظ مدى اهتمام القرآن الكريم بتعويد الأطفال على العادات الاجتماعية النابعة من القيم التي يدعو إليها الإسلام.

ومن القيم التي تستند إليها التربية الاجتماعية في الإسلام:

١ - قيمة الإخاء لقوله صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٢).

٢ - قيمة التعاطف والتواد لقوله صلى الله عليه وسلم «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»^(٣).

قيمة المسؤولية الاجتماعية لقوله صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^(٤) ولقد استوحى العلماء المسلمون هذه القيم مما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف بحيث جاءت موجهة لعدد من الأهداف التي عملا على تحقيقها ومنها:

١ - تربية الإنسان المسلم على إقامة علاقات تنسم بروح المحبة والتعاون والتفاهم.

٢ - تربية الإنسان المسلم على الثقة بالنفس وتحمل المسؤولية الفردية باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من المسؤولية الجماعية.

٣ - تربية الإنسان المسلم على الالتزام بآداب العادات والمعاملات الإسلامية لما لذلك من أثر بالغ في تحقيق التربية الاجتماعية المتكاملة النابعة من القيم التي دعا إليها الإسلام.

(١) محمد شديد: قيم الحياة في القرآن الكريم، ص ٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان. حديث رقم ٧.

(٣) رواه البخاري في كتاب الادب حديث رقم ٢٧.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجمعة حديث رقم ١١.

ولقد سعى الغزالي إلى تحقيق هذه الأهداف من خلال ما تضمنته كتاباته في هذا المجال. فعلى الصعيد العلائقي تناول في الجزء الخاص بربع العادات من كتاب «الإحياء» موضوع الإلفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق حيث بين فضيلة الإلفة والأخوة بالإضافة إلى شروطها ودرجاتها وفوائدها. كما وأنه تطرق إلى بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها عن الأخوة في الدنيا، إضافة إلى بيان البغض في الله ومراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم. هذا إلى جانب تبيانهِ للصفات المشروطة فيمن تختار صحبته.

وفي الباب الثالث من الكتاب نفسه تحدث عن حقوق المسلم وحقوق الجوار وحقوق الأقارب والرحم وحقوق الوالدين والولد وحقوق المملوك^(١).

وفي كل ذلك كان الغزالي يعبر عن القيم الاجتماعية النابعة من روح الدين الإسلامي. ومما أورده في حقوق المسلم: «أن تسلم عليه إذا لقيته وتجيبه إذا دعاك وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات وتبر قسمه إذا أقسم عليك وتنصح له إذا استنصحك وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك»^(٢). وقال النعمان بن بشير: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٣) وروى أبو موسى عنه عليه السلام أنه قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(٤).

ولا يقتصر الرفق أو المعاملة الحسنة على المسلمين فحسب بل إن لأعداء المسلمين نصيب في ذلك وهذا ما يشير إليه الغزالي من خلال إirاده لما قالت عائشة رضي الله عنها: إن رهطاً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الغزالي: الإحياء، ج ٢، ص ١٧١ وما بعده.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، حديث رقم ٢٧.

(٤) رواه البخاري في كتاب المظالم، حديث رقم ٥.

وسلم فقالوا: السام عليك فقال النبي صلى الله عليه وسلم «عليكم» قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت بل عليكم السام واللعنة فقال عليه السلام: «يا عائشة إن الله يحب الرفق في كل شيء» قالت عائشة: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «فقد قلت عليكم»^(١). وفي ذات الاتجاه يقول تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾^(٢). وقال ابن عباس في معنى قوله ﴿وَيَذَرُونِ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيِّئَةُ﴾^(٣) «أي الفحش والأذى بالسلم والمدارة»^(٤).

أما فيما يتعلق بتحمل المسؤولية الفردية على أساس أنها جزء من المسؤولية تجاه المجتمع، يشير الغزالي في الباب الأول من كتاب «آداب الكسب والمعاش» إلى فضل الكسب الحلال والاعتماد على النفس انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾^(٥) وقوله صلى الله عليه وسلم «لأن يأخذ أحدكم حيلة فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله، أعطاه أو منعه»^(٦).

«وقال عمر رضي الله عنه لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وكان زيد بن مسلمة يغرس في أرضه فقال له عمر رضي الله عنه: استغن عن الناس يكن أصون لدينك وأكرم لك عليهم»^(٧).

وعلى صعيد السعي لتحقيق الهدف الثالث الخاص بتحلي الإنسان المسلم بالعادات والآداب الاجتماعية الإسلامية التي تكفل له تربية اجتماعية متكاملة. وضع الغزالي آداب خاصة بالعبادات وأخرى خاصة بالمعاملات واعتبر أن تربية

(١) رواه البخاري في كتاب الاستئابة حديث رقم ٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٢.

(٤) الغزالي: الاحياء ج ٢، ص ٢٢٦.

(٥) سورة الجمعة، الآية: ١٠.

(٦) رواه البخاري في كتاب الزكاة حديث رقم ٥٠.

(٧) الغزالي: الاحياء، ج ٢، ص ٧١.

الطفل على مثل هذه الآداب يسهم إسهاماً فاعلاً في بناء شخصيته المتميزة. ولن يتأتى له تكوين الاتجاهات الاجتماعية التي تجعله غيرا يهتم بمصلحة مجتمعه إلا من خلال إحاطته بجو من المحبة واعتبار الذات، إضافة إلى توفير ظروف اجتماعية تشعره بالارتياح والرضا إلى جانب تعويده محبة الآخرين وتقديرهم والتمتع بالبقاء والعمل معهم حيث يشكل ذلك مدخلاً مناسباً لبناء المجتمع الإسلامي المنشود هذا المجتمع الذي كان يعاني في أيام الغزالي من فساد لحق ببعض القادة وأتباعهم إلى جانب الجهل بالشرعية مما دفعه لرفع الصوت عالياً بالدعوة لتجديد الروح الإسلامي والآداب الإسلامية والأخلاق النبوية أملاً في بناء الشخصية الإسلامية المتميزة على صعيد الفرد والمجتمع. وذلك لأن المجتمع كما هو معلوم «يتألف من أفراد وعلى التربية أن تعنى بتربية الولد تربية اجتماعية صحية صحيحة كي يكون المجتمع صحيح البنية متين الأركان...»

وعليها أن تعمل على تنقية المحيط من كل ما يضر نفوس الأفراد وتخلق المؤثرات التي تغذي العقول وتقوم الأخلاق ويؤدي إلى التدريب على المشاركة في الحياة الاجتماعية مشاركة فعالة. وإن لم يكن المجتمع سليماً أضر كثيراً بالأفراد، ومن واجب التربية أن تصلح ما فسد من العقول والنفوس»^(١).

(١) علي ماضي: فلسفة في التربية والحرية، ص ١١٦.

الفصل السابع

المنهاج في ضوء الفكر التربوي عند الإمام الغزالي

— مقدمة

— مفهوم المنهاج

- المنهاج الموسع في ضوء التربية الغربية
- المنهاج الموسع في ضوء التربية الإسلامية

— أسس المنهاج عند الإمام الغزالي

— العلوم في ضوء المنهاج عند الغزالي

- العلم الذي هو فرض عين في منهاج الغزالي
- الفلسفة والكلام في ضوء منهاج الغزالي
- أسباب ذم الغزالي لبعض العلوم
- مراتب العلوم عند الغزالي
- العلوم التي اشتمل عليها منهاج التربية عند الغزالي

— مقدمة:

يعد المنهاج من أبرز وأهم مدخلات العملية التربوية. فهو يشكل جوهرها الذي بدونه لا يمكن أن تحصل المعرفة المنهجية، ولا يمكن بلوغ الأهداف المخطط لها، ذلك لأن المنهج يحدد على ضوء الأهداف المرسومة. «وفي الواقع إن الصلة بين الهدف والمنهج صلة وثيقة إلى درجة يصبح معها القول إن المنهاج ليس شيئاً آخر سوى الأهداف والقيم مكتوبة بشكل موسع وأن اتباع منهاج معين يؤدي بشكل أو بآخر إلى الأهداف المرتبطة به»^(١).

ولطالما أن المنهاج «يتصل اتصالاً وثيقاً بالأهداف التربوية، بل إن تحقيقها هو الغرض من وجوده، فليس مستغرباً أن يختلف المنهاج باختلاف الأهداف التي يحققها، وأن يتكيف وفقاً لها. وفي واقع الأمر إنه ليس في أساسه سوى تفصيل للأهداف التربوية ولا بد لوضعيه والحالة هذه من أن يعرفوا هذه الأهداف حق المعرفة وأن يقوها دائماً نصب أعينهم»^(٢).

فإذا كان الهدف من التربية ينحصر في جانب محدد من جوانب الشخصية كالجانب المعرفي مثلاً، يصبح المنهاج عبارة عن وعاء للمعلومات والمعارف النظرية التي يختارها المدرس ليملاً بها عقول تلاميذه عن طريق الإملاء والحفظ والتكرار. وبهذا ينحصر عمل المدرس في تلقين التلاميذ وحشو أذهانهم بأكبر

(١) علي ماضي: فلسفة في التربية والحرية، ص ١٧٦.

(٢) جورج شهبلا ورفاقه: الوعي التربوي، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

قدر ممكن من هذه المعلومات دون الأخذ بعين الاعتبار متطلبات الحياة أو قدرات التلاميذ وميولهم.

وفي حال كان الهدف من التربية هو بناء الشخصية المتكاملة والإعداد للحياة يكون المنهج وسيلة المجتمع إلى إحداث التغيير المطلوب في الشخصية بالاتجاه الذي يتلاءم ونظرة هذا المجتمع إلى الحياة.

وبمختلف الأحوال يبقى المنهج وسيلة التربية والتعليم وأداتها التنفيذية. وبسبب اختلاف نظرة المجتمعات إلى الحياة كان من الطبيعي أن تختلف المناهج تبعاً لاختلاف الأهداف التي تسعى لتحقيقها هذه المجتمعات.

– مفهوم المنهاج:

«المنهاج» - لغة - يعني «الطريق الواضح». ولفظة *ĪcurriculumĪ* اللاتينية التي تعتبر الأصل لما يماثلها من ألفاظ في اللغات الأوروبية - تعني «ميدان السباق». وبناء عليه كان أفضل ما يعرف به منهاج التعليم هو أنه الطريق الذي يسلكه المعلم والمتعلم أو المضممار الذي يجريان فيه لبلوغ أهداف التربية بمعنى أنهما في حال اتبعا هذا المنهاج كما يجب فإنهما يحققان تلك الأهداف لا محالة^(١).

والمتتبع لأنظمة التدريس التقليدية يلاحظ أن المناهج الخاصة بهذه الأنظمة تتمحور حول المعرفة النظرية التي جاءت على شكل مواد دراسية وضعت في قوالب جامدة عرفت بإسم «المقررات الدراسية» بحيث تقتصر مهمة المعلم على تلقينها للتلاميذ الذين يحرصون بدورهم على حفظها واستظهارها على أمل النجاح في الامتحانات التي تجري في نهاية العام الدراسي. وبهذا يكون المنهاج أداة لقياس الحفظ ومدى قدرة التلاميذ على التذكر.

ويعكس قصر مفهوم المنهاج على الحفظ والتذكر الهدف التقليدي للتربية الذي يركز على النمو العقلي للتلميذ من خلال تلقين المعلومات مما يتسبب

BrubacherĪModern Philosophies of EducationĪp.223.224. (١)

بإهمال الجوانب الأخرى لشخصية المتعلم: الجسمية والنفسية والروحية والاجتماعية لدرجة جعلت من النشاط الرياضي الذي يمارسه التلميذ خارج جدران الصف نشاطاً ثانوياً لا فائدة منه ولا صلة له بالمنهاج.

ولقد ترتب على المفهوم الضيق نتائج سلبية كان لها بالغ الأثر على شخصية التلميذ ودور كل من المعلم والمدرسة بحيث لم يتسن للتلميذ أن يكتسب شخصية ذات سمات اجتماعية في الوقت الذي اقتصر فيه دور المعلم على التحرك ضمن نطاق صارم ومحدود جداً. ونتيجة لذلك أصبحت المدرسة في معزل عن المجتمع لأنها لم تتطرق إلى المشكلات الاجتماعية مما جعلها عاجزة عن الإسهام في مساعدة التلميذ على التكيف الاجتماعي والتوافق مع ما يتعرض لهم من مشاكل واحداث.

ومع مرور الأيام والعصور أصبح المنهاج أكثر شمولاً نتيجة تطور أهداف التربية التي اتسعت لتشمل كافة جوانب شخصية المتعلم. فكان لا بد للمنهاج من أن يصبح أكثر عمومية ليجعل من التلميذ والمجتمع محورا للعملية التربوية بحيث «يراعي في اختيار المواد الناحية الخلقية، والناحية العملية، والناحية العقلية، والناحية الاجتماعية والوجدانية، ورغبة التلميذ وميوله، وحاجة الشعب والبيئة حتى نربي تربية كاملة من كل الوجوه»^(١). وبذلك أصبح المنهج «يعني مجموعة الخبرات الثقافية والاجتماعية والعملية والفنية التي تهيئها المدرسة لتلاميذها تحقيقاً للأهداف التربوية سواء أكان ذلك عن طريق المادة الدراسية أم الطريقة التي تتبع في تدريس هذه المادة، أم أوجه النشاط المختلفة التي يقوم بها التلميذ أم الاختبارات التي يضعها المدرسون ليعرفوا مدى نجاحهم في تحقيق الأغراض التي يسعون إليها»^(٢).

فللمنهج إذن ثلاثة مكونات رئيسية هي:

(١) محمد عطية الابراشي: الاتجاهات الحديثة في التربية، ص ٢٦١.

(٢) منير كامل: «نحو سياسة أفضل لبناء المنهاج»، صحيفة التربية، القاهرة، مايو ١٩٥٤، ص ٢٤.

١ - ما يدرس - أي المادة الدراسية .

٢ - كيف تجري الدراسة والتدريس . . . أي طريقة التعليم .

٣ - متى تقدم هذه المواد المختلفة أي نظام التعليم .

وبتعبير أكثر إيجازاً يمكننا القول أن المنهاج هو «جميع مظاهر النشاط والخبرات التي يندمج فيها التلاميذ تحت إشراف وتوجيه المدرسة بقصد الوصول إلى الأهداف المرسومة»^(١) .

* المنهاج الموسع في ضوء التربية الغربية :

ليس هناك من شك بفعالية دور المنهج بمفهومه الموسع في العملية التربوية غير أن هذا المنهج لم يستطع أن يصل بالغرب ومن لحق بركبه إلى المستوى المرجو في عملية بناء الإنسان والمجتمع على الرغم من الفرص والإمكانيات الهائلة التي رصدت لذلك . ومامن أحد يستطيع أن ينكر النجاح الذي حققه هذا المنهج على الصعيد المادي والسؤال هل استطاع هذا المنهج أن يحقق التوازن النفسي لكل من الفرد والأسرة والمجتمع؟ ويأتي الجواب على ذلك من خلال عمليات الانتحار التي يقدم عليها الشباب الأوروبي والتفكك الأسري الذي تعاني منه مجتمعاتهم، هذا إلى جانب الانحلال الخلقي الذي بات يشكل السمة المميزة لتلك المجتمعات .

وعلى صعيد العلاقة مع الشعوب الأخرى لم يتمكن المنهج عندهم من السيطرة على مشاعر التعالي والغرور، فضلاً عن إزدراء الآخرين والتسلط عليهم واقتراف شتى أنواع الإبادة بحق الشعوب المستضعفة بهدف استعمارها وسلب خيراتها .

كل ذلك يعكس مدى إخفاق المنهج على الصعيد الاجتماعي والإنساني

(١) محمد فايز سليم الالفي : «المنهج الدراسي في مراحله المختلفة»، مجلة التربية القطرية، العدد

٢١، جمادي الثانية ١٣٩٧ هـ مايو ١٩٧٧ م ص ٣٥.

على الرغم من التقدم المذهل في المجال المادي . وكان بناء الأبراج وإقامة المصانع وإطلاق الصواريخ أصبح أهم من بناء الإنسان والحفاظ على كرامته ، وإلا ما معنى هذه الممارسات؟ وما معنى دعوات التمييز العنصري التي تضع الإنسان في مصاف الحيوان في بلاد تنتحل لنفسها صفة الحفاظ على حقوق الإنسان وعدالة القانون؟ مما يؤكد على أن المؤسسات التربوية الغربية لم تصل إلى المستوى الذي يمكنها من الحفاظ على القيم الاجتماعية والإنسانية والدينية . ولذلك ليس غريباً أن يعاني المجتمع الغربي من حالة اضطراب وعدم توازن تعبر عن نفسها عبر الممارسات الشاذة على الصعيدين الداخلي والخارجي .

* المنهاج الموسع في ضوء التربية الإسلامية

هناك من يعتقد أن مفهوم المنهاج بالمعنى الموسع هو نتاج هذا العصر . إلا أن من ينظر بموضوعية وتجرد إلى منهاج التربية الإسلامية ودور المربي في تعليم هذا المنهاج ونشره ، يدرك خطأ مثل هذا الاعتقاد ، خاصة وأن منهاج الدراسة في التربية الإسلامية لم يكن محصوراً بالمادة الدراسية التي يطلب من المتعلمين حفظها .

فلقد كان المسجد «مدرسة المجتمع الإسلامي يلتقي فيه خاصة المسلمين وعامتهم ليتدارسوا مشاكلهم ويتغلبوا على الصعاب التي تواجههم في دروب الحياة العامة بالرأي والمشورة وتوظيف المنهج التربوي الذي شرعه الله لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة . ففي المسجد . . . يلتقي كل الناس ولا يُرد عنه قاصد . وهناك يجدون المعلم الذي يستنيرون بعلمه ويهتدون بهديه في كل ما يعن لهم ويريدون معرفته من شؤون . وما كان هذا المعلم - وبخاصة في الصدر الإسلامي الأول - ليعجز عن الهداية والإرشاد أو قل التربية والتعليم في أي من متطلبات الحياة الدنيا أو عوارض الإيام التي يعيشها المسلم وغير المسلم . وما سمعنا أن المنهج الإسلامي الشامل الكامل الذي كان هؤلاء المعلمون الأوائل يرجعون إليه في تعليمهم ويستوضحونه في تهذيبهم ، قد قصر في الإجابة عن سؤال سئل أو استفهام عرض مما كانت له صلة بالدين أو الدنيا .

ولقد كان المسلمون بهذا الأسلوب يتثقفون ويتهذبون ويتعلمون كل ما يحتاجون إليه في أمور عيشتهم. ومما علموه وفقهوه في المسجد كانوا يشاركون في بناء الحياة بخير ما علموا»^(١).

فالتربية الإسلامية لا ترضى من المسلم أن يكون حافظة للمعلومات وإنما تدعوه وتحثه على العمل بما يعلم يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾^(٢). ويقول صلى الله عليه وسلم: «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعلموا»^(٣). ويقول الغزالي: «فمن علم وعمل وعلم فهو الذي يدعى عظيماً في ملكوت السموات فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها وكالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب»^(٤).

فلا يليق بالمسلم أن يكون مستمعاً بل يجب أن يخطو بمعرفته ويستخدمها لتكون عملاً يعود بالنفع عليه وعلى المجتمع وبذلك يتجاوز كل المراحل الدونية إلى مقام أكرم حيث يندفع - نتيجة إيمانه وعمله - نحو الأفضل والأمثل. ولو عدنا إلى آيات القرآن الكريم التي تخاطب المؤمن لوجدنا كيف أنها افترضت سلفاً قدرته على العمل بهدي المنهج القويم الذي أقره رب العالمين لقوله تعالى في غير موقع: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

ومن الواضح أن الصالحات تشكل الأهداف المرجوة للتربية الإسلامية في كل زمان ومكان.

وللإحاطة بتصور يحدد إطار المنهاج الإسلامي يمكننا القول بأن «تصور المنهج في الإسلام قام على تحديده، ويقوم آيات القرآن الكريم ونصوص الحديث الشريف وأفعال الرسول الأمين، كما قام على تحديده، ويقوم «مبدأ

(١) حسين سليمان قورة: «مدرسة الحياة فكرة أصيلة في المنهج الإسلامي» مجلة التربية القطرية، العدد ٢٤ ذو الحجة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، ص ٦٨، ٦٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٣) رواه الدارمي في المقدمة، حديث رقم ٧.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٩.

الاجتماع والقياس» من الأئمة العلماء الأتقياء. ومبدأ أخير هو «مبدأ الإجهاد» حتى تظل أشكال التربية حية متطورة ضمن الإطار الإسلامي المتين^(١).

وفي العودة إلى مجالات التربية عند الإمام الغزالي فائدة في تعزيز وجهة النظر القائلة بشمولية المنهج الإسلامي وتكامله، هذا المنهج الذي يتحرك المسلم المؤمن وفقه وإضعا نُصب عينيه لقاء وجه ربه وهو راض عنه لذا فهو يسعى لبناء نفسه كفرد مسلم، وأسرته كأسرة مسلمة ومجتمعه كمجتمع مسلم، على قاعدة من العلم والإيمان بالله واليوم الآخر.

وعلينا أن ندرك أن منهاج الإسلام يقوم على العلم الذي أمر به القرآن الكريم حيث يمثل بدوره «جملة المعارف التي يدركها الإنسان بالنظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق من شيء»^(٢) وبتعبير آخر «العلم بمفهومه الشامل الذي ينتظم كل ما يتصل بالحياة، ولا يقتصر على علم الشريعة أو العلم الديني كما يتبادر إلى بعض الأذهان أو ما ذاع في عهود التخلف عن القرآن، فقد دعا إلى النظر في ظواهر الوجود ومظاهر الحياة، كما دعا إلى دراسة الكائن البشري ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١) ﴿وَوَجَّهَ إِلَى عِلْمِ النَّبَاتِ وَالْجَمَادِ وَالْحَيَوَانِ وَالْأَجْناسِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾ (٢٧) وَمِنْ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٢٨) وجعل من الكون كتابا للمعرفة ووجه القلوب والعقول والأبصار إلى بدائع صنع الله فيه ودعا إلى التفكير في آياته، واستكناه أسرارها وفهم نظمها ونواميسها، ففتح بهذا العرض والتوجيه باب العلم، وحرر العقول والتفكير من أسر الجمود والجهل وأغرى بالبحث والدراسة

(١) سليمان محمد الستاوي: «احاديث من المنهج»، مجلة التربية القطرية، السنة الثامنة، العدد ٣٤، رمضان ١٣٩٩هـ - ١٩٧٧م ص ٢٥.

(٢) عباس محمود العقاد: التفكير فريضة اسلامية، ص ٨٥.

(٣) سورة الذاريات، الآيتان: ٢٠، ٢١.

(٤) سورة فاطر، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

والعلم»^(١).

يتضح مما سبق أن التربية الإسلامية تلحظ ضرورة أن يشتمل المنهاج الدراسي في مراحله المختلفة على الجانبين الفكري والمادي دون تغليب أي منهما على الآخر. وذلك لأن «أول العلم النية ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر»^(٢). وبذلك يكون العلم وسيلة لسعادة الإنسان لطالما أن ثمرته العمل الصالح. وهكذا تبرز أهمية المعلم العامل بعلمه الذي لا يكذب قوله فعله لأن مثله كمثل الظل من العود ومن قال أن الظل استوى والعود أعوج.

– أسس المنهاج عند الإمام الغزالي:

استطاع المنهج الذي دعا إليه الإسلام أن ينتقل بالعالم من مرحلة التفكير النظري التي كرسها الفلسفة اليونانية إلى مرحلة الواقعية من خلال الربط بين الفكر والواقع الذي تعبر عنه آيات الله المنبثة في هذا الكون يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾^(٣).

«وجاء هذا المنهج الواقعي دعوة إلى عالم الحس والتجربة وإبعاد الفكر الإنساني عن منهج التجريد الذي لا يدعو إلى نظر، ولا يؤدي إلى كشف، ولا يحقق رسالة في الأرض ولا يعدو أن يكون رياضة ذهنية ليس بينه وبين واقع الحياة ومطالبها صلة، ولكن خدع بعض علماء المسلمين بمنهج التفكير اليوناني وحاولوا فهم القرآن على ضوء هذه الفلسفة فأنحرفوا عن نهج القرآن»^(٤).

فكان هذا حافزاً للإمام الغزالي للوقوف بوجه هذا التيار الفكري البعيد عن

(١) محمد شديد: منهج القرآن في التربية ص ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩.

(٢) القرطبي: جامع بيان العلم وفضله، ج ١، ص ١١٨.

(٣) سورة يونس، الآيات: ٦٥.

(٤) محمد شديد: منهج القرآن في التربية، ص ١٤٢، ١٤٣.

روح الإسلام^(١). واستطاع بعد جهاد طويل أن يتوصل إلى تبيان حقيقة العلم من خلال «إعطاء كل شيء حقه. والدليل على ذلك أنه لم يحاول مثل المتكلمين، إخضاع العقل ومدركاته لعقائد الدين، ولم يعمل كالفلاسفة على حصر الإيمان الديني في قوانين العقل وأحكامه ولم ينصرف كالصوفيين إلى ناحية الكشف، والنظر الباطني مهملاً إلى جانب ذلك العلوم العقلية والعبادات الدينية»^(٢). فالغزالي لم يتجاهل أو ينكر الحقائق العلمية سواء أكانت رياضية أم طبيعية، بل يقول «إن الحساب، والهندسة والفلك والطبيعات، علوم حقيقية لا شك في صحة براهينها وفائدة استنتاجاتها ولكن العلم محدد النطاق، فكما أنه لا يجوز بناء العلوم على الاعتقاد كذلك لا يجوز حصر الدين في أحكام العقل، وبراهين المنطق بل إن لكل من هاتين الناحيتين مصدراً خاصاً: العلم يستند إلى العقل، والدين ينبجس من القلب»^(٣).

ولذلك بنى الغزالي منهجه الدراسي بوحى من روح الإسلام وتعاليمه درءاً للضرر الذي قد يلحق بالفطرة التي فطر عليها الإنسان مستلهماً بذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة...»^(٤) والغزالي بذلك إنما يريد لنفسه ولغيره القرب من الله تعالى لأن «كمال الآدمي في قربه من الله تعالى وقربه بالصفات لا بالمكان وإنما يقرب بصفة العلم، فما دام علمه أكمل وأكثر فهو من الله أقرب وبملائكته أشبه»^(٥).

وبعد أن استطاع الغزالي من تحديد هدفه التربوي سعياً لبلوغ سعادة الدنيا والآخرة والقرب من الله تعالى كان لا بد من أن يحدد منهجه على ضوء هذا الهدف المتعدد الجوانب والاتجاهات لارتباطه بشخصية الإنسان من كافة جوانبها وبكل من الحياة الدنيا والآخرة وكما يقول الغزالي: «إن المنزل الأدنى لا بد من

(١) انظر البحث الغزالي وعصره.

(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال، القسم الدراسي، ص ١٦، ١٧.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجنائز، حديث رقم ٨٠، ٩٣.

(٥) الغزالي: فاتحة العلوم، ص ٥.

قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى^(١). ويقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢). لذلك كان لا بد للإنسان من «الزاد لسفره الذي لأجله خلق وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه»^(٣).

وبهذا يمكننا القول إن منهج الغزالي يقوم على عبادة الله وليس معنى هذا التخلي عن أمور الدنيا لأن العبادة في الإسلام «ليست قاصرة على مناسك التعبد... وإنما هي معنى أعمق من ذلك جداً... إنها العبودية لله وحده. والتلقي من الله وحده في أمر الدنيا والآخرة كله... ثم هي الصلة الدائمة بالله في هذا كله... والعبادة بهذا المعنى تشمل الحياة»^(٤).

– العلوم في ضوء المنهاج عند الإمام الغزالي:

على ضوء ما سبق يمكن القول بأنه ليس غريباً أن يعنى منهج الغزالي بعلوم الدنيا والدين وصناعاتها حيث تمكن من أن يضع لها معايير محددة لتكون أساساً للمقارنة فيما بينهما أو لتفضيل أي منها على الآخر وذلك انطلاقاً من الاعتبارات التالية:

١ - «إما بالإلتفات إلى الغريزة التي بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية على اللغوية: إذ تدرك الحكمة بالعقل واللغة بالسمع»^(٥) ومعلوم أن «العقل أشرف من السمع»^(٦).

٢ - «وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة»^(٧).

٣ - «وإما بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة: إذ محل أحدهما الذهب ومحل الآخر جلد الميتة»^(٨).

(١) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦.

(٤) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج ١، ص ٣٤.

(٥) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٢٤.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

وبناء على هذه المعطيات يقرر الغزالي أن العلوم الدينية أشرف العلوم لأنها تشمل على السمات الثلاث الأنفة الذكر وذلك لأنها «تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء والعقل أشرف وصفاته الإنسان... إذ به تقبل أمانة الله . وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه . وأما عموم النفع فلا يستراب فيه فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة . وأما شرف المحل فكيف يخفى ، والمعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم وأشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه»^(١) .

مما يعني أن الغزالي أقام منهجه على مبدأ الارتباط الكامل بالدين وتعاليمه وقيمه ساعياً لأن يتسم هذا المنهج بالشمول والتوازن وأن يأخذ بعين الاعتبار الفروق الفردية بين التلاميذ على ضوء استعداداتهم وقدراتهم . غير غافل عن مراعاة مبدأ التدرج والترابط بين مواد المنهج وأوجه نشاطه المتخلفة .

ولقد جاء منهج الغزالي ليعكس وجهة نظره في إلزامية التعليم انسجاماً مع قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(٢) . لذلك كان من الطبيعي أن يري في بعض العلوم فرض عين وفي بعضها الآخر فرض كفاية . ولقد عمل على تبيان كلا النوعين مشيراً إلى وجود اختلاف بين الناس حول العلم الذي هو فرض عين خاصة وأنهم تفرقوا لأكثر من عشرين فرقة . وترتب على ذلك «أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو بصدده فقال المتكلمون : هو علم الكلام ، إذ به يدرك التوحيد ويعلم بهق ذات الله سبحانه وصفاته . وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من العبادات وما يحل... وقال المفسرون والمحدثون هو علم الكتاب والسنة»^(٣) . وتعددت آراء المتصوفة في ذلك فقال بعضهم «هو علم الباطن... وقال أبو طالب المكي هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه .

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه .

(٣) رواه ابن ماجه في المقدمة حديث رقم ١٧ .

(٤) الغزالي : الاحياء ، ج ١ ، ص ٢٥ .

الإسلام»^(١) والمقصود بذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان»^(٢).

* العلم الذي هو فرض عين في منهاج الغزالي:

يرى الغزالي أن العلم الذي يعتبر فرض عين «معناه العلم بكيفية العمل الواجب فمن علم العمل الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين»^(٣). وتعلم هذا العلم لا يكون دفعة واحدة وإنما بالتدرج^(٤). ويعكس رأي الغزالي قناعته بأن «فروض العين» هي علوم الدين التي يجب على كل مسلم معرفتها سواء أكان ذلك فعلاً أم تركاً أم اعتقاداً.

* العلم الذي هو فرض كفاية في منهاج الغزالي:

يعتبر الغزالي أن فرض الكفاية هو كل «علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب، فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرهما وهذه العلوم التي لو خلا البلد عنمن يقوم بها حرج أهل البلد. وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين»^(٥).

وتنقسم علوم فرض الكفاية إلى قسمين شرعية وغير شرعية:

أ - العلوم الشرعية:

يقيد الغزالي هذه العلوم بما استفيد من معارف على أيدي الأنبياء صلوات الله عليهم. ويرى أن هذا العلم «لا يرشد العقل إليه مثل الحساب ولا التجربة مثل

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان حديث رقم ٢٠١.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٢٦.

(٤) المرجع السابق ص ٢٧.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

الطب، ولا السماع مثل اللغة»^(١). وإلى جانب ذلك فهو لا يتردد بأن يقرر أن جميع هذه العلوم محدودة وتنقسم إلى أربعة ضروب هي: ^(٢)

١ - الأصول: «وهي أربعة كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله عليه السلام وإجماع الأمة وآثار الصحابة»^(٣). وذلك لأن الصحابة أدركوا الوحي والتنزيل ولديهم من القوائن ما لم يتوافر لغيرهم وما لا تحيط بها العبادات.

٢ - الفروع: وهي على ضربين:

I - ما «يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء»^(٤).

II - ما «يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والذمومة وما هو مرض عند الله تعالى وما هو مكروه»^(٥).

٣ - المقدمات: «وهي التي تجري... مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع»^(٦) ومعلوم أن العربية هي لغة الشرع.

٤ - المتممات: وهي علوم على مستويين الأول ما له علاقة بالقرآن والثاني ما له علاقة بالأخبار والآثار. أما ما يتعلق بعلم القرآن «فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير... وأما المتممات في الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم والعلم بالغة في الرواة والعلم بأحوالهم... فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محدودة بل كلها من فروض الكفايات»^(٧).

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٨.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

ب - العلوم غير الشرعية:

قسم الغزالي هذه العلوم «إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح»^(١).

١ - العلوم المحمودة: وهي تلك العلوم المتفرعة عن فروض الكفايات التي سبق الحديث عنها. ومن العلوم المحمودة «ما يعد فضيلة لا فريضة» كالتعمق في «دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه»^(٢).

٢ - العلوم المباحة، فهي كالعلم «بالأشعار التي لا سخف فيها. وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه»^(٣).

٣ - العلوم المذمومة: فهي كعلم «السحر والطمسات وعلم الشعوذة والتليسات» إضافة إلى بعض فروع الفلسفة التي انفرد أصحابها «بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة»^(٤).

* الفلسفة والكلام في ضوء منهج الغزالي:

لم يورد الغزالي في أقسام العلوم «الكلام والفلسفة» لأنه يرى أن «حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع... وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل لمقالات... أكثرها ترهات وهذيانات تزديها الطباع وتمجها الأسماع وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ونبعت جماعة

(١) المرجع السابق ص ٢٧.

(٢) المرجع نفسه وإمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه وإمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه وإمكان نفسه.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٤.

لفقوا لها شبهاً ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة وذلك إلى حد محدود^(١).

وبالنسبة للفلسفة فلقد رأى الغزالي أنها ليست علماً برأسها. ولذلك لم يدرجها في منهجه على أساس أنها علم مستقل. في الوقت الذي لم ينكر فيه مكوناتها. وبهذا فإنه يركس موضوعية في التعاطي مع علوم عصره على الرغم من استيائه من بعضها انسجاماً مع عقيدته وأهدافه التي سعى لتحقيقها.

واعتبر الغزالي أن علوم الفلاسفة - حسب ما نقل ابن سينا والفارابي عن فلاسفة اليونان - تنحصر في ثلاثة أقسام:

١ - قسم يجب التكفير به.

٢ - وقسم يجب التبديع به.

٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلاً^(٢).

وبناء عليه فلقد قسم الغزالي الفلسفة إلى ستة علوم هي:

١ - الرياضة:

وهي التي «تعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم وليس يتعلق شيء منها بالأموال الدينية نفيًا وإثباتًا، بل هي أمور برهانية لا سبيل لمجادتها بعد فهمها ومعرفتها»^(٣). ويرى الغزالي أنها علوم مباحة لا يمنع عنها إلا من يخاف أو يخشى عليه أن يتجاوزها إلى علوم مذمومة خاصة وأن أكثر الممارسين لها قد خرجوا منها إلى البدع لذلك يسان الضعيف عنها - لا لعينها - تماماً «كما يسان صبي عن شاطئ النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر وكما يسان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار خوفاً عليه مع أن القوي لا يندب إلى مخالطتهم»^(٤).

(١) المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ٩٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٠.

٢ - المنطقيات:

وهي علوم «لايتعلق شيء منها بالدين نفيّاً أو اثباتاً»^(١) وتبحث «عن وجه الدليل وشروطه، ووجه الحد وشروطه»^(٢) «وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة، وإنما يفارقونهم بالعبارات والإصطلاحات وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات»^(٣) إلا أنه قد يقود بصاحبه إلى الكفر «قبل الإنتهاء إلى العلوم الإلهية»^(٤).

٣ - الطبيعيات:

وهي علوم يبحث بعضها عن «عالم السموات وكواكبها وما تحتها من الأجسام الفردة كالماء والهواء والتراب والنار وعن الأجسام المركبة كالحيوان»^(٥) إضافة إلى جسم الإنسان وأعضائه... وكما ليس من شرط الدين إنكسار علم الطب، فليس من شرطه إنكار ذلك العلم إلا في مسائل معينة»^(٦) «بعضها مخالف للشرع والدين والحق»^(٧) ولذلك «فهو جدل وليس بعلم»^(٨).

٤ - الإلهيات:

وهي علوم تبحث «عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته»^(٩) وتحتوي على أكثر مغالطات الفلاسفة^(١٠) «الذين انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة»^(١١) تماماً كما حصل للمعلمين وأهل البحث والنظر من المعتزلة الذين «انفردوا

(١) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٣٣.

(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٠٣.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٣٣.

(٤) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٠٤.

(٥) المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٨) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٣٤.

(٩) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(١٠) المرجع نفسه والمكان نفسه.

بمذاهب باطلة»^(١).

٥ - السياسيات

وهي العلوم التي يرجع فيها كلامهم «إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمر الدنيوية (والإيالة) السلطانية وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ومن الحكم الماثورة عن سلف الأنبياء»^(٢).

٦ - الخلقيات:

وهي العلوم التي يرجع كلامهم فيها إلى «حصر صفات النفس وأخلاقتها وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها وإنما أخذوها من كلام الصوفية»^(٣) إلا أنهم أي الفلاسفة «مزجوها بكلامهم توسلاً بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم... فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان، آفة في حق القابل وآفة في حق الرد»^(٤). فآفة الرد قد تؤدي بأصحابها إلى رد الكلام الحق فيما لو أسند إلى من ساء فيه اعتقادهم. «كالذي يسمع من النصراني قول: لا إله إلا الله، عيسى رسول الله، فينكره ويقول: هذا كلام النصارى»^(٥).

أما آفة القبول فقد تؤدي قبول باطلهم الممزوج بشيء من «الحكم النبوية والكلمات الصوفية»^(٦). التي قد تجد استحساناً عند أحدهم «فيسارع إلى قبول باطلهم... لحسن ظن حصل فيما رآه واستحسنه وذلك نوع استدراج إلى الباطل»^(٧). ولأجل هذا كله نهى الغزالي عن مطالعة كتب إخوان الصفا ودعا إلى

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٠٦.

(٢) الغزالي الإحياء، ج ١، ص ٣٤.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٠٩.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع السابق، ص ١١٠.

(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٨) المرجع السابق، ص ١١٤.

وجوب الزجر عن مطالعتها «لما فيها من الغدر والخطر. وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزلق الشطوط يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب»^(١).

فموقف الغزالي من الفلسفة وعلومها يدل على قوة في التحليل وصدق في البرهان وإجادة بعلوم زمانه انطلاقاً من قناعته بأن «العقل غير كاشف للغطاء عن جميع المعضلات»^(٢). ولقد نظر الغزالي إلى العلوم بميزان الدين حيث أنه كان يعيش مشكلة الإسلام في عصره. ولذلك جعل معياره في الحكم على هذه العلوم يستند إلى مدى النفع أو الضرر الذي قد يلحق بالإسلام والإنسان. فشكل هذا بدوره الميزان الذي اعتمده في رسم إطار منهجه التربوي. مما يساعد معرفة الأسباب التي حذت به لدم بعض العلوم.

* أسباب ذم الغزالي لبعض العلوم:

ليس العلم موضعاً للذم في عينه كما يرى الغزالي لكنه يذم لأحد هذه الأسباب:

١ - إذا كان «مؤدياً إلى ضرر إما لصاحبه أو لغيره، كما يذم علم السحر والطمسات وهو حق، إذ شهد القرآن له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين»^(٣). وبذلك حسب الغزالي يكون هذا العلم أداة شر وليس أداة خير.

٢ - إذا كان العلم «مضراً بصاحبه في غالب الأمر كعلم النجوم فإنه في نفسه غير مدموم لذاته إذ هو قسمان: قسم حسابي... والثاني الأحكام وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث لأسباب وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض... ولكن قد ذمه الشرع»^(٤) لأسباب ثلاثة:

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٥.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٤١.

أ - قد يكون وسيلة للشرك بالله نتيجة للإفتتان بالكواكب واعتبارها آلهة مما يجعل القلب متعلقاً بها وملتفتاً إليها اعتقاداً منه بأن «الخير والشر محذوراً أو مرجواً من جهتها»^(١) وبذلك «ينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب»^(٢).

ب - «إن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً، فالحكم به حكم بجهل. فيكون ذمه على هذا من حيث أنه علم»^(٣).

ج - «إنه لا فائدة فيه فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يغني وتضييع العمر... في غير فائدة وذلك غاية الخسران»^(٤).

٣ - إن «الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم»^(٥) مذموم في حق صاحبه «كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها، وخفيها قبل جليلها وكالبحث عن الأسرار الإلهية»^(٦). ويعكس كلام الغزالي هذا ضرورة التدرج في المنهج ومراعاة الفروق الفردية لأن العلم قد يكون «ضاراً لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى اللطيفة بالصبي الرضيع»^(٧). فالعلوم كالشجر - كما شبهها عيسى عليه السلام - «ما أكثر الشجر وليس كلها بمثمر وليس كلها بطيب وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع»^(٨).

يتضح مما سبق ومن أجل أن يأتي منهاجه منسجماً مع أهدافه ومساعداً على تحقيقها «قسم الغزالي العلوم المختلفة إلى مجموعات وأقسام وفروع خاصاً كل منها بصفات مختلفة، ومعطياً لها قيمة حسب أهميتها وفائدتها أو ضررها للمتعلم

(١) المرجع السابق، ص ٤٢.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٨) المرجع السابق، ص ٤٣.

ثم يتّين بعد ذلك العلوم التي يجب أن يزود بها المتعلم ليبلغ الغاية التي رسمها . . . كما يتّين أيضاً العلوم التي يجب تجنب تدريسها للمتعلم . لما فيها من مساويء وأضرار^(١) . وتمكن أخيراً من أن يقسم العلوم إلى ثلاثة أقسام على أساس نفعها أو ضررها للإسلام والإنسان على حد السواء .

* مراتب العلوم عند الغزالي على ضوء نفعها أو ضررها:

١ - علوم محمودة على الإطلاق:

ومدار هذه العلوم «العلم بالله تعالى وبصفاته وافعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا»^(٢) . هذه العلوم مطلوبة لذاتها من أجل التوصل بها إلى سعادة الآخرة . ويرى الغزالي أنه لا يمكن الإحاطة بها أو إدراك غورها فهي كالبحر الذي «يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم»^(٣) .

٢ - علوم محمودة بقدر ومذمومة بقدر:

يشير الغزالي إلى أن العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار محدود هي العلوم التي وردت في فروض الكفايات وعلى المتعلم أن لا يشتغل بها قبل الإنتهاء مما فرض عليه بحسب ما تقتضيه حاله وإلا كان كمن «دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره»^(٤) . وفي حال الاشتغال بفروض الكفايات لا بد من مراعاة التدرج وعدم استغراق العمر في فن منها طلباً للأستقصاء لأن «العلم كثير والعمر قصير وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه»^(٥) .

(١) فتحة سليمان: بحث في المذهب التربوي عند الغزالي ص ١٨ .

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٥١ .

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه .

(٤) المرجع السابق، ص ٥٢ .

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه .

٣ - علوم مذمومة على الإطلاق:

وهذه العلوم في نظر الغزالي لا يرجى منها نفع ولا فائدة في أمور الدنيا والدين إذ أن ضررها غالب على نفعها كعلم السحر والطلسمات والنجوم التي لا ينطوي بعضها على أية فائدة تذكر.

* العلوم التي أشتمل عليها منهاج التربية عند الغزالي:

وعلى ضوء ما يسبق يمكننا أن نخلص إلى القول أن الغزالي نظم مقرراته الدراسية حسب أهمية العلوم وفائدتها وفق معايير دينية ودينية وفردية واجتماعية ولقد جاء منهجه الدراسي «منظما كالاتي حسب أهمية العلوم التي يشملها:

- ١ - المرتبة الأولى: القرآن الكريم وعلوم الدين كالفقه والسنة، والتفسير.
 - ٢ - المرتبة الثانية: علوم اللغة العربية والنحو، ومخارج الحروف والألفاظ، وهي علوم تخدم علوم الدين.
 - ٣ - المرتبة الثالثة: فروض الكفاية وهي علوم الطب، والحساب والصناعات المختلفة بما فيها السياسة.
 - ٤ - المرتبة الرابعة: العلوم الثقافية كالشعر الأدبي والتاريخ، وبعض فروع الفلسفة مثل الرياضيات، والمنطق، وبعض العلوم الطبية التي لا تدخل فيما وراء الطبيعة، وعلم السياسات والخلقيات»^(١).
- يتضح مما سبق أن منهاج الغزالي يقوم على مبدأ الارتباط الكامل بالدين الإسلامي وما فيه من تعاليم وقيم ولقد حاول أن يراعي مبدأ الشمول في محتويات المنهج وأهدافه على أساس التوازن بين هذه الأهداف والمحتويات التي تتلائم مع استعدادات المتعلم وقدراته وحاجاته مثلما تتلائم مع حاجات البيئة الطبيعية والاجتماعية للمتعلم. ولقد جهد لنفسه أن يراعي منهجه مبدأ التدرج والترابط بين المواد وأوجه النشاط المختلفة.

(١) فتحة سليمان: بحث في المذهب التربوي عند الغزالي، ص ٢٧.

وعلى الرغم من النجاح الذي أحرزه الغزالي في رسم إطار منهجه إلا أنه لم يحدد بشكل واضح المقررات الدراسية لكل مرحلة من مراحل التعليم مع أنه لم يغفل عن ذكر ما يجب تعلمه في الكتاب عندما أشار أن على الطفل أن «يتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين»^(١). إلا أن ذلك لم يأت ضمن برنامج واضح المعالم لكل مرحلة من مراحل التعليم. وقد يكون الغزالي معذوراً بذلك لأنه كان يسير وفق أنظمة التعليم التي كانت سائدة في عصره إذ أن والتي تختلف بطبيعة الحال عن أنظمة التعليم في يومنا هذا.

(١) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٧٨.

الفصل الثامن

الطرائق التعليمية/ التعلمية في ضوء الفكر التربوي عند الإمام الغزالي

– مقدمة.

– الطرق المختلفة للتربية عند الغزالي.

- القدوة.
- ضرب الأمثال.
- القصص.
- العادة.
- الممارسة والعمل.
- المساءلة (المناقشة والحوار).
- العظة والنصح.
- الثواب والعقاب.

مقدمة:

لقد جهد الإمام الغزالي كي يضع منهجاً تربوياً يعنى بكافة جوانب الشخصية الإنسانية، انطلاقاً من نظرة الإسلام الشاملة والمتكاملة للإنسان. ولقد «نظر الفكر التربوي الإسلامي إلى الإنسان موضوع التربية على أنه كيان متكامل، له جسد وعقل وشعور وإحساس وروح ولكل من ذلك كله حاجاته التي يجب أن تشبع. وهذا الكيان المتكامل جزء من كيان أكبر هو المجتمع»^(١).

وكان الغزالي يسعى إلى توفير العناصر التي تمكنه من تحقيق الأهداف التي رسمها. خاصة وأن كلمة التربية كما هو معلوم تطلق «على كل عملية... تؤثر في فؤاد الطفل وتكوينه... سواء أكان مصدر هذه العملية الطفل نفسه أم البيئة الطبيعية أم الاجتماعية بمعناها العام أم بمعناها الضيق المحدود فالطفل خاضع باستمرار لعمليات تغير في تكوينه الجسمي والعقلي والخلقي»^(٢).

والتربية التي تتشكل من كل هذه العمليات تبقى بحاجة إلى منهج وطرائق تنسجم فيما بينها وتلتقي مع الأهداف المخطط لها. ولذلك كان من الضروري بعد الحديث عن أهداف التربية ومبادئها ومنهجها أن يتطرق البحث لمناقشة طرائق التربية عند الإمام الغزالي.

ومعلوم أن للطريقة «معنى ضيقاً والمقصود به توصيل المعلومات، ومعنى

(١) عبد الغني النوري: التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، ص ٧٤.

(٢) صالح عبد العزيز، عبد العزيز عبد المجيد، التربية وطرق التدريس، ج ١، ص ١١.

واسعاً شاملاً وهو اكتساب المعلومات، مضافاً إليها وجهات نظر وعادات في التفكير وغيره^(١). ولهذا فإن الطريقة في التربية لا تقتصر على مجرد النشاط الذي يقوم به المعلم داخل غرفة الصف بل تتعدى ذلك لتشمل مجموع الأنشطة التي تظهر أثارها على المتعلمين داخل الصف وخارجه على شكل أنماط سلوكية واتجاهات ومواقف في شتى نواحي الحياة، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة تكامل هذه الطرق مع بعضها البعض علاوة على تكاملها ككل مع المنهاج المقرر والأهداف التربوية المرسومة.

ولقد كان من الطبيعي أن تأتي الطرائق مختلفة تبعاً لاختلاف ميادين التربية الإسلامية التي اهتمت بالإنسان من كافة جوانبه: الجسمية والروحية والعقلية والنفسية والخلقية والاجتماعية. وبما أن النمو وحدة مشتركة تتأثر جوانبها المختلفة ببعضها البعض كان لا بد من التكامل بين الطرائق التي اعتمدها المربون وفي طليعتهم الرسول الكريم الذي كان القائد والقدوة في عملية البناء هذه، حيث وفرت للمجتمع الإسلامي التفوق والتميز على باقي المجتمعات التي استفادت بدورها من التقدم الذي أحرزه المسلمون على يد الرسول الكريم في فترة وجيزة من الزمن^(٢).

— الطرق المختلفة للتربية عند الإمام الغزالي:

سعى الغزالي لبناء الشخصية الإسلامية المتميزة على صعيد الفرد والمجتمع، على قاعدة أن الإسلام منهج حياة صالح لكل زمان ومكان. فكان من الطبيعي أن يستفيد من طرق التربية الإسلامية ويوظفها توظيفاً فاعلاً بشكل يتكامل مع المنهاج والأهداف التي خطط لتحقيقها. وفيما يلي عدد من أهم الطرق التي اعتمدها الغزالي في منهجه التربوي:

* القدوة:

إن للقدوة الحسنة بالغ الأهمية في عملية تربية الفرد وتنشئته. ولقد كان

(١) المرجع السابق ص ٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج ١، ص ١٨٠.

لهذه الطريقة أثر عميق في تعليم المسلمين وتثقيفهم وتغيير اتجاهاتهم وتعديل سلوكهم والأخذ بيدهم نحو بناء الشخصية الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

وشكلت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة التي تمثلت القرآن الكريم وحولت مبادئه ومعانيه إلى تصرفات وسلوك ومعاملات وأفكار ومشاعر. مما جعل عائشة أن تقول عندما سئلت عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم بأن خلقه القرآن. وتمكن الرسول عليه السلام «المبلغ من ربه، والقدوة الحسنة وصاحب التطبيق العملي لمنهج القرآن»^(١) من «وصل أصحابه بالله عن فهم ومعرفة وإيمان، ووصلهم بالقرآن ففهموه على أنه أوامر للتنفيذ، فكان زاد قلوبهم ومطهر نفوسهم، وموجه سلوكهم، وصلة بينهم وبين ربهم»^(٢).

وبهذا شكلت القدوة «عاملاً أساسياً لإنجاح التربية القرآنية ولإيتائها ثمراتها الياقات»^(٣). ولقد جاءت الدعوة للإقتداء بالرسول الكريم واضحة في قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٤).

«والقرآن إذ يركز على ضرورة الإقتداء بالرسول باعتباره أسوة حسنة فإن التربية الإسلامية تتخذ من القدوة طريقاً لتحقيق أهدافها فالمعلم ليكون قدوة لا بد وأن يتمثل المنهج الذي يعلمه ويربّي به، إذ يربّي على هديه، وحتى لا يكون هناك تناقض بين قوله وعمله، وحتى يتخذ المتعلمون قدوة لهم ويتأسوا به في كل حركاته وسكناته، فضلاً عن أخلاقه ومنهجه، وإلا فإن التربية تنقلب إلى تلقين وضغط وتسميع دون أي أثر عملي لها»^(٥).

فالرسول الكريم قدوة للمسلمين كافة كل في موقع عمله. ولذلك أوصى

(١) محمد شديد: منهج القرآن في التربية، ص ١١.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) احمد محمد جمال: دين ودولة، ص ١٦٥.

(٤) سورة الاحزاب، الآية: ٢١.

(٥) علي خليل ابو العينين: فلسفة التربية الاسلامية في القرآن الكريم، ص ٢٣٠، ٢٣١.

الغزالي المعلم المرشد اقتفاء أثر الرسول عندما جعل الوظيفة الثانية لهذا المعلم «أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه»^(١).

ويوصي الغزالي العالم المسلم أن يكون قدوة حتى لا يكون من علماء السوء الذين اعتبرهم «مثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام»^(٢). والمعلم القدوة في نظر الغزالي يجب «أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به»^(٣) امتثالاً لقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٥).

وحيث أن التربية السليمة لا تعتمد على المواعظ الجامدة والتعابير المطاطة والألفاظ المكررة والحكم المتواترة والكتب المترجمة وإنما تعتمد أساساً على المربي الفاضل. أشار الغزالي في أكثر من موقع إلى الحاجة الملحة للقدوة في العملية التربوية على كافة الصعد والمستويات. فالمريد مثلاً «يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل... فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طريقه لا محالة فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها»^(٦). لذلك كان «لا بد للسالك من شيخ يربيه ويرشده إلى سبيل الله تعالى لأن الله أرسل للعباد رسولا للإرشاد إلى سبيله فإذا ارتحل صلى الله عليه وسلم فقد خلف الخلفاء في مكانه حتى يرشدوا إلى الله تعالى»^(٧).

فالقدوة في نظر الغزالي كالإمام الذي يحتاج للإقتداء به في الصلاة^(٨). والمربي سواء أكان عالماً أم معلماً فهو كالإمام الذي يتحمل مسؤولية كبيرة ومن

(١) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٤١.

(٥) سورة الصف، الآية: ٣.

(٦) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٨١.

(٧) الغزالي: ايها الولد، ص ١٢٨.

(٨) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٨١.

حق الناس عليه أن يكون قدوة صالحة. ومعلوم كما يقول الغزالي «أن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا»^(١).

وإذا كان هذا هو الموقع الذي يحتله المربي - حسب ما يرى الغزالي - كان من واجب المعلمين أن يكونوا «صورة حية لما يدعون إليه . . . علماً وخلقاً وتديناً ودفاعاً عن الحق ووقوفاً في وجه الظلم وسعيّاً وراء الكمال ومن هنا ما احتلوه من منزلة في الحضارة الإسلامية لا من أجل ما يقدمونه من علم فقط»^(٢).

وإذا جعل قدوته الدائمة شخصية رسوله فهو يجعلها قدوة متجددة على مر الأجيال . . . متجددة في واقع الناس. إنه لا يعرض عليهم هذه القدوة للإعجاب السالب والتأمل التجريدي في سباحات الخيال. «إنه يعرضها عليهم ليحققوها في ذوات أنفسهم، كل بقدر ما يستطيع أن يقيس، وكل بقدر ما يصبر على الصعود ومن ثم تظل حيويتها دافقة شاخصة ولا تتحول إلى خيال مجرد تهيم في حبه الأرواح دون تأثير واقعي ولا اقتداء»^(٣).

والغزالي كغيره من علماء المسلمين الذين سبقوه أو لحقوا به أدرك أهمية القدوة كطريقة من طرق التربية الدائمة. فالطفل بحاجة إلى قدوة في أسرته وخارجها تماماً كما يحتاج كل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي إلى قدوة تسمه بسمات الإسلام وعاداته وتقاليده. مما يؤكد فاعلية القدوة وآثارها في التربية على صعيد كل من الفرد والمجتمع. ولذلك قال عمر رضي الله عنه «إذا زل العالم زل يزلته عالم من الخلق»^(٤).

فالطفل الذي هو «أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهره نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه»^(٥).

(١) المرجع السابق، ج ١، ص ٧٨.

(٢) عبد الغني عبود: «المدرس في التربية الإسلامية»، مجلة التربية القطرية، السنة السابعة العدد ٢٦، ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ - أبريل ١٩٧٨ م ص ٣٦.

(٣) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج ١، ص ١٨٥.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٧٩.

(٥) المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٨.

كيف له أن يتعلم الأمانة أو الصدق وهو يرى والده يسرق أو يكذب؟ لذلك جاء خطاب الله تعالى واضحاً وصريحاً عندما قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْاً أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(١) مما يعكس المسؤولية التربوية والدينية الملقاة على الفرد المسلم تجاه نفسه ومن يعول.

فالمربي سواء أكان أباً أو معلماً يجب «أن يكون عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر. فإذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئاً وقال للناس: لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به. ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف يتنقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج؟ ولذلك قيل في هذا المعنى:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
وقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾^(٢) ولذلك كان وزر العالم في معاصية أكثر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالم كثير يقتدون به. ومن سنّ سيئة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها. ولذلك قال علي رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه والله أعلم»^(٣).

فطريقة القدوة كما هو ملاحظ من كلام الغزالي تعتبر من أهم طرق التربية في الإسلام على الإطلاق وذلك انطلاقاً من كون الإسلام دين والأديان تنتشر بهذه الطريقة لا بحد السيف والإكراه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(٤).

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٣) الغزالي: الآحياء، ج ١، ص ٧٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

* ضرب الأمثال والاستشهاد:

يعتبر ضرب الأمثال من الطرائق التعليمية الهامة في التربية الإسلامية لأن الأمثال وجه من وجوه التعبير في القرآن الكريم لقوله صلى الله عليه وسلم «إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال»^(١).

«وضرب المثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والبحث، والزجر، والاعتبار والتقرير وترتيب المراد للعقل. وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس»^(٢).

ومن حكمة ضرب الأمثال في القرآن الكريم العون على معرفة البيان وذلك لأن «الحكم والأمثال تصور المعاني تصور الأشخاص، فإن الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس»^(٣).

ولقد أوجب الإمام الشافعي معرفة الأمثال على المجتهد على اعتبار أنها من علوم القرآن الكريم^(٤). «وقال الخفاجي سمي مثلاً لأنه مماثل بخاطر الإنسان أبداً أي شاخص فيتأسى به ويتعظ ويخشى ويرجو، والشاخص المنتصب. وقد جاء بمعنى الصفة كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(٥) أي الصفة العليا وهو قول «لا إله إلا الله». وقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾^(٦) أي صفتها»^(٧).

وتحث آيات القرآن الكريم على الإهتمام بالأمثال وفهمها ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(٨)

(١) رواه البيهقي عن أبي هريرة، البرهان في علوم القرآن ج ١، ص ٤٨٦.

(٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ٤٨٦، ٤٨٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٨٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٨٦.

(٥) سورة النحل، الآية: ٦٠.

(٦) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

(٧) الزركشي: المرجع السابق، ص ٤٨٨.

(٨) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

ففي كل الأحوال تبقى الأمثال أوقع في النفس وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر وأقوم في الإقناع. وقد أكثر الله تعالى من الأمثال في القرآن (٢) للذكرة والعبرة، وقد ضربها النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه. واستعان بها الداعون في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة، ويستعين بها المربون ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق، ووسائل التربية في الترغيب أو التنفير أو المدح أو الذم (٣).

ولقد استفاد الغزالي من هذه الطريق إلى جانب إفادته من الإستشهاد بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول وتوظيفه الحكم والأقوال والشعر بشكل مكنه من إبراز رأيه بأسلوب مقنع وبعبارة موجزة كان لهما تأثير ووقع بالغبين في النفوس.

ومن يرجع إلى كتب الغزالي خاصة «الإحياء» منها يجد مهارة الغزالي في استخدام طريقة المثل والإستشهاد في شتى المجالات التي كتب فيها قناعة منه بأهمية هذه الطريقة في تحقيق أهدافه التربوية. وفيما يلي بعض من أوجه الإستخدام هذه:

١ - حتى يكون للمعنى وقع في قلب المستمع:

ومن ذلك ما أورده عن الرسول صلى الله عليه وسلم في مجال استباق المأموم للإمام «أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول رأسه رأس حمار» (٤). ويعقب الغزالي معلقاً على ما ورد في الحديث الشريف قائلاً «وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس

(١) سورة الحشر، الآية ٢١.

(٢) سورة البقرة، الآيات ٢٦١، ٢٦٤، ٢٧٥.

(٣) مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص ٢٤٧.

(٤) رواه البخاري في كتاب الأذان، حديث رقم ٥٣.

الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهي البلادة والحمق . ومن رفع رأسه قبل الإمام صار رأسه رأس حمار في معنى البلادة والحمق وهو المقصود دون الشكل الذي هو قالب المعنى»^(١).

٢ - لتقريب المعاني غير المحسوسة من أفهام الناس :

ويبدو ذلك واضحاً من خلال المثل الذي يضر به الإمام الغزالي لبيان حال العقل وجنوده حيث يقول «مثل العقل مثل فارس مقيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضاً وكلبه مؤدباً معلماً كان جديراً بالنجاح ، ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جموحاً والكلب عقوراً فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعاً فهو خليق بأن يعطب فضلاً عن أن ينال ما طلب ، وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته ، وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصاً شهوة البطن والفرج وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه»^(٢).

٣ - لتأكيد فكرة يؤمن بها ويدافع عنها :

لذلك نرى الغزالي عندما يريد أن يتحدث عن علاقة العلم بالعمل يستشهد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعلموا»^(٣). كما وأنه يضرب مثلاً على لسان عيسى عليه السلام يقول فيه «مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل المرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد»^(٤). ليس هذا فحسب بل أن الغزالي يلجأ إلى أقوال العلماء والحكماء كقول مالك بن دينار «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن

(١) الغزالي : الإحياء ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٨ .

(٣) رواه الدارمي في المقدمة ، حديث رقم ٧ .

(٤) الغزالي : الإحياء ج ١ ، ص ٧٩ .

القلوب كما يزل القطر عن الصفا»^(١). هذا إلى جانب إستشهاده بالشعر للتأكيد على صحة ما ذهب إليه في هذا المجال^(٢).

يتضح مما سبق كيف أن الغزالي أدرك فعالية الأمثال كطريقة من طرق التربية التي من خلالها يمكنه أن يحقق الأهداف التربوية التي سعى لها بأسلوب رقيق ومشوق لئلا يمتاز به من تأثير في النفوس والأعمال، مما يحرك في الإنسان مشاعره وعواطفه وميوله نحو الخير بعيداً عن الشر. وفي هذا دلالة على مدى أهمية هذه الطريقة بالنسبة له في تحقيق أهدافه التربوية.

* القصص:

جاء في لسان العرب القصة: الخبر المقصوص بفتح القاف^(٣). والقصص بالكسر جمع القصة التي تكتب^(٤).

ولقد تضمن التراث الأدبي للغرب في الجاهلية كثيراً من القصص المحلي والمنقول وكان هذا القصص يدور حول الجان والسحر «أما قصص القرآن فهي قصص عن حياة الأنبياء والرسل والأقوام السابقة على الإسلام فقد أراد الله أن يفرق بينه وبين قصص العرب التي قام بعضها على الخيال أو الكذب أو التحريف أو التغريب بالإضافة والتعديل»^(٥) ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾^(٦) وقوله أيضاً: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾^(٧).

والقصة في القرآن «ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه

(١). المرجع السابق، ص ٧٨.

(٢). المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣). ابن منظور: لسان العرب.

(٤). الرازي: مختار الصحاح، ٥٣٨.

(٥). امينة احمد حسن: نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ص ٢٤٣.

(٦). سورة آل عمران، الآية: ٦٢.

(٧). سورة يوسف، الآية: ٣.

وإدارة حوادثه كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية»^(١).

ويحفل القصص القرآني «بكل أنواع التعبير الفني ومشخصاته من حوار إلى سرد إلى تنغيم موسيقي إلى أحياء للشخص، إلى دقة في رسم الملامح إلى اختيار دقيق للخطة الجاسمة في القصة»^(٢).

فالقصة في القرآن صورة من الصور الفنية والجمالية التي تسهم في تحقيق الأهداف التربوية الإسلامية وفي طليعتها بناء الشخصية الإسلامية من خلال «توصيل المعلومات والحقائق بطريقة شيقة لذيدة، وتربية الأطفال تربية خلقية صحيحة فهي تضع المثل أمامهم وتستثير ميلهم إلى التقليد وتحرك قابليتهم للإستهواء»^(٣).

وإلى جانب الأهداف العامة للقصة التي تشمل على الإنذار والعبرة والعظة والتذكرة وبيان عظمة الله وقدرته قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٤) هناك هدف خاص يتعلق بثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم أمام الكفار والمشركين لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(٥).

وعلى كل حال فإن «القصة نوع من الأدب له جماله وفيه متعة ويشغف به الصغار والكبار إذا أُجيد إنشاؤه، وأجيدت وساطته، وأجيد تلقيه. والقصة أدب مقروء أو مسموع»^(٦). «وأياً كان الأمر فسحر القصة قديم قدم البشرية... والإسلام يدرك هذا الميل الفطري إلى القصة ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم»^(٧).

(١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١١٧.

(٢) سعيد اسماعيل علي: أصول التربية الإسلامية، ص ٣٦.

(٣) صالح عبد العزيز، عبد العزيز عبد المجيد: التربية وطرق التدريس، ج ١، ص ٢٤٧.

(٤) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٥) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٦) عبد العزيز عبد المجيد: القصة في التربية، ص ١٢.

(٧) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج ١، ص ١٩٣.

ولقد سعى الإمام الغزالي للإفادة من هذه الطريقة في تحقيق أهدافه التربوية من خلال استخدامها في مجالات التربية المختلفة التي شملها منهاجُه. إلا أنه حذر من وعاظ زمانه الذين أساءوا استعمال القصص بشكل يتنافى مع ما ورد في القرآن الكريم. ولقد عبر عن ذلك في إشارته إلى أن أكثر ما يواظبون عليه وعاظ زمانه «هو القصص والأشعار والشطح والطامات. أما القصص فهي بدعة، وقد ورد نهى السلف عن الجلوس إلى القصص وقالوا لم يكن ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما حتى ظهرت الفتنة وظهر القصص»^(١).

والغزالي في موقفه هذا ينطلق من مواقف صحابة الرسول كعمر وعلي رضي الله عنهما. «وروي أن ابن عمر رضي الله عنهما خرج من المسجد فقال ما أخرجني إلا القاص ولولاه لما خرجت»^(٢) في حين «أخرج علي رضي الله عنه القصص من مسجد جامع البصرة»^(٣) ويرى أحمد أن «أكثر الناس كذباً القصص»^(٤).

فانطلاقاً من حرصه على الإسلام وحسن تربية المسلمين حذر الغزالي من شطح القصاصين «الذين اشتغلوا بالقصص التي تتطرق إليها الاختلافات والزيادة والنقص وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها»^(٥).

وبذلك يكون الغزالي قد حدد طريقته في القص وهي الالتزام بما جاء فيه القرآن الكريم أو ما نهج نهجه بعيداً عن الكذب أو ما قد يؤدي إلى اللبس وسوء الفهم. وفي حال اجتناب هاتين الآفتين يرى الغزالي «إن من القصص ما ينفع سماعه»^(٦). ورغم ذلك فإنه يبقى متخوفاً من القصص بعض الأحيان حتى ولو

(١) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

كان صادقاً لقوله «ومنها ما يضر وإن كان صدقاً»^(١) لذلك يرى الغزالي ضرورة في الرجوع إلى «القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن ويصح في الكتب الصحيحة من الإخبار»^(٢).

فعلى سبيل المثال إن الغزالي عندما يتطرق للحديث في مجال تربية النفس وكسر شهوة الفرج - التي يعتبرها «أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل»^(٣) - يلجأ لقصص القرآن الكريم والحديث الشريف فيعرض قصة يوسف عليه السلام مع زليخا، إلى جانب قصة الثلاثة الذين سدت الصخرة عليهم الغار^(٤) بأسلوب بعيد عن الفتنة أو الإغراء وضمن الحدود المشروعة التي أباحها الإسلام، أي وفق الكتاب والسنة النبوية الشريفة.

«وهكذا تلتقي مطالب الفن ومطالب التصور الإيماني دون تعارض ولا نزاع. ويستفيد الإسلام بالقصة في التربية دون أن يخرج عن أهدافه الأصلية، أو يجانب الحق أو يحول الفن إلى خطب وعظية سطحية التأثير»^(٥) وهو ما جهد الغزالي لتحقيقه من خلال اعتماده القص كطريقة من طرائق التعليم التي برع في استخدامها وتوظيفها لتحقيق أهدافه التربوية.

* العادة:

تلعب العادة - كما هو معلوم - دوراً هاماً وخطيراً في حياة الشعوب والأمم والأفراد. ولقد جاء الإسلام وكان في طليعة مهامه مقاومة عادات الجاهلية التي كانت تقوم على العصبية وما يتفرع عنها من حقد وحسد وكذب وغيبة ونميمة وكبر وعنجهية، هذا إلى جانب العادات الأخرى التي عرفها المجتمع الجاهلي كعبادة الأصنام والرق والربا والزنا والقمار وشرب الخمر ووأد البنات. ولقد عمد

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع السابق، ج ٣، ص ١١٢.

(٤) المرجع السابق، ص ١١٣.

(٥) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج ١، ص ٢٠.

الإسلام إلى مواجهة هذه العادات وكانت الوسيلة إلى ذلك تقوم على نشر الفضيلة التي دعا إليها الدين الحنيف على اعتبار أن الإنسان خليفة الله في أرضه. ولذلك كانت طريقة غرسها أو اقتلاعها من الطرق التربوية التي اعتمدها الإسلام لمساعدة الفرد المسلم على اكتساب اتجاهات سلوكية تمكنه من أن «يحول الخير كله إلى عادة تقوم بها النفس بغير جهد وبغير كد وبغير مقاومة»^(١). وإنما عن وعي وإدراك كاملين للأسباب والوسائل والأهداف التي تقف وراء ما يقوم به من أفعال وأقوال.

ويرى الغزالي أن اكتساب العادات والأخلاق الحسنة فيما لو لم يكن ذلك موجوداً في الطبع أو الفطرة لا بد وأن يكون عن طريق «الاعتياد ومخالطة المتخلفين بهذه الأخلاق وربما يحصل بالتعلم»^(٢). كما ويعبر الغزالي عن إمكانية «اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة»^(٣) وهو بذلك إنما يعرب عن قناعته بضرورة «حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب»^(٤) أي الاعتياد على الأعمال المرجوة. ويمثل الغزالي على ذلك مشيراً إلى أن من يريد أن «يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال. فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً. وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه»^(٥). وتبعاً لذلك يرى الغزالي أن «جميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق»^(٦) أي طريق التخلق والاعتياد حتى يصبح الفعل الصادر عن صاحبه لذيداً «فالسخي

(١) المرجع السابق ج ١، ص ٢٠٠.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٢.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٣.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة ، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع»^(١).

ويتهى الغزالي إلى بلورة قناعة أكيدة مفادها أن الأخلاق المحمودة لن يتأتى لها الرسوخ في النفس «الم لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة ومالم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم تواظب عليه مواظبة من يشاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها»^(٢) تماماً كما قال صلى الله عليه وسلم «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(٣).

وفي نظر الغزالي أن للعادة أثراً كبيراً وعجيباً على النفس ولذلك فإننا نرى «المقامر قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به وذلك لطول إلفه له وصرفه نفسه إليه مدة»^(٤).

ولطالما أن النفس نتيجة العادة تستلذ الباطل والمقايح وتميل إليها فالأولى أن تستلذ الحق وأفعال الخير لو ردت إليها وواظبت عليها مدة من الزمن لأن «ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين»^(٥). الذي قد يغلب على بعض الناس بالعادة.

ويتضح من خلال ما سبق أنه يمكن عن طريق الرياضة - وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء»^(٦) - اكتساب العادات الحسنة والأخلاق الجميلة. ويمثل الغزالي على ذلك بقوله «إن من أراد أن يصير سخياً عفيف النفس حليماً متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً حتى يصير ذلك طبعاً له فلا علاج له إلا ذلك»^(٧).

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) رواه النسائي في كتاب النساء، حديث رقم ١.

(٤) الغزالي: الإحياء ج ٣، ص ٦٤.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

ولذلك يقرر الغزالي أن الرياضة من أفعال الوسائل في تربية الصبيان خاصة وأن الصبي قابل لكل نقش ففي حال «عود الخير وعلمه نشأ له وسعد في الدنيا والآخرة... وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك»^(١). وفي هذا دليل جلي على مدى الأهمية التي أولاها الغزالي للعادة في مجالات التربية الإسلامية ولذلك اعتبرت العادة من أهم الطرق التربوية لديه معتمداً في ذلك على منهج القرآن الكريم والحديث الشريف حيث أن «كل عادة من عادات الإسلام تبدأ باستحياء الرغبة ثم تتحول إلى عمل حي لا يكل إذاؤه شيئاً من الجهد، وهو مع ذلك رغبة واعية لا أداء آلي مجرد من الشعور»^(٢).

* الممارسة والعمل :

إن الإسلام دعوة إلى العمل، كما وأن التفاضل بين المسلمين تفاضل بالأعمال الصالحة والخالصة لوجه الله تعالى. والعبادات التي شرعها الإسلام «تتطلب ممارسة وإسلوباً عملياً»^(٣) فهي «أشبه بالتمارين الرياضية التي يقبل عليها الإنسان بشغف، ملتصقاً من المداومة عليها عافية البدن وسلامة الحياة»^(٤).

فالعبادات في الإسلام طرق للتربية على منهج الإسلام وهي عبارة عن «تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل متمسكاً بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف»^(٥).

فممارسة العبادات «تربية عملية تتحول بها الكلمة إلى عمل بناء أو إلى خلق فاضل أو إلى تعديل في السلوك على النحو الذي يحقق وجود ذلك الإنسان كما تصوره الإنسان»^(٦) خليفة الله في أرضه ومحقق لسعادة الدنيا والآخرة من خلال

(١) المرجع السابق، ص ٧٨.

(٢) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج ١، ص ٢٠٤.

(٣) محمد منير مرسى: التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، ص ١٣٩.

(٤) محمد الغزالي: خلق المسلم، ص ٧.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) عبد الغني عبود: في التربية الإسلامية، ص ١٥٧.

التزامه بتعاليم الإسلام ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾^(١) ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «اتقوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم»^(٢).

فقيمة العبادات في الإسلام «أن تكون منهج حياة يشمل كل الحياة، قيمتها أن تكون خطة سلوك وخطة عمل وخطة فكر وخطة شعور، قائمة كلها على منهج واضح، يتبين فيه - في كل لحظة - ما ينبغي وما لا ينبغي أن يكون»^(٣). ولذلك يتسع مفهوم العبادة في الإسلام ليشمل كافة الأعمال التي يقوم بها الإنسان.

ومن أجل ذلك جاء قول الرسول صلى الله عليه وسلم صريحاً وواضحاً في تبيان لمفهوم الصدقة في الإسلام فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين اثنين صدقة وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة. والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»^(٤).

وطبيعي أن تكون نظرة الغزالي ضمن هذا الإطار الذي أدرك من خلاله أهمية الممارسة العملية كطريقة من طرق التربية الإسلامية حيث «ينبغي على المربي المسلم أن يهتم بتنمية السلوك العملي الرشيد وأن يدرك أن تلاميذه إنما يحسن تعليمهم إذا هم مارسوا ما تعلموه من خلال خبرتهم وتجربته المباشرة. كما يجب أن يهتم المعلم بأظهار الجوانب الوظيفية والتطبيقية لما يتعلمه التلميذ في واقع حياته كفرد وفي واقع المجتمع الإسلامي الكبير»^(٥).

ولذلك ليس غريباً على الغزالي أن يوصي تلميذه قائلاً «لا تكن من الأعمال

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٢) رواه أحمد في المسند ج ٥، ص ٢٥١، ٢٦٢.

(٣) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج ١، ص ٣٤.

(٤) رواه البخاري في كتاب الصلح، حديث رقم ١١.

(٥) محمد منير مرسي: التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، ص ١٣٩.

مفلساً ولا من الأحوال خالياً وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد، مثاله: لو كان على رجل في برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى وكان الرجل شجاعاً وأهل حرب فحمل عليه أسد عظيم مهيب فما ظنك: هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟ ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل»^(١) لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٢).

والإيمان كما يورد الغزالي «قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان»^(٣) فمن أجل أن يكتمل هذا الإيمان يعاود الغزالي التأكيد على العمل حتى «يترجم هذا اليقين إلى سلوك حي»^(٤). فيخاطب تلميذه قائلاً «أيها الولد ما لم تعمل لم تجد الأجر»^(٥).

وفي هذا تأكيد على وظيفة العلم الأساسية وهي تغيير سلوك الإنسان ومساعدته على اكتساب الاتجاهات والمواقف التي لا بد وأن تترجم عملاً صالحاً حيث تشكل بدورها ثمرة هذا العلم. وهكذا فإن الغزالي ينبه تلميذه إلى العلاقة المتلازمة بين العلم والعمل على قاعدة أن كل منها طريق إلى الآخر وهذا ما يؤكد في قوله لتلميذه بأن «العلم بلا عمل جنون والعمل بغير علم لا يكون»^(٦). مما يعني بدوره أن ممارسة العمل بحد ذاته وسيلة هامة وفاعلة من وسائل التربية الإسلامية خاصة إذا كان هذا العمل يستند إلى العمل الواجب «وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله. ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تفهم أموراً، تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة»^(٧).

(١) الغزالي: أيها الولد، ص ٩٨.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٣) الغزالي: أيها الولد، ص ١٠٠.

(٤) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الامام الغزالي، ص ٨٩.

(٥) الغزالي: أيها الولد ص ١٠٣.

(٦) المرجع نفسه، ص ١٠٨.

(٧) الغزالي: الإحياء، ج ١، ص ١٩١.

فالتربية عن طريق ممارسة الأعمال أو أداء الفرائض «تعود المرء على النظام في الحياة وعلى ضبط النفس وعلى الحياة الاجتماعية التعاونية وعلى التصحية في سبيل الجموع كلها، وهي تتطلب مراعاة وممارسة يومية تلازم حياة الإنسان»^(١).

« ويفترض الغزالي بالتربية التي تقوم على الممارسة أو أداء الفرائض الصدق بحيث يجتهد صاحبها «حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به»^(٢) وفي حال كان يعاني من قبل هذه المشكلة يوصيه «لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر»^(٣) ويمثل الغزالي على ذلك فيقول «ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته . . . فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال»^(٤). من هنا تبرز أهمية الممارسة الصادقة كطريقة من طرق التربية القادرة على إكساب الفرد الخبرات والاتجاهات المرجوة في عملية بناء شخصية الإنسان المسلم.

* المسألة (المناقشة والحوار):

لقد جاء الإسلام دعوة لتحرير العقل من قيود الجهل والتقليد الأعمى الذي درج عليه الآباء والأجداد ولقد نهى الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٥).

وإذا كان الشرك حجر عثرة أمام استعمال العقول فلقد كان الإسلام دعوة للتفكير وتحرير العقل من خلال منهج القرآن الذي اعتمده الرسول صلى الله عليه

(١) محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي، ص ١٠٤.

(٢) الغزالي: الإحياء، ج ٤، ص ٤١٢.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٢٣.

وسلم في نشر الدين وتعليم المسلمين . ولقد كانت المسألة من أهم الطرق التي استخدمها القرآن الكريم في منهاجه التربوي . ومعلوم أن هذه الطريقة تقوم على الإستماع والفهم والإدراك أي أنها تقوم على توظيف العقل من أجل إدراك الحقائق التي يدعو إليها الإسلام . ولذلك زخر القرآن الكريم بالتساؤلات الكبيرة ومن أبرزها التساؤل الضخم الذي تبتديء به سورة الماعون لقوله تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّبِ﴾ (١) . فالتساؤل «يوجهه ربنا تبارك وتعالى إلى جميع مخلوقاته ممن يتأتى منه الرؤية والفهم من هو الذي يكذب بالدين ، وينكر حقيقته ويرفض توجيهاته؟ إن كل مستمع إلى هذا التساؤل يترقب معرفة هذا الإنسان الذي يقرر الإنسان أنه يكذب بالدين ويأتي الجواب صريحاً واضحاً لا غموض فيه» (٢) عندما يقول تعالى : ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْسَ﴾ (٣) وَلَا يُحْصَى عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ (٤) .

والقرآن الكريم يستخدم الطريقة الحوارية مع المسلمين وغير المسلمين بشكل يؤثر على العقل والوجدان وبأسلوب يعتمد على الإقناع من خلال المناقشة التي تكشف عن قدرة الله وآياته المنبثة في السموات والأرض والأمثلة التي تدل على ذلك كثيرة (٤) .

ولقد سار الرسول صلى الله عليه وسلم على منهج القرآن الكريم في حوارهِ مع الكفار وفي حلقات التربية التي كان يقيمها للسلف الصالح من أتباعه ويرد فيها على أسئلتهم وإستفساراتهم ومن أمثلة ذلك ما جاء في الحديث الشريف أنه صلى الله عليه وسلم قال «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم ، كما تتداعى الأكلة على قصعتها قالوا : أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال : بل أنتم حينئذ كثر . ولكنكم غثاء كغشاء السيل . ولينزعن الله من قلب أعدائكم المهابة منكم .

(١) سورة الماعون ، الآية : ١ .

(٢) الشيخ عبد الرحمن نجار : خواطر مؤمنة ، ص ١٥٥ .

(٣) سورة الماعون ، الآيتان : ٢ ، ٣ .

(٤) انظر اواخر سورة الملك .

وليقذفن في قلوبكن الوهن . قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت»^(١).

ولقد استفاد الغزالي من هذه الطريق غاية الاستفادة حيث أنه تمكن من توظيفها لتخدم أهدافه التربوية على أوسع نطاق . والمتتبع لكتاباتة يلحظ مدى عنايته بها لدرجة يمكننا معها القول إنها كانت السبب لكتابة كثير من رسائله وخاصة رسالته الشهيرة «أيها الولد»^(٢) التي تعتبر من أهم ما كتب الغزالي في مجال التربية والتعليم إلى جانب ما جاء في «كتاب الإحياء».

وعلى خط آخر في مواجهة آراء الفلاسفة وغيرهم من أصحاب المذاهب التي شكلت خطراً على الإسلام لجأ الغزالي إلى أسلوب الحوار والمناقشة وإعمال الفكر في تعاطيه مع المسائل المختلف عليها بغية كشفها ورد شبهتها.

ففي رده مثلاً على مذهب التعليم بالنسبة لمسألة المعلم المعصوم يحاورهم الغزالي قائلاً بأن «معلمنا المعصوم هو محمد عليه الصلاة والسلام، فإذا قالوا: «هو ميت» فنقول «ومعلمكم غائب» فإذا قالوا: معلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم شكل فنقول: ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وأكمل التعليم إذ قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(٣) وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته»^(٤).

فعلى هذا النمط وعلى هذه الطريقة الحوارية التي تعتمد على العقل يحاور الغزالي خصومه ويتفوق عليهم .

ومن يعود إلى رسالة (إلجام العوام عن علم الكلام) يرى أيضاً كيف أن

(١) رواه ابو داود في كتاب الملاحم حديث رقم ٥.

(٢) الغزالي: أيها الولد، ص ٨٣ - ٨٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٤) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٢٠.

سببها سؤال موجه من التلميذ إلى الغزالي . علاوة على ذلك فإن الرسالة تعتمد المحاور والمناقشة كطريقة للرد على «الأخبار الموهمة للتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية الضلال وحيث اعتقدوا في الله وصفاته ما يتعالى ويتقدس عته من الصورة واليد والقدم والنزول والانتقال والجلوس على العرش والاستقرار وما يجري مجراه مما أخذوه من ظواهر الأخبار وصورها»^(١).

وعلى الرغم من اقتناع الغزالي بجدوى هذه الطريقة في التربية والتعليم إلا أنه يحذر من آفات المناظرة وما ينجم عنها من آفات مظلمة في حال قصد بها «الغلبة والإفحام وأظهار الفضل والشرف والتشديد عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس»^(٢) لأنها في هذه الحالة تكون منبعاً لجميع «الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس»^(٣) وذلك لأن «من غلب عليه حب الإفحام والغلبة والمناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضممار الخبائث كلها في النفس وهيئ فيه جميع الأخلاق المذمومة»^(٤) كالحسد والحقد والكذب والتجسس «والفرح لمساءة الناس والغم لمسارهم»^(٥) والنفاق والإستكبار والرياء.

وصحيح كما يقال إنه «لولا حب الرئاسة لاندرس العلم»^(٦) إلا أن ذلك لا يدل «على أن طالب الرئاسة ناج بل هو من الذين قال صلى الله عليه وآله وسلم «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»^(٧) فطالب الرئاسة في نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف، ولكنه يضمّر الجاه، فمثاله مثال الشمع

(١) الغزالي: الجامع العوام عن علم الكلام، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ٤، ص ٦٠.

(٢) الغزالي: الإحياء، ج ١، ص ٥٨.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع السابق، ص ٦٠.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٧) رواه البخاري في كتاب الجهاد حديث رقم ١٨٢.

الذي يحترق في نفسه ويستضيء به غيره فصلاح غيره في هلاكه، فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التي تاكل نفسها وغيرها»^(١).

ولا يقف الغزالي عند حد النقد السلبي وإنما يعمد لوضع الشروط اللازمة للإبقاء على المناظرة ضمن إطار «التعاون على طلب الحق من الدين»^(٢). ويحدد ذلك في ثمانية شروط^(٣).

وفي ضوء ما سلف يمكننا القول إن طريقة المسائلة والحوار تلعب دوراً بارزاً في التربية عند الغزالي لما لها من أثر في مجال التربية العقلية. ومعلوم أن أسلوب المحاكمة العقلية الذي يقوم عليه كل من الحوار والمناقشة هو أسلوب «يمكن الإنسان من التمييز بين الحق والباطل بالحجة وبالمشاهدة الحسية وليس بالقسر أو التقليد الأعمى»^(٤). وهو ما سعى الغزالي لتحقيقه عبر منهجه التربوي على صعيد كل من الفرد والمجتمع.

* العظة والنصح:

تلعب هذه الطريقة التعليمية دوراً هاماً في مجال التربية الإسلامية، خاصة وأن القرآن الكريم الذي هو كلام الله موعظة - فيها شفاء - لقوله تعالى: ﴿بَنَاتُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى﴾^(٥) لذا فإن موعظة القرآن لا تجاريها موعظة بدليل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعْظُمُ بِهِ﴾^(٦) كما أن الفوز بهذه الموعظة هو من نصيب المتقين لقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٧).

(١) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٦.

(٣) انظر الاحياء، ج ١، ص ٥٦، ٥٧، ٥٨.

(٤) محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الاسلامي، ص ١١٤.

(٥) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٦) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

ولكي تأتي الموعظة مؤثرة لا بد وأن تتوفر لها الأجواء التي تساعد على شق «طريقها إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان وتهزه هزاً وتثير كوامنه لحظة من الوقت»^(١) وتحتاج الموعظة ضمن هذا السياق إلى «القدوة والوسط الذي يسمح بتقليد القدوة ويشجع على الأسوة بها...» وحين توجد القدوة الصحيحة فإن الموعظة تكون ذات أثر بالغ في النفس وتصبح دافعاً من أعظم الدوافع في تربية النفوس^(٢) مما يسهم في «تغيير سلوك الفرد وإكسابه الصفات المرغوب فيها»^(٣).

والإنسان مفطور على تقبل النصيحة خاصة «من محبيه وناصحيه فالنصح والوعظ يصبح في هذه الحالة ذا تأثير بليغ في نفس المخاطب ولا سيما فيما يكون صادراً عن محبة ومن القلب وإلى القلب، فالنصح والوعظ من والد محب أو والدة أو أخ كبير أو صديق أو معلم أو شيخ محترم قد يغير مجرى حياة الإنسان، وما لم يكن النصح والوعظ صادراً من القلب وإلى القلب فتأثيره يكون ضعيفاً أو معدوماً تقريباً»^(٤).

والتربية الإسلامية تعتمد على الوعظ كطريقة تعليمية مستوحاة مما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حيث يعكس هذان المظهران نمطاً تربوياً رفيع المستوى في مجال النصح والوعظ يوجب على المربي أن يعيشه كي يكون القدوة لتلاميذه ومجتمعه.

ومن نماذج الوعظ القرآني ما قاله لقمان لإبنه^(٥) وما جاء في سورة النساء^(٦) والإسراء^(٧) من نصح للمسلمين والملاحظ أن «معظم المواعظ القرآنية تدور حول

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج ١، ص ١٨٧.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) عبد الجواد السيد بكر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، ص ٣٤٩.

(٤) محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، ص ١١١.

(٥) سورة لقمان، الآيات: ١٣ - ١٩.

(٦) سورة النساء، الآيات: ٣٦ - ٥٩.

(٧) سورة الإسراء، الآيات: ٢٢ - ٣٨.

تربية الإنسان عقدياً وسلوكياً، ومن ثم تأتي أهمية هذه الطريقة العظيمة من طرق التربية الإسلامية لتكوين وتنشئة وإعداد المسلم العابد الصالح بحيث يكون سلوكه صائباً في معتقده ودينه وعقله وعمله وهذا هو هدف الموعظة كما جاءت في القرآن الكريم كما هو هدف القرآن كله»^(١).

ولقد أدرك الغزالي أهمية هذه الطريقة في رسالته التربوية، فالناظر إلى كتاب «الإحياء» يجد أنه يقوم بمعظمه على الوعظ الهادف إلى بناء الإنسان عقلياً وروحياً ونفسياً وجسدياً واجتماعياً وسلوكياً، ففيه من الكتب والرسائل الوعظية ما يغطي كافة الجوانب المتعلقة بشخصية الإنسان.

وليس كل من ادعى العلم أو اعتلى المنبر أصبح واعظاً حتى أن الغزالي لا يرى نفسه أهلاً للوعظ وفي ذلك يقول «فلست أرى نفسي أهلاً له لأن الوعظ زكاة نصابها الإعتاظ ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة، وفاقد النور كيف يستنير به ومتى يستقيم الظل والعود أعوج»^(٢).

وبهذا يؤكد الغزالي على أهمية القدوة في طريقة الوعظ ويعزز وجهة نظره هذه بما «أوحى الله تعالى إلى عيسى بن مريم عليه السلام عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني»^(٣).

ويعتمد الغزالي في وعظه على محاورة العقل حتى وإن كان هذا الوعظ موجهاً لنفسه التي «صدقت وقبلت» بواعظي الموت والقرآن «قولا وعقلا» إلا أنها «تمردت تحقيقاً وفعلاً» مما اضطره لمخاطبتها قائلاً «أما أنت مصدقة بأن القرآن هو الواعظ الناطق وأنه النصح الصادق، فإنه كلام الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ فقالت نعم. فقلت قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا

(١) علي خليل أبو العين: فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، ص ٢٣٤.

(٢) الغزالي: الرسالة الوعظية، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ٤، ص ٥٤، ٥٥.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ (١). فقد وعدك الله تعالى بالنار على إرادة الدنيا، وكل ما لا يصحبك بعد الموت فهو من الدنيا فهل تنزهت عن إرادة الدنيا أو حبها، ولو أن طبيباً نصرانياً وعدك بالموت أو المرض على تناولك ألد الشهوات لتحاشيتها واتقيتها. أكان النصراني عندك أصدق من الله تعالى؟ فإن كان ذلك فما أكفرك. أو كان المرض أشد عندك من النار، فإن كان ذلك فما أجهلك فصدمت ثم ما انتفعت بل أصررت على الميل إلى العاجل (٢). ويتابع الغزالي على هذا النحو في الوعظ على أمل أن يصل بنفسه وبغيره إلى ما فيه سلامة العاقبة.

ويتضح لنا من خلال ما سبق أن ما جاء في الرسالة الوعظية يؤكد على قناعة صاحبها بأهمية العظة والنصح في المجال التربوي. ومن يتابع الغزالي في «الإحياء» وغيره من الكتب يطلع على مدى إهتمامه بهذه الطريقة واعتماده عليها في التأثير على نفسية تلامذته من خلال نصح جهد لنفسه أن يكون صادراً عن القلب حتى يقع في القلب.

* الثواب والعقاب:

العقوبة - لغة - تعني الجزاء بالشر. والعرب تقول: أعقبت الرجل أي جازيته بخير وعاقبته أي جازيته بشر (٣). وقيل أعقبه على ما صنع: جازاه والعقبي جزاء الأمر (٤). وقد وردت كلمة عقاب ومشتقاتها في القرآن الكريم ستاً وعشرين مرة (٥).

والعقوبة في القانون الوضعي هي عبارة عن «قدر مقصود من الألم يقرره المجتمع ممثلاً في مشرعه ليوقع كرهاً على من يرتكب جريمة في القانون بمقتضى حكم يصدره القضاء» (٦).

(١) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) الغزالي: الرسالة الوعظية، ص ٥٦.

(٣) المنجد.

(٤) ابن منظور: لسان العرب، فصل الباء حرف العين.

(٥) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٤٦٧.

(٦) محمد زكي أبو عامر: قانون العقوبات القسم العام، ص ٣٧٠، ٣٧١.

«والعقوبة في الشريعة الإسلامية هي عبارة عن «مؤيد شرعي الغاية منه ضمان نفاذ الأحكام الشرعية الأصلية التي شرعت لتحقيق مصالح العباد على وجه يوفر العدالة بينهم»^(١).

وما يجب أن ندركه هو أن العقوبة في الإسلام جاءت لتخدم هدفا تربوياً يسعى الإسلام لتحقيقه من خلال إصلاح أحوال الناس وتهذيب أخلاقهم وإحداث التغييرات المرغوبة في سلوكهم وشتى نواحي حياتهم.

فلحكمة شاءها الله تعالى «في إصلاح النفوس وتهذيبها وتوجيهها إلى السلوك القويم والصراط المستقيم أقر الإسلام مبدأ الثواب والعقاب كليهما، لأن الله الذي ﴿يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢). ينبئنا أن النفس البشرية ليست على وتيرة واحدة في عبادته من حيث ما تستجيب له ويغريها بالاستقامة ومجاعة الحق والخضوع لتوجيه الرشاد فيقول تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلٍ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣) فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَقُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾^(٤). فهذه الآيات الكريمة إثبات قاطع بأن طبيعة النفس الشحيحة التي لا تشكر نعمة الله لا يغريها غنى، بل أن هذا الغنى يظهرها على حقيقتها واقعاً وسلوكاً فتستحق العقاب»^(٥).

وتمشياً مع حكم الإسلام واقتضاء بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية أخذ المربون المسلمون بمبدأ الإستخدام الواعي والهادف لطريقة الثواب والعقاب في المواقف التربوية. وقرروا على ضوء ذلك «عدة مبادئ في العقاب مستمدة من الإسلام نفسه. هذه المبادئ هي على الترتيب: النصح والإرشاد ثم التأنيب على إنفراد، ثم تقرير على رؤس الأشهاد ثم الضرب آخر الأمر إذا لم تصلح

(١) احمد الحجي الكردي: المدخل الفقهي، ص ٩.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٣) سورة التوبة الآيات: ٧٥، ٧٦، ٧٧.

(٤) حسين سليمان قوره: «الثواب والعقاب لهما استخدام تربوي حكيم لدى الاسلام والمسلمين»، مجلة التربية القطرية، العدد ٢٦، ص ٣٧.

هذه الإجراءات السابقة. وجعلوا للضرب حدوداً وشروطاً. منها أخذ الإذن من الأب أو ولي الأمر، ومنها أن يكون الضرب من ثلاث إلى عشر لا تزيد على ذلك. هذا إلى أن المعلم من التلميذ هو بمنزلة الوالد، فما يفعله الوالد في عقاب ابنه وتربيته يفعله المعلم»^(١).

ولكي تحقق العقوبة «أهدافها المتعلقة بتقويم سلوك التلاميذ وإصلاح أمرهم واستمرار نموهم السوي»^(٢) كان لا بد وأن تكون رادعة على المستويين الحسي والمعنوي بحيث «تختلف في نوعها وشدتها باختلاف تصرف الخارج عن النظام وبمدى خطورة هذا التصرف ومستوى المخالفة»^(٣).

ولو نظرنا إلى آراء عدد من المربين المسلمين لرأينا أنهم أجازوا مبدأ العقوبة كإجراء يلجأ إليه في حال فشلت أساليب التوجيه والإرشاد ومحاولات الوقاية. وفي هذا المجال يمكن الرجوع إلى ما جاء في «كتاب آداب المعلمين»^(٤) لمحمد بن سحنون (٢٠٢هـ - ٢٥٦هـ) وإلى «الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين المتعلمين»^(٥) لأبي الحسن علي بن خلف القابسي (٣٢٤ - ٤٠٣هـ) وإلى ما جاء في مقدمة ابن خلدون^(٦).

والغزالي كغيره من المربين المسلمين الذين أباحوا العقوبة إستناداً إلى ما جاء في الكتاب والسنة النبوية الشريفة. ونقطة البداية في تعامله مع تلاميذه في هذا المجال تنطلق من شففته عليهم ولهذا فهو يوصي المعلم بأبشار «الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه»^(٧) إقتداء بقول الرسول صلى الله عليه وسلم «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»^(٨).

(١) أحمد فؤاد الاهواني: التربية في الاسلام، ص ١٥.

(٢) عمر محمد التومي الشيباني: من اسس التربية الاسلامية، ص ٤٥٩.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) ابن سحنون: كتاب آداب المعلمين، ص ٣٥١ - ٣٦٦.

(٥) القابسي: احوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين، ٣١٩ - ٣٤٧.

(٦) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص ٥٤٠.

(٧) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٩.

(٨) رواه النسائي في كتاب الطهارة، حديث رقم ٣٥.

والعقوبة في نظر الغزالي وسيلة لتحقيق غاية في حال نفذت الوسائل وانعدمت السبل، هذا إلى جانب ضرورة اعتماد التدرج ومراعاة مشاعر المتعلم، والغزالي في هذا إنما يعبر عن مدى فهمه لنفسية الأطفال على نحو يمكننا القول معه بأنه فاق مآذهب إليه علماء النفس التربوي في هذه الأيام، حيث إنه يبدأ بالثواب والحفز في تعاطيه مع تلاميذه فيقول «ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيد جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل ذا، وإن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً والأم تخوفه بالأب وترجره عن القبائح»^(١).

والغزالي كما هو واضح يؤثر المحبة والعطف في تعامله مع المتعلم حتى وإن كان لا بد من عقوبة فهو يجذب العقوبة المعنوية أولاً وبشكل يحرص فيه على مراعاة مشاعر الأطفال، ولذلك فهو يوصي المعلم «أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح. وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم ويهيج الحرص على الإصرار»^(٢) ولذلك فهو يدعونا لأخذ العبرة من قصة آدم وحواء عليهما السلام^(٣).

وفي حال استنفذ المعلم سبله لا يرى الغزالي مانعاً من إنزال العقوبة

(١) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٧٨، ٧٩.

(٢) المرجع السابق، ج ١، ص ٧١.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

بالمتعلم وعلى التلميذ في هذه الحال «أن لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر»^(١) لأن الصبر كما يقول «دأب الشجعان وكثرة الصراخ دأب الممالك والنسوان»^(٢).

وتعقياً على ما ورد في موضوع العقوبة عند الغزالي يمكن القول بأن «هذه خير نصيحة للآباء والأمهات في تربية أطفالهم فالغزالي ينهى عن الإكثار من العتاب كي يكون للوم أثر في نفوسهم فلا يعاتب الوالدان أولادهما على كل صغيرة وكبيرة أو على هفوة بحسن نية حتى لا يملوا أو يظهروا العناد والسير في الطريق المضاد وعلى الأب أن يحفظ هيئته مع إبنه، وعلى الأم أن تتعاون مع الأب في تربية الطفل فتعظه وتظهر له هفوته، وترشده بحكمة على انفراد حتى تستمر العظة ويتعد عن القبح ويعتاد الخلق الكريم... والطفل شديد الإحساس بطبيعته، سريع التأثر ومن ثم وجب أن نعامله بلين وعطف ونجتهد في تفهيمه السبب في فعل هذا أو تجنب ذلك، ولا نكتفي بالأوامر والنواهي مجردة عن أسبابها. فالطفل عنيد قد يفعل الشيء حيث تنهاه عنه ويتنهي حيث تأمره لا يريد بذلك إلا أن يعرف ماذا تكون نتيجة مخالفته وعصيانه ولا يقصد إلا أن يظهر شخصيته»^(٣).

وفي رأي آخر إن طريقة الغزالي «في استعمال الثواب والعقاب لغرض التهذيب طريقة سليمة إلى حد كبير، فإن الإكثار من الزجر والتأنيب، وتكرار اللوم والعتب كل هذا قد يأتي بعكس المرغوب فيه، كما أن المدح والتشجيع كثيراً ما يكونا سبباً في الإصلاح. أما من ناحية تخويف الصبي بأبيه - باعتباره مركزاً للسلطة في العائلة - ينبغي أن يكون رمزاً للرغبة والخوف»^(٤).

إلا أن فكرة تخويف الأطفال بسلطة الأب أثارت اعتراض بعضهم لأنهم

(١) المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٩.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) محمد عطية الأبراشي: التربية الإسلامية وفلاسفتها، ص ٢٦١.

(٤) فتحية سليمان: بحث في المذهب التربوي عند الغزالي، ص ٦٠، ٦١.

يرون بأن العلاقة بين طرفي عملية التربية يجب أن تقوم على الحب والحزم بعيداً عن مشاعر الخوف والرهبة على اعتبار أن «الأب في البيت له المنزلة العليا، وينبغي أن يكون محبوباً من الجميع، وهذا يتنافى مع اتخاذه شبحاً لتخويف الأطفال»^(١).

ومهما تمارضت الآراء ما من أحد بإمكانه أن ينكر اعتدال آراء الغزالي في تناوله لموضوع العقاب «فالغزالي حريص من أول الأمر، في نظريته لحقيقة الثواب العقاب على التغافل عن المخالف في حالة عدم تكرار المخالفة، وكذا عدم هتك الستر والمكاشفة، لما يترتب على المكاشفة من جسارة وعدم مبالاة ولا يخرج تخويف الصبي بأبيه عن هذا المفهوم الذي يحرص الغزالي من خلاله أن لا تكون مكاشفة فتكون الجسارة. ولو أراد الغزالي بذلك أن يكون رمزاً للخوف والرهبة، أو شبحاً لتخويف الأطفال لما قال: «ولا تكثر اللوم عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام في قلبه»^(٢)، وكأنه يريد من الأب أن لا يتدخل في كل كبيرة وصغيرة، فيسقط وقع الكلام من قلب الصبي، ثم إنه يحذر الأب نفسه من التسلط والملاحقة المستمرة للمخالفات فلا يوبخه إلا أحياناً. فإذا تأملنا كلامه في هذه النصيحة المباشرة منه للأب تبين لنا ما قصده، وهذا القصد يتفق تماماً مع نظرتة لمرحلة (المعاقبة السرية) عند تكرار الصبي للمخالفة. وعلى هذا يمكن أن نعتبر تخويف الصبي بأبيه تخويفاً بافتضاح أمره، وتحذيراً منه وفي ذلك مدعاة للإقلاع عن تلك المخالفة، لأن رب الأسرة - بطبيعة الحال - يجب أن يكون مؤثراً، وإذا فقد قوة التأثير فلن نستطيع أن نتوقع منه تحمل مسؤولياته التربوية الجسيمة أو توجيه الأسرة توجيهاً ناجحاً كريماً.

وهدف العقوبة في نظر الغزالي هو حماية مجموعة التلاميذ المسالمين من شر زملائهم الشريرين أو المشاغبيين الذين لا يلتزمون حقوق الزمالة أو يراعون

(١) علي الجبلاطي، أبو الفتوح التوانسي: دراسات مقارنة في التربية الإسلامية ص ١١٧، ١١٨.

(٢) عارف مفضي البرجس: التوجيه الإسلامي للنشء ص ٩٩.

حرماتها . إضافة إلى أنها تسهم في منع الحوادث المخلة بالنظام وتقلل من أعمال الشغب والإجرام وبالتالي فإنها تمنع سوء السلوك وارتكاب المعاصي لأنها تشعر المذنب بخطئه مما يجعله يتقبل تنفيذ العقوبة بحقه من منطلق العدالة والرحمة التي يلمسها عند المعلم وفي ذلك يقول «وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء»^(١) .

ويلفت الغزالي إلى ضرورة مراعاة ظروف المتعلم وأحواله البدنية والنفسية والعقلية أثناء عملية العقاب لأن ما يمكن أن يكون دواءً لواحد قد يكون داءً لآخر حيث «تختلف أشخاص الناس وحالاتهم على اختلاف قرائحهم وغرائزهم ومقدار قبولهم وعقولهم . . . فإن العسل وإن كان حلواً عند من أفرط عليه البلغم فهو مر عند من أفرطت عليه المرة الصفراء إذ هو في حقه داء»^(٢) .

إذن فالعقوبة عند الغزالي وغيره من علماء المسلمين تقوم على الحماية والمنع والمجاعة والإصلاح «فالأولى تحمي المجتمع من الأضرار والثانية تصلح لمنع الشخص الطاهر القلب الذي يتعظ بحوادث غيره من الإثم والثالثة تجعل العقاب ملائماً للجريمة من غير تفرقة بين شخص أو آخر والرابعة تجعل العقاب مناسباً للجرم بأن تنظر إلى أحوال المذنب وأخلاقه وبيئته والداعي الذي حمله على اقتراف جريمته ، فتعاقب كل مذنب على ما يستحق من عقاب»^(٣) .

وبهذا تكون التربية الإسلامية - التي دعا إليها علماء المسلمين ومن بينهم الغزالي - قد أسهمت إسهاماً فاعلاً في إرساء المبادئ التي يجب أن تقوم عليها العقوبة بروحية منفتحة بعيدة عن التزمّت أو التعصب لمبدأ على حساب الآخر حيث أنها تختار من الكل ما يناسب الكل .

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٧٩.

(٢) الغزالي: معراج السالكين، ص١٥٥.

(٣) محمد عطية الأبراشي: الاتجاهات الحديثة في التربية، ص٣١٣.

الفصل التاسع

الغزالي وأثر الوراثة والبيئة في عملية التربية

- مقدمة
- الإسلام وعوامل الوراثة
- الغزالي وأثر الوراثة في عملية التربية
- الغزالي وأثر البيئة الاجتماعية في العملية التربوية
- الغزالي وأثر الأسرة في العملية التربوية
- الغزالي ودور المعلم في العملية التربوية
- الغزالي ودور العوامل الفردية في العملية التربوية

— مقدمة: —

هناك اتجاهان مختلفان عند العلماء الغربيين لتفسير الظواهر السلوكية لدى الأفراد. بحيث يعزي الاتجاه الأول أسباب هذه الظواهر إلى عوامل وراثية بينما يرى أصحاب الفريق الثاني مرد ذلك إلى عوامل بيئية. ففي الوقت الذي يؤكد فيه علماء الوراثة من أمثال جولتون (Galton) وبيرسون (K. Pearson) على أهمية الوراثة، يؤكد علماء الاجتماع - في المقابل - على أهمية البيئة «وكل من الفريقين ولو أنه على شيء من الصواب، إلا أنه على جانب من الخطأ لا يجوز إغفاله أو السكوت عنه. فلم يكن بيرسون مصيباً تماماً عندما قال: «إن الناس يرثون عن آبائهم القدرة والخجل والمشاعر، والحالات النفسية بالطريقة نفسها التي يرثون بها الشكل، واللون، وطول القامة وغير ذلك. وكذلك هنري جورج لم يصب كبد الحقيقة عندما ذكر أن العوامل الوراثية التي يبالغ الناس الآن في أهميتها لا قيمة لأثرها إذا قورنت بأثر العوامل التي تؤثر في الإنسان، من هذا العالم»^(١). وفي هذا إشارة إلى مدى الخلاف حول أثر العوامل الوراثية والبيئية في السلوك الإنساني.

ويقصد بالبيئة جميع العوامل المحيطة بالإنسان التي تؤثر في نمو شخصيته والبيئة إما أن تكون طبيعية أو اجتماعية. لذلك فإن كل ما يحيط بالإنسان من عناصر مادية من حيوان أو جماد أو نبات يشكل البيئة الطبيعية التي يقع على عاتق

(١) عبد العزيز القوصي: اسس الصحة النفسية، ص ١٤.

الإنسان أن يفهمها كي يتمكن من تكييف نفسه معها.

أما المجتمع البشري الذي يحيط بالإنسان وما يربط بين أفراد هذا المجتمع من صفات مشتركة وعلاقات متبادلة وعادات وتقاليد ونظم متبعة كل ذلك يشكل البيئة الاجتماعية التي يجب على الفرد أن يدركها حتى يتمكن من أن يتكيف مع أبناء مجتمعه بمقتضاها.

أما الوراثة فهي عبارة عن الميل الطبيعي في الفرع لمشابهة أصله في تكوينه الجسماني ووظائف أعضائه. وقال آخرون «إنها مشابهة الفرع لأصله»^(١) فالوراثة إذن هي عبارة عن «جميع العوامل الموجودة في الكائن الحي من اللحظة التي تتم فيها عملية تلقيح الخلية الأنثى بالخلية الذكرية. وقد أثبت علماء الحياة أن بالخلية خيوطاً في شكل العصا إسمها الصبغيات أو الكروموسومات (Chromosomes) وأن هذه الخيوط يمكن تقسيمها إلى مناطق متعددة، وافترضوا على ضوء الحقائق العلمية أن على كل منطقة منها ما يسمى بالجينات (Genes) وأثبت علماء الوراثة أن هذه الجينات هي حوامل الاستعدادات الوراثية فالخلية الناتجة بعد التلقيح تحمل كروموسومات جينات بعضها من ناحية الأم، وجينات بعضها من ناحية الأب ثم تبدأ الخلية تتكاثر مكونة الجنين»^(٢).

ومن أجل أن تنمو هذه الخلية وتتكاثر لا بد من وجود بيئة مناسبة تمدّها بمقومات الحياة. وبيئة الطفل الآدمي هي رحم الأم الذي يتمتع بكافة الشروط المطلوبة لإتمام عملية النمو. «فكأن عوامل البيئة من الخارج وعوامل الوراثة من داخل الكائن الحي تعمل كلها معاً منذ اللحظة الأولى في الحياة ويستمر الكائن الحي ينمو ويتأثر بالظروف المحيطة به، ثم يخرج من الرحم إلى العالم الذي يعيش فيه. وهنا أيضاً ينمو في نواحيه المختلفة نمواً يتأثر بألاف الظروف التي تحيط به»^(٣).

(١) باقر شريف القرشي: النظام التربوي في الاسلام، ص ٥٥.

(٢) عبد العزيز القوصي: اسس الصحة النفسية، ص ١٥ - ١٦.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

ـ الإسلام وعوامل الوراثة:

صحيح أن علماء الوراثة توصلوا إلى حقائق علمية بالغة الأهمية في مجال الوراثة لجهة وجود موجودات دقيقة داخل الكروموسومات تدعى الجينات تقوم بنقل الصفات الوراثية لكن «لم تكن البشرية تجهل قانون الوراثة تماماً فيما مضى بل كانوا يجهلون خصوصياتها. إن علماء الماضي كانوا يعلمون أن في بذرة الزهرة ونواة الشجرة ونطفة الإنسان والحيوان ذخائر تنقل صفات الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة»^(١).

ولقد «اكتشف الإسلام ظاهرة الوراثة قبل أن يكتشفها علماء النفس والوراثة ودلل على كثير من آثارها ومميزاتها وأن لها دخالة إيجابية في التكوين السليم وعدمه للإنسان فهي تؤثر أثراً ذاتياً في الشخص منذ بداية تكوينه»^(٢). فالرسول عليه السلام يقول «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»^(٣). وهكذا وفقاً لهذا الحديث فإن عامل الوراثة يشار إليه بـ«العرق». فدلالة «العرق» في الاختيار تماثل دلالة الجين في هذه الأيام.

فالإختيار للزواج الذي يتحدث عنه الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم على مبدأ الوراثة التي عبرت عنها لفظة «دساس» حيث تشير أن أخلاق الآباء تنتقل إلى الأبناء، بمعنى أنه في حال توفرت في الآباء صفات الصلاح والفلاح والأخلاق الفاضلة، والنزعات الكريمة والميول الحسنة والنوايا الطيبة لا بد وأن يكون للطفل نصيب من ذلك وهو في بطن أمه. وسيكون على عكس ذلك فيما لو طغت نزعات الشقاء على والديه. ولذلك ليس غريباً على المرء أن يكون شقياً أو سعيداً وهو في بطن أمه لقوله صلى الله عليه وسلم «الشقي من شقى في بطن أمه»^(٤).

ويؤكد ما سبق ذكره ما روي عن أبي هريرة أن رجلاً جاء إلى النبي صلى

(١) محمد تقي فلسفي: الطفل بين الوراثة والتربية ج ١، ص ٦٠.

(٢) باقر شريف القرشي: النظام التربوي في الإسلام، ص ٥٩.

(٣) رواه ابن ماجة كتاب النكاح حديث رقم ٤٦، دون قوله فإن العرق وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس «تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس».

(٤) رواه مسلم في كتاب القدر. حديث رقم ٣.

الله عليه وسلم من بني فزارة فقال: إن امرأتي جاءت بولد أسود. فقال: «هل لك من إبل» قال نعم، قال: «ما ألوانها؟» قال: حمر، قال «فهل فيها من أورك؟» قال: إن فيها لورقاء، قال: «فأنا تراه». قال: عسى أن يكون نزعة عرق، قال «وهذا عسى أن يكون نزعة عرق»^(١).

فالحديث يصرح بأن هناك أعراقاً لها وظائفها منها الأعراق الصانعة للصفات العنصرية كلون البشرة ولون الشعر وتجعده، ولون العين وغير ذلك من الصفات. ومجمل القول إن العلم الحديث وافق ما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من كثرة في عدد الأعراق وتأكيد لقانون الوراثة.

ويفضل الإسلام زواج المعروفات بالصفات الحميدة تحسناً للنسل ولقد جاء ذلك واضحاً في قول الرسول الكريم «تزوجوا الودود الولود»^(٢) ليس هذا فحسب بل أن الإسلام لا يتردد في أن يمنع الزواج في حال كانت المرأة مجنونة أو بليدة، وكذلك في حق الرجل. فلقد روي عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال: «إياكم وتزويج الحمقاء فإن صحبتها بلاء وولدها ضياع»^(٣).

ويظهر من خلال هذه النصوص أن الطفل يرث في رحم الأم من صفات الآباء والأمهات وهذا ما يشير إليه «الكسيس كاريل» عندما يتحدث عن ضعف العقل والجنون فرغم عدم إنكاره لأثر البيئة في ذلك إلا أنه يقرر بأن «هذه المؤثرات تكون غالباً جزءاً من الإرث الذي يتلقاه كل فرد عن والديه»^(٤) ومعنى ذلك أن الطفل الذي يكون أبواه مجنونين سيكون محكوماً عليه بالجنون مدى الحياة.

إلا «أن الإسلام في مثل هذه المواقف لا يعطي نظرية محددة على غرار ما

(١) رواه أبو داود في كتاب الطلاق، حديث رقم ٢٨.

(٢) رواه النسائي في كتاب النكاح حديث رقم ١١.

(٣) الكليني الرازي: فروع الكافي كتاب النكاح ج ٥، ص ٣٥٤.

(٤) الكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، ص ١٨٠.

تعطيه الدراسات الإنسانية وإنما يعطي توجيهات عامة وأصولاً لتفكير الإنسان يمكن أن تكون محاو تدور حولها الدراسات والبحوث»^(١).

– الغزالي وأثر الوراثة في عملية التربية:

إنطلاقاً من توجهات الإسلام وتوجيهاته كان للغزالي رأيه في الوراثة وأثرها في العملية التربوية. ولقد جاءت هذه الآراء في إطار نظريته العقدية^(٢).

فالغزالي يرى أن الله تعالى خلق الأشياء وفق نمطين متباينين واحد كامل والآخر ناقص. أي أن من الموجودات «ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله»^(٣) كأعضاء البدن داخلياً وخارجاً. ومنها «ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه»^(٤).

وليس غريباً أن تنقل الموجودات الحية كثيراً من صفاتها وخصائصها إلى الأجيال التي تليها، فالأجيال اللاحقة تكتسب صفات الأجيال السابقة ولذلك «شرط النسب في الإمامة وقيل الإثمة من قریش وكيف لا والأخلاق تتبع الأمزجة وتسري من الأصول إلى الفروع ولذلك قال عليه السلام «تخيروا لنطفكم» وقال «ياكم وخضراء الدمن» وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء»^(٥). فالنواة تحتوي على جميع الصفات المميزة للشجرة التي وجدت منها فعندما تزرع هذه النواة، وتنبت وتشرع بالنمو تظهر تلك الصفات بشكل تدريجي «فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضافت التربية إليها ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية»^(٦).

(١) محمد عبد الستار نصار: «الطفولة في ضوء معطيات الإسلام، مجلة التربية القطرية، السنة التاسعة العدد ٤١، شوال ١٤٠٠هـ - سبتمبر ١٩٨٠م، ص ٧٠.

(٢) انظر البحث: نظرة الغزالي العقدية.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦١.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) الغزالي: ميزان العمل، ص ٧٣.

(٦) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦١.

«وهكذا فالقطعة الصغيرة تشبه أبويها في هيكلها وشعرها ومخالبها، وترث صفات أسلافها. وكذلك الطفل - الذي - يرث المميزات التي يختص بها العنصر الذي ينتمي إليه أبواه في لون البشرة والعيون والشعر ووضع الأنف وما شاكل ذلك»^(١).

وعندما يوصي الغزالي بأن لا يستعمل في حضانة الطفل «وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال»^(٢) فهو لا يقصر دورها على العملية التربوية كمؤثر بيئي وإنما يؤكد على دور الوراثة في عملية بناء شخصية الطفل خاصة وأن الرضاعة التي ستوفرها الممرض في هذه المرحلة تشبه عملية الإدراك والتمييز لأن الغزالي على قناعة من أن «اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث»^(٣). ولطالما أن الأثر الوراثي للمرضع يبلغ إلى هذا المستوى فما بالك بدور الأم في عملية البناء الطبيعي للطفل هذا الدور الذي يمتد إلى تسعة أشهر يكون الطفل خلالها أشبه ما يكون بأحد أعضائها يستمد أسباب سلامته من سلامتها وسقمه من سقمها.

ولذلك «لا يطلب من المرأة إلا الجمال للتحصن وحسن الخلق لتدبير المنزل والديانة للصيانة والنسب الديني فقط فإنه أمانة الديانة وحسن الخلق فإن العرق نزاع»^(٤). ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(٥). فالغزالي يرى ضرورة بأن تكون الزوجة «صالحة ذات دين فهذا هو الأصل وبه ينبغي أن يقع الإعتناء»^(٦) لأن «القاعدة العامة للوراثة تقتضي أن ينجب الأباء المؤمنون والأمهات العفيفات أولاداً طيبين. فهؤلاء يمكن أن يحرزوا السعادة في أرحام أمهاتهم فلا توجد في سلوكهم عوامل الانحراف الموروثة»^(٧).

(١) محمد تقي فلسفي: الطفل بين الوراثة والتربية. ج ١، ص ٥٨.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٧٨.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) الغزالي: ميزان العمل، ص ٨١، ٨٢.

(٥) رواه مسلم في كتاب الرضاع، حديث رقم ٥٣، ٥٤.

(٦) الغزالي: الاحياء ج ٢، ص ٤٢.

(٧) محمد تقي فلسفي: الطفل بين الوراثة والتربية، ص ٨٠.

– الغزالي وأثر البيئة الاجتماعية في العملية التربوية:

يتعرض الإنسان بعد ولادته للعديد من المؤثرات البيئية المختلفة، حيث أنه يمر ببيئات تربوية متعددة ابتداء بالأسرة ومروراً بغيرها من الجماعات كجماعة اللعب والجوار والمدرسة والعمل وغيرها وفي كل هذه المراحل يكون الإنسان عرضة للمؤثرات المختلفة التي تحاول أن تشكل شخصيته وفق العادات والتقاليد التي تنسجم مع نظرة هذه الأطراف إلى الحياة.

فعلى الرغم من قناعة الغزالي بأهمية عامل الوراثة في العملية التربوية إلا أنه يؤمن إيماناً راسخاً بالمؤثرات البيئية في عملية بناء الإنسان لكونه وجد وجوداً ناقصاً ولديه الإستعداد أو القوة للسير باتجاه الكمال في حال توفرت شروطه. ^(١) لذلك فهو يهتم بالطفل من كافة الجوانب التي تساعد على تكوين شخصيته ^(٢).

فالطفولة عند الغزالي تقوم على قاعدة أن «كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أي بالاعتیاد والتعليم تكتسب الرذائل وكما أن البدن في الإبتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية وبالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم» ^(٣).

فالاعتدال وصحة الفطرة هو ما يخلق عليه الإنسان فمن خلال هذا يعكس الغزالي مدى أثر المجتمع على الإنسان الذي قد يستلذ نتيجة الظروف أو العادة الباطل والمقابح ^(٤) على الرغم من أن «ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع» ^(٥). وبالتالي فهو يشبه هذا الأمر بالميل لأكل الطين ^(٦). «فأما ميله إلى

(١) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦١.

(٢) انظر البحث ميادين التربية عند الغزالي.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٤.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني»^(١). ولكن تحت تأثير العادات التي قد يكتسبها الإنسان من المجتمع ينحرف عن فطرته لأن «العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك»^(٢). فتأثير العادة في نظر الغزالي قد يغلب على الصفات الوراثية إضافة إلى أنه قد يحدث وضعاً جديداً يجعل النفس تستلذ بالعادة الباطل وتميل إليه وإلى القبائح. وفي المقابل فإن النفس «ما لم تتعود جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم تواظب عليها مواظبة من يشاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها»^(٣) فإنها لا يمكن أن تحظى بالسعادة التي لا بد وأن تكون من نصيب الصفوة الذين قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم «خير الناس من طال عمره وحسن عمله»^(٤).

وقابلية التغيير عند الإنسان محكومة بنظر الغزالي بعاملين أساسيين الأول «يرتبط باختيار العبد»^(٥) تماماً كانتقاء التربة الصالحة والظروف المناسبة لزراعة بذرة النخيل أو التفاح. والثاني يرتبط بطبيعة الجبلة لأن «الجبلة مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول»^(٦). ويعزي الغزالي هذا الاختلاف إلى سببين:

«أحدهما: قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمراً وأعصاهاً على التغيير قوة الشهوة إذ الصبي في مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز.

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٣.

(٤) رواه الترمذي في كتاب الزهد حديث رقم ٢١، ٢٢.

(٥) الغزالي: الأحياء، ج ٣، ص ٦١.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

والسبب الثاني: إن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً^(١).

وتأثير المجتمع في عملية تغيير الأخلاق لا يكون وفق وتيرة محددة أو نمط محدد حسب ما يشير الغزالي إلى ذلك. وإنما يأتي وفق مراتب أربع تحددها طبيعة شخصية الفرد وتفكيره موضوع البحث. والناس في ذلك على مراتب مختلفة^(٢).

والغزالي عندما تحدث عن آداب الدنيا والدين مطولاً كان من جملة أهدافه أن يوفر لأطفال المسلمين بيئة اجتماعية حافزة على تهذيب الأخلاق سواء عن طريق التعلم أو المخالطة. فلقد كان يدرك أن «النصيحة سهلة والمشكل قبولها لأنها في مذاق متبعي الهوى مرة، إذ المناهي محبوبة في قلوبهم وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمي، ومشتغلاً في فضل النفس ومناقب الدين»^(٣).

ـ الغزالي وأثر الأسرة في العملية التربوية:

«يولد الطفل وله خصائص وراثية، ويكون عند ولادته مجرد كائن بيولوجي أو مجرد فرد. وسرعان ما يبدأ بامتصاص عناصر من ثقافة مجتمعه من خلال اتصالاته المختلفة فيكتسب عادات وتقاليد ومعايير ولغة... وبذا يتحول إلى شخص»^(٤) ويعني هذا القول أن الطفل يولد مرتين أولاً ولادة عضوية وثانيهما ولادة اجتماعية حيث يتحول إلى عضو في جماعة، ومع أن الولادة الأولى ترتبط بمعناصر وراثية إلا أن الولادة الثانية تحصل بشكل تدريجي مستمر ومعقد يساهم فيها كافة المؤسسات الاجتماعية النظامية وغير النظامية منها.

وتشكل الأسرة المؤسسة الاجتماعية الأولى التي يتعرف عليها الطفل، أي

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) الغزالي: إيهام الولد، ص ٩٤.

(٤) هادي نعمان الهيتي: ثقافة الاطفال، ص ١٠٣.

أنها نقطة البدء بالنسبة لعملية التربية عند الأطفال . وهنا تبرز أهمية دور الوالدين في هذه العملية التربوية المصاحبة لنمو الطفل . في وقت يجب أن يدرك فيه كل من الأب والأم أن الطفل «أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهره نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال إليه فإن عود الخير..وعلمه نشأ عليه وسود في الدنيا والآخرة... وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له»^(١).

وفيما يقوله الغزالي تعظيم لمسؤولية كل من الوالد والوالدة تجاه طفلها وذلك لكونه أمانة عندهما يجب عليهما حفظها من كل سوء لقوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(٣).

والوالدان في نظر الغزالي يتحملان مسؤولية ما سيؤول إليه أمر ولدهما خاصة وأنه يولد خالياً من أي نقش ولديه الإستعداد والطوعية الكبيرة لاستيعاب ألوان التربية المختلفة التي قد تقدم إليه إلى جانب القدرة على التشكل حسب ما يريد له أبواه ولذلك يذكر الغزالي بقول الله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْأَ أَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(٤).

والغزالي لا يقف عند حد التذكير بواجبات الوالدين وأهمية دورهما ولكنه يضع مقترحات عملية للأخذ بيد الوالدين ومساعدتهما على القيام بواجباتهما تجاه من يعيلون فينبه إلى أنه «مهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانتته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من

(١) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ٧٨.

(٢) سورة الاحزاب، الآية: ٧٢.

(٣) رواه البخاري في كتاب الشهادات، حديث رقم ٢٨.

(٤) سورة التحريم، الآية: ٦.

القرناء السوء...»^(١). إلى آخر ما هنالك من توجيهات تساعد الوالدين على بناء شخصية طفلهما بالاتجاه الذي يرضي الله ويحقق للطفل والديه سعادة الدنيا والآخرة على قاعدة أن «كل مولود يولد معتداً صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أي بالإعتياد والتعليم تكتسب الرذائل»^(٢). وفي هذا دلالة على أهمية دور الوالدين في هذه المرحلة من مراحل نمو الطفل إذ أنها تعتبر حاسمة في تشكيل شخصية الطفل وذلك لأنها الفترة الأكثر خصوبة وحيوية والتي تنجم عنها ملامح شخصيته، حيث إن نوع التربية التي يتلقاها في هذه المرحلة يتصل في كيان شخصيته ويصعب لا بل يكاد يستحيل تغييره لذا يركز الغزالي على دور الوالدين لجهة بناء شخصيات أبنائهم بناء سليماً يتفق وتعاليم الإسلام.

– الغزالي ودور المعلم في العملية التربوية:

اهتم الغزالي اهتماماً كبيراً بدور المعلم في عملية تغيير الأخلاق، وحمله «مسؤولية كبرى من خلال المنهج الذي رسمه له لغرض تعليم الناشئين وتوجيههم»^(٣) إنطلاقاً من كون التعليم رسالة وليس مهنة لكسب العيش أو اعتلاء المناصب والسعي وراء عرض الدنيا، ولقد سمي القرآن الكريم معلماً هذه الأمة بالربانيين لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾^(٤). جاء في تفسير الطبري أن «الربانيين» جمع رباني وأن «الرباني» المنسوب إلى «الربان» الذي يرب الناس وهو الذي يصلح أمورهم و«يربها» ويقوم بها... و«الربانيون»، إذا هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا ولذلك قال مجاهد «وهم قوم الأحبار» لأن «الأحبار» هم العلماء و«الرباني»، الجامع إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دنياهم ودينهم^(٥).

(١) الغزالي: الاحياء ج٣، ص٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص٦٦.

(٣) عارف مقضي البرجس: التوجيه الاسلامي للنشء، ص١٢٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

(٥) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٦، ص٥٤٣ - ٥٤٤.

فخطورة دور المعلم ناجمة عن جسامته المهمة المناطة به «والمعلم المسلم بجانب وظيفته أو أدبه كمعلم فإن له وظائف وآداباً أخرى في المجتمع من واجبه أن يقوم بها خير قيام. ولن يتحقق صلاحه إلا إذا كان صالحاً فيها جميعاً. . . ولكي ينجح لا بد أن تكون له شخصيته الإسلامية المتميزة»^(١) وأن يتأتى له «من الصفات الروحية أو الإيمانية والصفات الخلقية والنفسية والمزاجية والعقلية والبدنية ما يضمن له النجاح في عمل التعليم وفي الأعمال الأخرى المتوقعة منه في المجتمع»^(٢). لذا فإن من «اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه»^(٣) «ويبدأ بصلاح نفسه»^(٤) ويتحلى بآداب عدة تمكنه من القيام بالوظائف المناطة به ومن هذه الآداب أو الوظائف:

١ - أدبه في علاقته مع المتعلمين:

فلا بد للمعلم أن يجري تلامذته مجرى بنيه انسجاماً مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»^(٥). ليس هذا فحسب بل إن حق المعلم متقدم على حق الوالدين كون المعلم سبب السعادة الباقية والأب سبب السعادة الفانية. وليس غريباً إذاً أن يقر الإسكندر بأن معلمه أكرم عليه من أبيه، عندما سئل عن ذلك^(٦) لأنه «لولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك»^(٧).

٢ - أدبه في طلب الأجر على إفادة العلم:

يعتبر الغزالي أن النية أساساً في العملية التعليمية/ التعليمية فكما «يجب

(١) عمر محمد التومي الشيباني: من أسس التربية الإسلامية، ص ٨٩.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٩.

(٤) الغزالي: الادب في الدين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ٥، ص ٩٢.

(٥) رواه النسائي في كتاب الطهارة، حديث رقم ٣٥.

(٦) الغزالي: ميزان العمل، ص ١٠٨.

(٧) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٩.

تصحيح النية على المتعلم فيجب تصحيحها أيضاً على المعلم بل هو أهم لأن عبادة التعليم أشرف من عبادة التعلم^(١) وفي هذا تأكيد من قبل الغزالي على أن التعليم رسالة انطلاقاً من كونه «عبادة» في الأساس . لذلك ينبغي على المعلم أن لا «يعن على تلامذته بتعليمه حتى ينظر منهم ثواباً وجزاء وخدمة وموالة ونصرة»^(٢) لأن «كل ذلك مما يفسد نية العبادة»^(٣) بناء عليه فإن الغزالي يطلب من المعلم أن «يقتدي بالأنبياء... حيث قدم كل واحد منهم على دعوته قوله»^(٤) ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾^(٥)... «فلا يقول أحد من الأنبياء لقومه اتقوا الله وأطيعون إلا ويقول قبل ذلك»^(٦) ﴿فَأَقْصُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَبَّكُمْ﴾^(٧) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَعْلَمِينَ ﴿١٢٧﴾^(٨) .

«ويذهب الغزالي إلى تسفيه المعلم الذي يأخذ أجراً بتشبيه طالب المال بالعلم كمن «مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه فجعل المخدم خادماً والخادم مخدوماً وذلك هو الإنتكاس على أم الرأس»^(٩) . ويصعد لهجته فيضع المعلم المأجور في صف المجرمين ناكسي رؤوسهم عند ربهم، ويتهم هذه الفئة من العلماء الذين في سبيل الجاه والمال يتحملون أصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات^(٩)، ويدعو إلى نبذهم بقوله «فأخس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحي من أن يقول غرضي من التدريس نشر العلم تقريباً إلى الله تعالى ونصرة دينه»^(١٠) ويعتبر هذا الهجوم على علماء (الدنيا) كما

(١) الغزالي: فاتحة العلوم، ص ١٢.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) سورة هود، الآية: ٥١.

(٦) الغزالي: فاتحة العلوم ص ١٢، ١٣.

(٧) سورة الشعراء، الآيتان: ١٠٩، ١١٠.

(٨) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٧٠.

(٩) الجراية: ما يناله الجندي كل يوم.

(١٠) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٧٠.

يحلوه للغزالي أن يسميهم ملتسقا مع النظرة الشرعية التي كانت سائدة في عصر الغزالي وما قبله وهي التي تحرم وتستشنع أخذ الأجر لقاء التعليم^(١).

٣ - أدبه في التدريس:

على المعلم أن يكون مخلصاً وصادقاً وناصحاً لتلميذه بحيث يراعي التدرج في إيصال المادة العلمية له «وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي»^(٢). وإلى جانب ذلك لا بد وأن يؤكد لتلميذه على حسن النية في طلب العلم «ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرئاسة والمباهاة والمنافسة»^(٣).

٤ - أدبه في التوجيه والإرشاد:

لا يحبذ الغزالي التعاطي السلبي في عملية التوجيه كأن يزجر التلميذ تصريحاً على سوء خلقه. فهو يرى أن القدرة على التوجيه والإرشاد الإيجابي من الكفايات التي يجب أن يتمتع بها المعلم لكونها من «دقائق صناعة التعليم»^(٤). ولذلك كان على المعلم «أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح. وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ»^(٥). ولا يقف الغزالي عند هذا الحد إنما يتابع ليحدد الأسباب التي دعت لانتهاج هذا الأسلوب في تقويم سلوك التلميذ فيعلل ذلك بقوله «إن التصريح يَهْتِك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم ويهيج الحرص على الأصرار»^(٦). ويرى أن التعريض «يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفتن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم إن ذلك مما لا يعزب عن فطنته»^(٧).

(١) أحمد خواجه: الآداب التعاملية في فكر الإمام الغزالي، ص ١٤٣.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٧٠.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع السابق، ص ٧١.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

والغزالي هنا يتحدث كخبير في علم النفس التربوي حيث أن نصيحته «للمعلم بوجوب أخذ المتعلمين باللين والرحمة، والإبتعاد ما أمكن عن التوبيخ والعبارات القاسية واللجوء إلى التلميح بدلاً من التصريح مبدأ تربوياً رسخته الأبحاث التربوية النفسية في مجال التربية والتعليم . . . ومعروف أن أسلوب المعلم اللفظ ولجونه للتوبيخ والعقاب قد يعطل عملية التعلم ويعيقها بدلاً من أن يدفعها إلى الأمام»^(١).

٥ - آدابه في التعاطي مع العلوم التي يشتمل عليها المنهاج:

يمقت الغزالي التعصب لعلم على حساب الآخر. وهو بذلك يعبر عن مصداقية وموضوعية في موقفه من العلوم المختلفة سواء اتسم موقفه منها بالإيجابية أو السلبية. بناء عليه فهو يرى «أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير، وإن ذلك نقل محض وسماع، وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه، ومعلم الكلام يفر عن الفقه . . . فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب»^(٢).

فالغزالي بذلك إنما يعبر عن قناعته بأهمية العلوم على اختلاق ألوانها لذلك فهو يدعو المعلمين للإبتعاد عن تقبيح العلوم التي ليسوا مكلفين في تعليمها في محاولة تهدف إلى «تخفيف غلواء افرتاء بعضهم»^(٣) على العلماء وعدم رميهم بالفساد والتشنيع عليهم مع جلال مهمتهم وعسرها»^(٤).

٦ - أدبه في مراعاة الفروق الفردية عند التلاميذ:

ولقد أخذ الغزالي الفروق الفردية لدى المتعلمين بالأهمية اللازمة. ونادى

(١) احمد خواجه: الاداب التعاملية في فكر الامام الغزالي، ص ١٤٨.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٧١.

(٣) وردت في النص «البعض».

(٤) احمد خواجه: الاداب التعاملية ص ١٥٢.

بوجوب مراعاة ذلك انطلاقاً من إدراكه للسمات المميزة لكل منهم ولكل مرحلة من مراحل النمو فكان أول واجبات المعلم أن يحيط علماً بنوع ومقدار العلوم التي تناسب هذا التلميذ أو ذاك، لذلك فهو يرى أن من أدب المعلم «أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه مالا يبلغه علقه»^(١) عملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم «حدثوا الناس بما يعرفون»^(٢). وفي هذا ترسيخ لمبدأ مراعاة الفروق الفردية عند المتعلمين ولذلك صدق من قال «كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه ويتنفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار»^(٣).

٧ - أدبه في تعايطه مع التلاميذ من ذوي الحاجات الخاصة:

على الرغم من أن هذه النقطة تبدو وكأنها امتداد لسابقتها إلا أنها تميزت بتعرضها لمسألة من أهم المسائل التي شغلت وتشغل بال المربين. فمعالجة موضوع «المتعلم القاصر»^(٤) الذي «ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به»^(٥) مؤشر على مدى وعي الغزالي لمشكلة التلاميذ من ذوي الحاجات الخاصة وأثر ذلك على العملية التعليمية التعلمية. والغزالي بعرضه لهذه المسألة يلفت النظر إلى قضية من أعقد القضايا التربوية التي لا بد من مواجهتها وإيجاد الحلول المناسبة لها. فالقصور سواء أكان بالفهم أم السمع أم النطق أم البصر أم الحركة يحتاج إلى رعاية وعلاج قادرين على إيصال المتعلم إلى شاطئ السلامة لا الندامة، تماماً كما سعى الغزالي لتحقيق ذلك من خلال تحديده لوظائف المعلم المرشد تجاه المتعلم القاصر.

٨ - أدبه في توظيف علمه:

وأخيراً يرى الغزالي أن على المعلم أن يستخدم علمه استخداماً وظيفياً حتى

(١) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٧١.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، حديث رقم ٤٩.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٧١.

(٤) المرجع السابق ص ٧٢.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

لا يبقى هذا العلم مخزوناً أو بضاعة للإستهلاك الكلامي يفقد المعلم مصداقيته ويجعله عرضة للسخرية والاستهتار.

وحيث أن المطلوب أن يكون المعلم عاملاً بعلمه خدمة لمجتمعه ومرضاة لربه يحثه الغزالي على أن يأخذ دوره حتى «لا يكذب قوله فعله»^(١) وذلك لأنه في حال «خالف العمل العلم منع الرشد. وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناوله فإنه سم مهلك، سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقولون: لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كا يستأثر به. ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينقش الطين بما لا ينقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج؟»^(٢) يقول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٣) «ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به. ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها. ولذلك قال علي رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان، عالم متهتك وجاهل متنسك، فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه. والله أعلم»^(٤).

– الغزالي ودور العوامل الفردية في عملية التربية:

تعد هذه العوامل نتاج تفاعل بين العناصر الوراثية والبيئية على حد سواء. وذلك لأنها تأتي على شكل ممارسات وسلوكيات نابعة عن شخصية تحددت بفضل ما ورثه صاحبها. من سمات وصفات إلى جانب ما طبع به من مؤثرات بيئية. لذلك تعتبر السلوكيات الفردية للمتعلم من أبرز المؤثرات في العملية التربوية. ولقد كان ذلك واضحاً في كلام الغزالي عندما تحدث في كتاب (العلم) عن هذه العوامل فيما أشار إليه بآداب المتعلم.

(١) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٧٢.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٥٥.

(٤) الغزالي: الاحياء ج ١، ص ٧٢.

وطالب العلم الذي يتحدث عنه الغزالي في هذا الباب «ليس هو ذلك الطفل الذي لا يعي ولا يدرك، ويقع على الأهل والمعلم اختيار الطريق له وتقديم ما ينفعه، إنه الطالب البالغ الراشد والذي أصبح مسؤولاً عن بعض الواجبات الدينية التي تقع عليه موقع فرض العين»^(١) فهو «الإنسان الذي أصبح قادراً على اختيار الطريق ومديركاتها»^(٢).

وبناء عليه جاءت آراء الغزالي في مجال آداب المتعلم متناسبة «مع هذه النظرة للطالب وللعلم الذي هو عمل ونظر معا»^(٣). ولقد تحدث الغزالي عن هذه الآداب على ضوء منهجه وأهدافه التربوية، حيث أوردها في عشر وظائف هي:

١ - أدب المتعلم مع نفسه:

تعتبر هذه الوظيفة من أهم وظائف المتعلم التي يفترض به التنبيه إليها. ولقد حدد الغزالي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه هذه الوظيفة فحصر ذلك بالطهارة انطلاقاً من فهمه للإسلام الذي بني على الطهارة التي لا يمكن أن تتم إلا بتطهير الظاهر والباطن «وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح إلا بتطهير الظاهر من الأحداث والأخبار فكذلك لا تصح عبادة وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف»^(٤). ولقد جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾^(٥) ضمن هذا الإطار «تنبيهاً للعقول على الطهارة والنجاسة»^(٦) من خلال الإشارة إلى أن «الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر»^(٧). فالنجاسة ضمن هذا الإطار «عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه»^(٨).

(١) عبد الأمير شمس الدين: التربويات في الفكر العربي الاسلامي، ص ٩٧.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٢.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٦) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٢.

(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٨) المرجع نفسه والمكان نفسه.

لذلك فإن «خبائث صفات الباطن أهم بالإجتنب»^(١).

فإذا كانت الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب حسب الحديث الشريف «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب»^(٢) فكيف ستنزل في «القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا والتكلم عليها»^(٣) خاصة وأن «الصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة»^(٤) فأنتى للملائكة في مثل هذه الحال أن تدخل مثل هذا القلب المشحون بالكلاب في الوقت الذي هو معلوم فيه أن «نور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة»^(٥) لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾^(٦). ولذلك رأى الغزالي أن وظيفة المعلم الأولى هي «تقويم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف»^(٧). لأن صلاح القلب ضرورة حتمية لمن أراد أن يفيد من علمه تصديقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(٨).

فثمرة العلم لا تكون إلا من نصيب من طهر قلبه من الخبائث والنواقص. والعلم ما كان ولن يكون بكثرة الرواية أو الحفظ والفهم وإنما بما يعود على صاحبه من خلال توصيله إلى الله تعالى والخشية منه، هذا إلى جانب نشره تعميماً للفائدة والخير على الناس.

٢ - أدب المتعلم في رسم علاقته:

يرى الغزالي في هذا المجال أن العلم بحاجة إلى تفرغ ويستلزم من صاحبه

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق حديث رقم ١٧.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٢.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٧) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٣.

(٨) رواه البخاري في كتاب الايمان حديث رقم ٣١.

تضحيات جسام تصل لدرجة مفارقة الأهل والأوطان. فعلى المتعلم «أن يقلل علائقه من الإشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة»^(١). لقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾^(٢).

«وهذه الوظيفة أو هذا الشرط كما نرى هو من الشروط القاسية في حق المتعلم، لأن الإبتعاد عن الأهل والوطن وما يستتبع ذلك من إنشغال بعلائق الدنيا من أصعب الأمور على الإنسان وتجربة الغزالي في هذا المضممار غنية فقد وصف معاناته الصعبة عندما ترك الأهل والجاه والتعليم وانصرف إلى أقطار بعيدة للتعلم والتفقه»^(٣). ولم يكن ذلك غريباً على من كان طالباً للعلم في ذلك العصر.

وحاصل القول، كي يصل المتعلم إلى مبتغاه لا بد وأن يتفرغ لطلب العلم «لأن العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك... والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ الزرع»^(٤).

٣ - أدب المتعلم في علاقاته مع معلمه:

ينطلق الغزالي في حديثه عن الوظيفة من خلال فهمه للتعليم وتحديد أهدافه انطلاقاً من كون التعليم رسالة ترتب على صاحبها «أن يقتدي بصاحب الشرع»^(٥) وأن يكون عمله «لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه»^(٦). لذلك فإن التواضع والإمتثال للمعلم من الخصال التي على المتعلم أن يتخلق بها، على اعتبار أن العلم لا ينال إلا بالتواضع وإلقاء السمع، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(٧) «ومعنى كونه ذا

(١) الغزالي: الاحياء ج ١، ص ٦٢.

(٢) سورة الاحزاب، الآية: ٤.

(٣) احمد خواجه: الاداب التعاملية في فكر الامام الغزالي، ص ١٣٤.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٣.

(٥) المرجع السابق، ص ٧٠.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٧) سورة ق، الآية: ٣٧.

قلب أن يكون قابلاً للعلم فهماً، ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما ألقى إليه بحسن الأصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة. فليكن المتعلم لعلمه كأرض دمثة نالت مطراً غزيراً وأذعنت بالكلية لقبوله»^(١).

فعلى طلب العلم أن «لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على معلم بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته»^(٢). وأخيراً يقرر الغزالي بأن «كل متعلم استبقى لنفسه رأياً واختياراً دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران»^(٣).

٤ - أدب المتعلم في التعرض لاختلافات الناس ومذاهبها:

ينصح الغزالي المتعلم في بداية طريقه أن يتجنب الخوض في الاختلافات - سواء كان ذلك متعلقاً بعلوم الدنيا أم الآخرة - مخافة أن تختلط عليه الأمور فيحار أو يفتن وبالتالي لا يعود قادراً على إدراك الأمور بوعي وبصيرة. لذلك يرى الغزالي أن المتعلم «ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب والشبه»^(٤). وفي حال كان من عادة أستاذه النقل عن المذاهب وما قيل فيها عليه أن يحذر منه. لأن خطره في هذه الحال أكبر من نفعه وقد يقوده إلى الضلال لا إلى الرشاد وفي هذه الحال يكون مثله كمثل الأعمى. ومن قال أن الأعمى يصلح لقود العميان وإرشادهم^(٥).

«وهذا يتفق ونظرة الغزالي إلى العلم - وإلى كل شيء في الدنيا - فالعلم عند الغزالي يجب أن يكون في سبيل الله وفي سبيل النجاة في الآخرة، لذلك على

(١) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٤.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

المتعلم أن لا يتقلب بين المذاهب وأن لا يمحض الآراء، بل عليه أن يركن إلى عالم تقي يرشده إلى معالم الهدى ويوقيه التقلب بين مذاهب المتكلمين والفلاسفة، والمعروف أن الغزالي ناهض الفلسفة لأنها خطر على الدين»^(١).

٥ - أدب المتعلم في التعاطي مع العلوم المحمودة:

يدعو الغزالي طالب العلم التبحر في العلوم المحمودة انسجاماً مع الأهداف التي حددها ويريد تحقيقها... فالشخصية الإسلامية المتميزة - المنسجمة مع نفسها وبارئها والناس - التي سعى لإيجادها لا بد وأن تكون مثقفة ثقافة عالية كي تتمكن من القيام بمهامها والوفاء بالتزاماتها. لذا كان من الواجب حث طالب العلم على التبحر في العلوم حتى «لا يدع فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طاب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية»^(٢). هذا من جهة ومن جهة أخرى فالغزالي يدرك أنه لا يمكن فصل العلوم عن بعضها، علاوة على أن الجهل بشيء منه قد يقود إلى اتخاذ مواقف خاطئة لا تستند إلى معيار العلم والمعرفة وهو ما أراد أن يجنب طالب العلم منه ولقد كان واضحاً في ذلك عندما قال «إن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال الإنفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله، فإن الناس أعداء ما جهلوا»^(٣).

والعلوم المحمودة حسب الغزالي على درجات فإما أن تكون سالكة بالمتعلم إلى الله تعالى وإما أن تكون معينة على ذلك.

٦ - أدب المتعلم في البحث والتحصيل:

لقد جاء تقسيم الغزالي للعلوم على ضوء الأهداف التي وضعها نصب عينيه. ولذلك قرر بأن العلوم مراتب وأن هناك علوماً مهمة وأخرى أهم مما

(١) احمد خواجه: الآداب التعاملية في فكر الامام الغزالي ص ١٣٥.

(٢) الغزالي: الإحياء ج ١، ص ٦٥.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

يوجب على المتعلم «أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة واحدة بل يراعي الترتيب ويبتديء بالأهم»^(١) فالعمر قصير وغالباً ما يكون عاجزاً عن الإتساع لجميع العلوم لذلك فالمتعلم مطالب «أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمعة ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة»^(٢) الذي يقصد به علمي المعاملة والمكاشفة حيث أن «غاية المعاملة المكاشفة، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى»^(٣). والغزالي بهذا إنما يضع بين يدي المتعلم المنهجية التي تمكنه من تحقيق الأهداف التي خطط لها وسعى لتحقيقها وفق منهج واضح المعالم ومحدد الأهداف.

٧ - أدب المتعلم في الانتقال من فن لآخر:

وتندرج هذه الوظيفة في إطار منهجية البحث والتحصيل حيث أن الغزالي يتابع تصنيفه للعلوم حسب أولوياتها وفق ما يخدم أهدافه في تحقيق سعادة الدنيا والآخرة. لذلك فهو يرى أن من واجب المتعلم «أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج»^(٤).

٨ - أدبه في التمييز بين العلوم:

يريد الغزالي من المتعلم أن يعي الأسباب التي يعتبرها أساساً في عملية التمييز بين علم وآخر وذلك لعاملين «أحدهما شرف الثمرة، والثاني وثاقة الدليل وقوته»^(٥) ويمثل على ذلك بعلم الدين والطب والحساب والنجوم فيقول إن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمره الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف»^(٦). أما

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) الرجوع السابق، ص ٦٦.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

بالنسبة لوثاقة الدليل فيقول «إن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها»^(١) وفي حال «نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار أدلته»^(٢) إلا أن «ملاحظة الثمرة أولى، ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين»^(٣) وعلى ضوء هذه القناعة يقرر الغزالي «أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصول إلى هذه العلوم»^(٤). ومن ثم يختم موجهاً النصيح لتلميذه حاثاً إياه على التمسك بأشرف العلوم وأن لا يرغب إلا فيه وأن لا يحرص إلا عليه.

٩ - أدب المتعلم في تحديد أهدافه:

يؤكد الغزالي على أهمية المقصد والهدف شريطة أن لا يكون ذلك على حساب علوم دون الأخرى. ولئن كان ينظر إلى علم الآخرة على أنه أفضل العلوم إلا أن ذلك لا يبيح الاستخفاف بباقي العلوم لأن لكل منها أهمية خاصة لا يجوز إغفالها بحال من الأحوال. وعلى المتعلم أن لا يفهم من غلو الغزالي في الشناء على علم الآخرة أن في ذلك تهجيناً لباقي العلوم «فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة والمجاهدين في سبيل الله فمنهم المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذي يسقيهم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم. فكذلك العلماء»^(٥). فالقضية في جوهرها بالنسبة للغزالي تحديد الهدف أي النية والمقصد ولكن على أساس نظرة موضوعية للعلوم كل حسب مرتبته في خدمة الهدف لذلك فإن «استحقاقنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر»^(٦) لأن

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع السابق، ص ٦٦، ٦٧.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

الله لا يضيع عمل عامل ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ (١). «ومن قصد الله تعالى بالعلم أي علم كان نفعه ورفعته لا محالة» (٢).

١٠ - أدب المتعلم في تحديد نسبة العلوم إلى المقصد:

يخشى الغزالي من الخلط بين العلوم وبينه المتعلم إلى ضرورة «أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد، والمهم على غيره» (٣) وفي هذا السياق يعتبر الغزالي أن «العلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم . . . على ثلاث مراتب» (٤). ولتقريب وجهة نظره يمثل على ذلك بإداء فريضة الحج معتبراً أن علوم هذه الفريضة ثلاثة أقسام «قسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات، وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين، فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله. وكما لا يغني علم وطرق البوادي دون سلوكها كذلك لا يغني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن. وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحج وأركانه وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله . . . والنجاة حاصلة لكل مالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة» (٥).

«وهكذا يكون قد انتظم عقد وظائف المتعلم عند الغزالي وهي وظائف متداخلة متشابهة عنوانها الرئيسي: التحلي بالفضائل والإبتعاد عن الرذائل وغايتها ومقصودها التوجه كلية نحو الباري عز وجل وترك الدنيا وأهوائها، وهذا يتسق مع

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ و ٨.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٧.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

النظرة المثالية العامة للغزالي في كافة الأمور الحياتية والدينية»^(١). إلا أن مثالية الغزالي ليست خيالية وإنما واقعية من نوع خاص أصولها من واقع عاشه المسلمون وشهده العالم مع بزوغ فجر الإسلام حيث جسد الرسول ذلك واقعاً ملموساً واستمر حتى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبذلك يكون الغزالي قد حدد قدر الإمكان مدى تأثير كل من العوامل الوراثية والبيئية في العملية التربوية. على أساس أن سعادة الإنسان أو شقاءه هو نتاج عوامل وراثية وبيئية مما يقودنا إلى القول: «إن الفروق بين الأفراد ترجع إلى مجموعتين من العوامل: المجموعة الأولى من الاستعدادات الوراثية الكامنة في الجينات والمجموعة الثانية هي مجموعة الظروف المحيطة بالفرد من تغذية وحرارة ومعاملة ووقاية وتعليم... وغير ذلك ومن المستحيل الفصل إلا نظرياً بين هذه العوامل»^(٢).

فالوراثة والبيئة كما يفهم مما جاء في كلام الغزالي تشكلان العاملان الأساسيان المتلازمان في حياة كل فرد من الأفراد بحيث تحدد الوراثة العوامل الثابتة في شخصية الفرد بينما تحدد البيئة العوامل المتغيرة ومهما كان مستوى تغيير وتطور البيئة فإنها لا تنتج ما يناقض الوراثة التي تشكل عنصراً ذاتياً ليس موضوعاً لأي تغيير أو تبديل. فنواة النخيل كما سبق وقال الغزالي «لا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربة»^(٣). والغزالي بهذا الكلام يرد رداً مقنعاً على من اتهموه بالتناقض مع نفسه في موضوع وراثة الأخلاق^(٤).

(١) احمد خواجه: الاداب التعاملية في فكر الامام الغزالي، ص ١٤١.

(٢) عبد العزيز القوصي: اسس الصحة النفسية، ص ١٦.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦١.

(٤) زكي مبارك: الاخلاق عند الغزالي، ص ٧٨.

الفصل العاشر

سمات التربية الإسلامية كما عبر عنها الغزالي

– مقدمة

– الغزالي والسمات المميزة للتربية الإسلامية لجهة كونها

١ – سلوكية (عملية).

٢ – شاملة تكاملية.

٣ – متوازنة.

٤ – فردية واجتماعية.

٥ – مستمرة.

٦ – متدرجة.

— مقدمة:

إن ما عكسته الصفحات السابقة يؤكد على حقيقة أن التربية عملية اجتماعية. ولقد تجلّى ذلك واضحاً من خلال الأهداف التي سعى الغزالي لتحقيقها. حيث أنه اشتق أهدافه من حاجات وتوجهات المجتمع الإسلامي للكون. لذا فالفكر التربوي عند الغزالي لا يمكن فهمه بمعزل عن التصور الإسلامي والإنسان والحياة. فهو كغيره من المفكرين المسلمين الذين نشأوا في بيئة اجتماعية معينة وتفاعلوا مع مشكلاتها ثم حاولوا أن يرتفعوا فوق هذه المشكلات فكرياً وتنظيماً محاولين أن يجدوا لها الحلول المناسبة.

وعندما يستمد المفكر تفسيره للكون والإنسان والحياة من الدين، ليس غريباً أن يتغيا الدين في ذاته وأن يجعل من التربية وسيلة لتحقيق أهدافه وغاياته. لذا فقد كان الغزالي منسجماً مع نفسه كل الانسجام عندما جعل الأهداف الدينية غاياته التربوية التي سعى لتوجيه عقول الناشئة وقلوب الشباب إليها، على قاعدة أن الإسلام منهج حياة، لذلك فإن الفكر التربوي عند الغزالي ليس تحليقاً في آفاق من الخيال كما يحاول أن يذهب بعضهم خطأ، خاصة وأن هذا الفكر يتصل بواقع معين محاولاً أن يرقى به لمستوى رفيع ذي أوصاف معينة.

وبأيجاز يمكن القول بأنه لا يمكن فهم الفكر التربوي عند الغزالي دون فهم العقيدة الإسلامية التي شكلت الإطار العام لنظرة الغزالي العقدية التي انطلقت منها وعلى أساسها أفكاره التربوية.

ولقد استلهم الغزالي آراءه التربوية من خلال فهمه للتصور الإسلامي، حيث جاءت نظراته العقدية انعكاساً لهذا التصور الذي أكسب رسالته التربوية مجموعة من الخصائص التي شكلت بمجملها مذهبه التربوي.

وتعتبر آراء الغزالي في هذا المجال محاولة إنسانية جادة للفهم جاءت في إطار الأصول والنصوص الثابتة، بحيث تبقى هذه الإجتهاادات والتصورات معرضة للتعديل والتطوير بما لا يتعارض مع الأصول الموجودة في نصوص الوحي المنزل - وهي القرآن الكريم - وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبما أن «طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة لا تترك منه شيئاً ولا تغفل عن شيء»^(١) إضافة إلى أن الإسلام «يأخذ الكائن البشري كله... بفطرته التي خلقه الله عليها... ولا يفرض عليها شيئاً ليس في تركيبها الأصيل»^(٢). فمن الطبيعي إذن أن يكون الإسلام «نظام النظم حيث أنه يندرج تحته عدة نظم، ففيه نظام للإقتصاد ونظام للسياسة ونظام للإجتماع، ونظام للتربية»^(٣). وبناء عليه فإن الإسلام «قد حدد معالم النظم الأصغر التي تندرج تحته»^(٤) ومنها نظامه التربوي الذي تميز بمجموعة من الخصائص التي حددتها أصوله العقدية والتي عبر عنها عدد كبير من علماء المسلمين ومن بينهم الإمام الغزالي الذي أكد بدوره على هذه السمات التي ميزت منهج التربية الإسلامية عن غيره من المناهج.

– الغزالي والسمات المميزة للتربية الإسلامية:

إن التصور الإسلامي للكون والإنسان والمجتمع انعكس على التربية الإسلامية ولذلك كان من الطبيعي أن تتسم هذه التربية بعدد من الخصائص التي

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج ١، ص ١٨.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) محمد سيف الدين فهمي: النظرية التربوية وأصولها الفلسفية والنفسية، ص ٦٥.

(٤) علي أحمد مذكور: منهج التربية في التصور الإسلامي، ص ٢٧.

تشكل في مجموعها الإطار الحضاري لهذه التربية ولقد جهد الغزالي وغيره من علماء المسلمين في أظهر هذه السمات التي تعتبر الأسس التي تستند إليها هذه التربية ومنها أن التربية الإسلامية تربية:

١ - سلوكية (عملية):

إن العمل في نظر الإسلام هو الذي يعطي للإنسان قيمته . ودليل عظمة العمل وجلال شأنه اشتغال القرآن الكريم على ٣٦٠ آية تتحدث عن العمل^(١) . ويشير القرآن الكريم أيضاً إلى دور الأنبياء والمرسلين في مجالات العمل بدءاً بنوح وانتهاء بمحمد عليهما السلام .

ومحمد صلى الله عليه وسلم عمل راعياً وتاجراً ورفض أن يترك العمل حتى بعد أن بعث رسولاً لأنه يرى في العمل شرف وحق وواجب وحياء . ولقد أعطى للعمل مضامينه الحقيقية . وبين لأتباعه أنه سبب الجزاء ووسيلة التفاضل بين بني البشر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) .

وإتقان الإنسان لعمله يكسبه قيمة بين الناس ويرقى به في مجتمعه وعند بارئيه، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لِّئَلَّا لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩) ﴿وَأَنْ سَعَيْهُمْ سَوْفَ يُرَى﴾ (٤٠) .

ويضرب الله لنا الأمثال التي تحثنا على العمل والحركة حتى نعيش حياة طيبة كريمة قال تعالى: ﴿لَمْ دَعَوْهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاَهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (١٤) . فالإنسان وإن أخذ الماء بكفه فإنه ما لم يحركها باتجاه فمه ستستمر

(١) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس .

(٢) سورة الزلزلة، الآيات: ٧، ٨ .

(٣) سورة النجم الآيات: ٣٩، ٤٠، ٤١ .

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٤ .

معاناته من العطش ويمكن أن يموت من الظمأ والماء بين يديه إذ لا بد من العمل والحركة باتجاه هادف حتى يصل الماء للظم ويتمكن من إرواء ظمئه. ويحث الرسول الكريم بدوره على احترام العمل والسعي إليه فيقول «خير الكسب كسب يده»^(١).

يتضح مما سبق قيمة العمل في ميزان الإسلام وتقدير الرسول الكريم للعاملين المخلصين الذين قال فيهم رب العالمين ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(٢) فلقد أراد القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين تربية أدائية عملية تقوم على الخبرة والعمل سواء في العبادات أم المعاملات بحيث يكتسب الفرد المسلم خبرات خلقية جديدة وعادات تنسجم مع تعاليم الإسلام ونظرتة إلى الكون والإنسان.

فالتربية الإسلامية ليست تربية فكرية وليست تربية وجدانية وليست إرادية فحسب، ولكنها هذه الثلاث مجتمعة. ففي مكة المكرمة كان الإيمان غذاء للروح والوجدان، علم المسلمين الصبر ومنحهم الأمل وعلى هذه القاعدة جاءت تربية أصحاب الرسول رضوان الله عليهم أجمعين. فكانوا قدوة في الإخلاص لدينهم والصبر على المكاره. فبلال بن رباح مثلاً لم تنل الرمال الحارة ولا الحجارة الكبيرة التي كانت توضع على صدره من إيمانه، إنما زادتة تمسكاً بالإسلام وإصراراً على قول «أحد... أحد».

ففي كل هذا تأكيد على أن التربية الإسلامية «تربية عملية تتحول بها الكلمة إلى عمل بناء أو إلى خلق فاضل أو إلى تعديل في السلوك على النحو الذي يحقق وجود ذلك الإنسان كما تصوره الإسلام»^(٣). فهي أي التربية الإسلامية «لا تكتفي بالقول وإنما تتعداه إلى العمل والممارسة ونحن إذا نظرنا إلى المبادئ الرئيسية الخمسة التي بنى عليها الإسلام نجد أنها تتطلب سلوكاً عملياً فالشهادة بوحداية

(١) رواه احمد في المسند، ج ٢، ص ٣٣٤، ٣٥٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٣٠.

(٣) عبد الغني عبود: في التربية الاسلامية، ص ١٥٧.

الله ونبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان كلها تتطلب سلوكاً عملياً. ومن تمام كمال الإنسان المسلم أن تتطابق أقواله مع أفعاله. كما اهتمت التربية الإسلامية بتكوين العادات السلوكية الحسنة عند الفرد منذ طفولته الأولى لما في هذه العادات من أثر طيب في اكتساب الفضائل والبعد عن الشرور والردائل^(١).

ولقد اهتم علماء المسلمين ومنهم الغزالي بهذا الجانب من جوانب التربية الإسلامية، إيماناً منهم بأنه ما لم يتحول العلم إلى عمل يكون وبالاً على صاحبه إذ يجب «أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به»^(٢) لقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٣) وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٤) وكذلك في مخاطبته تعالى لعيسى عليه السلام «يا ابن مريم عظم نفسك فإن اتعظت فعظم الناس وإلا فاستحي مني»^(٥). وقال أبو الدرداء رضي الله عنه «ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات»^(٦) وقال حاتم الأصم رحمه الله «ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علماً فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو»^(٧). وعن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعلموا»^(٨). وعن عيسى عليه السلام أنه قال «مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثلي امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضح الله تعالى يوم القيامة على رؤوس

(١) محمد منير مرسى: التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، ص ٦٣.

(٢) الغزالي: الإحياء، ج ١، ص ٧٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٤) سورة الصف، الآية: ٣.

(٥) الغزالي: الإحياء، ج ١، ص ٧٨.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٨) رواه الدارمي في المقدمة، حديث رقم ٧.

الأشهاد»^(١). وجاء في التوراة والإنجيل «لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم»^(٢).

فالغزالي يورد كل هذه الشواهد ليؤكد على قناعته بضرورة ربط القول بالفعل والعلم بالعمل. ولقد كان هذا من جملة الأسباب التي جعلته يتخذ موقفاً سلبياً من الفلاسفة. لذلك فهو يذكر طالب العلم بأنه على خطأ فيما لو اعتقد بأن نجاته في «العلم المجرد»^(٣) و «أنه مستغن عن العمل»^(٤) لأن «هذا إعتقاد الفلاسفة». ولذلك فهو ينبه كل طالب علم «إنه حين حصل العلم إذا لم يعمل به تكون الحجة عليه أكد»^(٥) تصديقاً لقوله صلى الله عليه وسلم «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»^(٦).

«وعيب الفلاسفة هنا كما يراه الغزالي هو (شطحاتهم) التي تبعد بهم عن الحق سواء في نظرتهم إلى الإنسان أو في نظرتهم إلى الكون والحياة أو في نظرتهم إلى أمور تتصل في الحياة اليومية كالعلم والعمل وما بينهما من علاقة. . . إنهم يثقون ثقة مطلقة في عقولهم فتكون النتيجة ضلالهم وبعدهم عن جادة الصواب»^(٧).

فالعلم لا بد وأن يحدث تغييراً في سلوك الفرد المتعلم خاصة عندما نعلم أن الإيمان في الإسلام هو ما قر في القلب وصدقه العمل. ويمثل الغزالي على ذلك فيقول «لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوي يكون علاجه بالسكنجبين والكشكاب، فلا يحصل البرء إلا باستعمالهما. . . ولو قرأت العلم مائة سنة وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعداً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل»^(٨) تصديقاً

(١) الغزالي: الإحياء، ج ١، ص ٧٩.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) الغزالي: أيها الولد، ص ٩٤، ٩٥.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) رواه البخاري في كتاب اللباس حديث رقم ٨٩.

(٧) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي، ص ٦٩.

(٨) الغزالي: أيها الولد، ص ٩٨، ٩٩.

لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (١).

وبناء عليه يقرر الغزالي أن العلم المجرد عن العمل كارثة ووبال على صاحبه. «لأن المنزلة التي احتلها العلماء في الإسلام لم يحتلوها لمجرد علمهم بل لما يترتب على هذا العلم من آثار حيث يكون العالم أقدر على القيام بمهام الإستخلاف من الجاهل» (٢).

ولو نظرنا إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه» (٣) لأدركنا مدى المسؤولية والتبعة الملقاة على العالم الذي أوجب عليه الإسلام أن يكون عاملاً بعلمه. ولذلك فإن العالم الكافر أبعد ما يكون عن الله يوم القيامة وذلك بسبب خطورة دوره حيث أن «العالم الفاسد أكثر فتكاً بالمجتمع من الجاهل الفاسد إذ أن ضرر الثاني محدود، لا يتجاوز حدود أفراد معينين. أما العالم الفاسد فإنه يستطيع أن يفسد المجتمع بأسره بل المجتمعات بأسرها» (٤).

وعلى قاعدة الإيمان باليوم الآخر يعتبر العمل الميزان في القرب من الله أو البعد عنه لذلك فإن الغزالي يذكر تلميذه وينبهه إلى أن «العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون. واعلم أن علماً لا يبعدك اليوم عن المعاصي ولا يحملك على الطاعة لن يبعدك غداً عن نار جهنم وإذا لم تعمل اليوم ولم تدرك الأيام الماضية تقول غداً يوم القيام: ﴿فَاتَّجَعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾» (٥) فيقال يا أحمق أنت من هناك تعجيء» (٦).

فالمسألة في نظر الغزالي ليست مسألة فكرية أو علمية. كما أنها ليست

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي ص ٧٤.

(٣) رواه البخاري في كتاب اللباس، حديث رقم ٨٩.

(٤) مقداد بالجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، ص ١٠١.

(٥) سورة السجدة، الآية: ١٢.

(٦) الغزالي: أيها الولد، ص ١٠٨، ١٠٩.

مجرد مقارنة بين من يعلم ومن لا يعلم إنطلاقاً من قناعته بأن التربية لا بد وأن تحدث تغييراً في اتجاهات الفرد ومواقفه. ولذلك فهو يحكم على العلم بمقدار انسجامه مع الشرع، وفعاليته وقدرته على إحداث التغيير المرغوب فيه وفقاً لنظرة الإسلام للإنسان ودوره في هذه الحياة. لذلك كان موقف الغزالي مع تلميذه حاسماً عندما قال له «ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة»^(١).

وبهذا يكون الغزالي قد وضع معيار العلم النافع والتغيير السلوكي المرغوب فيه قناعة منه بأن التربية يجب أن تكون عملية سلوكية قادرة على أن تحدث تغييراً أو تعديلاً في سلوك الإنسان بما لا يتنافى مع الشريعة الإسلامية المستوحاة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة «لأن علم وعمل المخلوقات بغير فتوى المصطفى صلى الله عليه وسلم ضلالة وسبب للبعد عن الله تعالى»^(٢).

٣ - شاملة تكاملية:

إن نظرة الغزالي العقدية التي استمدتها من التصور الإسلامي للكون والإنسان تعتبر وجهاً من وجوه التعبير عن نظرة الإسلام للكون والإنسان «فالإنسان الفرد وحدة متكاملة وقواه المختلفة موحدة الإتجاه. فهو ليس جسماً مستقلاً لذاته عن الروح والعقل. وليس عقلاً منفصلاً لا علاقة له بالجسم والروح. وليس روحاً هائمة بلا رباط من عقل وجسم، بل هو كيان واحد متكامل الأجزاء»^(٣). «وهكذا فإن المفهوم الواقعي للطبيعة الإنسانية يجد مصداقية في التعاليم الأخلاقية الإسلامية التي تؤلف بين البدن والروح في دعوة واحدة إلى الكمال والتي تمزج في نفس الممارسة الدينية بين نظافة البدن وطهارة النفس»^(٤).

لذلك فإن التربية الإسلامية «لا تقتصر على جانب واحد من شخصية

(١) المرجع السابق، ص ١١٧.

(٢) الغزالي: خلاصة التصانيف في التصوف، مجموعة رسائل الامام الغزالي، الجزء ٢، ص ١٤٠.

(٣) علي أحمد مذكور: منهج التربية في التصور الاسلامي، ص ٧٩.

(٤) أحمد عروة: الإسلام في مفترق الطرق، ص ٥٦.

الإنسان»^(١) لأنها «ترفض النظرة الثنائية إلى الطبيعة الإنسانية التي تقوم على التمييز بين العقل والجسم وسمو العقل على الجسم وإنما هي تنظر إلى الإنسان نظرة متكاملة تشمل كل جوانب الشخصية. فهي تربية للجسم وتربية للنفس والعقل معا»^(٢).

وتتميز العقيدة الإسلامية عن المسيحية واليهودية بنظرتها المتكاملة والشاملة إلى الإنسان. فالإسلام «هو التركيب الجدلي الجامع بين النقيضين: المادية اليهودية والروحانية المسيحية في وسط معتدل»^(٣).

لذلك فإن «تكامل جوانب الشخصية الإنسانية في مفهوم التربية الإسلامية يتفق مع تصور الإسلام لوحدة الإنسان الفرد ووحدة الإنسانية جمعاء»^(٤). فكل جانب من جوانب الشخصية الإنسانية يؤثر سلباً أو إيجاباً في الجانب الآخر ويتأثر به فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(٥). ومن الأدلة على أهمية الجسم في التربية الإسلامية إقرار الرسول صلى الله عليه وسلم لما قاله سلمان الفارسي لأبي الدرداء «إن لبدنك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه»^(٦).

وإلى جانب كون التربية الإسلامية تربية للجسم والروح فهي أيضاً تربية للعقل فالإسلام «جعل الكون وجعل الحياة والأحياء من بين مصادر المعرفة بهذا الإنسان»^(٧) ولقد وجه الإنسان «إلى استخدام العقل للمعرفة إما بتدبر آيات الله في الكون وإما بتدبر حقائق الوحي وحقائق الحياة»^(٨) يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي

(١) محمد منير مرسى: التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، ص ٥٧.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) مصطفى محمود: الماركسية والإسلام، ص ٢٢.

(٤) علي أحمد مذكور: منهج التربية في التصور الإسلامي ص ٧٩.

(٥) رواه البخاري في كتاب الإيمان حديث رقم ٣١.

(٦) رواه البخاري في كتاب الأدب حديث رقم ٨٦.

(٧) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص ١٤٠.

(٨) المرجع السابق ص ١٤١.

الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ (١).

لا شك أن الشواهد السابقة تعطي الدليل على أن التربية الإسلامية تتصف بالشمول خاصة وأن الدين الإسلامي هو من عند الله المحيط بكل شيء والعارف بالإنسان وحلجاته وما يدور في خلده أكثر من الإنسان نفسه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَلِ الْوَرِيدِ﴾ (١١) (٢).

ولو نظرنا إلى الأهداف التربوية التي سعى الغزالي لتحقيقها وإلى المنهاج التربوي الذي اعتمده كوسيلة لتحقيق هذه الأهداف لوجدنا أن صفة الشمول في كليهما بارزة في غير موقع ومكان.

فالشخصية الإسلامية المتميزة - والمجسدة للمعنى الإنساني بأتم صورته الإنسانية - التي سعى الغزالي لتحقيقها لا بد وأن تكون شخصية شاملة متكاملة من كافة الجوانب على الرغم من قناعة الغزالي بأن أحداً غير الرسول الكريم لم يستطع بلوغها. ولطالما أن شخصية الرسول هي القدوة والأسوة الحسنة التي حث كل مسلم للقرب منها بات من السهل علينا أن نقرر بأن الغزالي استطاع أن يضيفي على أهدافه التربوية صفة الشمول والتكامل وهي الصفة التي ميزت شخصية الرسول الكريم عن غيره من بني البشر.

ولتحقيق مثل هذا الهدف المتعدد الجوانب والاتجاهات لارتباطه بالحياة الدنيا والآخرة وشخصية الإنسان من كافة جوانبها سعى الغزالي إلى اعتماد منهج تربوي يتصف بالشمول على قاعدة الارتباط الكامل بالدين وتعاليمه وقيمه. ومعلوم أن التصور الإسلامي سواء للإنسان أو الكون اتسم بهذه الصفة التي لم تتأت لغيره من الأديان.

ولو عدنا للوظيفة الخامسة من وظائف المتعلم لوقفنا على رأي الغزالي

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) سورة ق، الآية: ١٦.

الذي يرى أن «العلوم المختلفة مترابطة ومتصلة بعضها ببعض وقد يضعف الجهل ببعضها دراسة بعضها»^(١) الآخر، لذلك نصح الغزالي بألا يهمل المتعلم دراسة أي علم من العلوم المحموده سواء كانت دينية أم^(٢) دنيوية بقدر يمكنه من معرفة أغراضها وما تبحث فيه، وإن كانت هناك فرصة فليتبجر المتعلم فيها بادئاً بالأهم فالمهم. ويقول الغزالي إن المعرفة المتعددة النواحي أفضل من المعرفة المحدودة. ذلك لأن العلوم المختلفة يعين بعضها بعضاً كما أن الاختصاص الضيق يتسبب في التعصب لعلوم دون أخرى. ذلك لأن الناس أعداء ما جهلوا فقد أتى الغزالي بمبدأ تربوي هام جداً. فإن اتجاه العصر في التعليم يهدف إلى جعل الدراسة عامة شاملة ومتنوعة في مراحل التعليم على اختلافها - حتى في مرحلة التعليم العالي - وذلك لنشر الثقافة والعمل على اتساعها ذلك الإتساع الذي يمنع التعصب وضيق الأفق ويفضمن تكوين المواطن المستنير»^(٣).

وفي الإتجاه نفسه القائم على النظرة الشمولية للمنهاج يعيب الغزالي على المعلم أن يقبح في نفس المتعلم العلوم التي ليست مجال اختصاصه أو عمله. ويرى أن ذلك «شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه»^(٤).

ويسعى الغزالي من وراء ذلك كله إلى تحقيق التكامل بين قوى الإنسان المختلفة سواء الجسمية أو العقلية أو النفسية منها خاصة وأن الإسلام «يشمل حياة الإنسان من جميع وجوهها مادية كانت أم مدنية أم اقتصادية أم أخلاقية أم روحية»^(٥).

لذلك فإن التربية الإسلامية في نظر الغزالي - المستوحاة من الأصول الإسلامية - ليست جزئية الغرض علاوة على أنها تعتمد على منهج شامل

(١) وردت في النص «البعض».

(٢) وردت «أو».

(٣) فتحة سليمان: المذهب التربوي عند الغزالي، ص ٤١.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٧١.

(٥) محمد فاضل الجمالي: آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية، ص ١٢٩.

ومتكامل، اعتنى بالإنسان ككل، واهتم بالدنيا والآخرة إلى جانب اهتمامه بالمادة والروح، وذلك بهدف بناء شخصية المسلم المتميزة ببلوغ النفس كمالها والقادرة على تحقيق سعادة الدنيا والآخرة والقرب من الله تعالى «وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى وهم المقربون المنعمون في جوار الله تعالى بالروح والريحان وجنة النعيم. وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٨٨) ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ (٨٩) ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩٠) ﴿فَسَلَكَ لَكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩١) ﴿(١) وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينتهض له أو انتهض إلى جهته لا على قصد الإمتثال والعبودية بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين فله نزل من حميم وتصلية جحيم» (٢).

٣ - متوازنة :

إن هذه الخاصية متلازمة مع خاصية «الشمول» التي سبق تناولها وذلك لأن «الشمول» في التصور الإسلامي «شمول متوازن». «وقد صانته هذه الخاصية الفريدة من الإندفاعات هنا وهناك، والغلو هنا وهناك والتصادم هنا وهناك لأن هذه الآفات لم يسلم منها أي تصور آخر سواء التصورات الفلسفية: أو التصورات الدينية التي شوهتها التصورات البشرية بما أضافته إليها أو نقصته منها أو أولته تأويلاً خاطئاً، وأضافت هذا التأويل الخاطيء ألى صلب العقيدة» (٣).

«والإسلام قد أتى للناس بالتوازن بين العقل والإيمان، وخط معالم الإلتقاء بين الجهد الإنساني والكشف الرباني، وهو أيضاً نقطة الإلتصال التي تجمع بين المادة والروح، وذلك ما يعطيه قوة كامنة متطورة ومبدعة مداها الحقيقي يكاد يكون لا متناهيًا وعلى الناس أن يعوها أولاً وأن يستخدموها بعد ذلك في استكشاف المصير الخالد للإنسان وبنائه بناءً واعياً» (٤).

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٧، ٦٨.

(٣) سيد قطب: خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ص ١١٤.

(٤) احمد عروة: الاسلام في مفترق الطرق، ص ٤٨.

فالإنسان «له كيانان أحدهما أثيري لا يمكن رؤيته والاتصال به بأدوات الحس الإنساني الراهنة، والثاني فيزيقي مادي هو الذي يمكننا أن نراه»^(١) فشخصية الإنسان إذن تتكون من عنصرين أحدهما مادي يرمز إليه بالجسد والآخر غير مادي يرمز إليه بالروح.

وإلى جانب الجسد والروح فإن للذات الإنسانية عقلاً يمكن صاحبه من التمييز بين الخير والشر. ويساعده على التحكم بقواه المختلفة بالإتجاه الذي يؤهله أن يكون خليفة الله تعالى في الأرض. وهذه «القوة الشعورية أو القوة الفكرية التي تعطي الإنسان قوة التأمل والمراجعة والترجيح والحكم بين الأشياء أو الطرق أو الوسائل العديدة التي سيواجهها الإنسان عند الحصول على مطلوبة»^(٢) تشكل مرتكز التكليف حسب ما جاء في القرآن الكريم حيث أن فاقد العقل فاقد للتكليف.

وعلى الإنسان «أن يعمل بطاقاته جميعاً في واقع الحياة»^(٣) لأن «استغلال هذه الطاقات مجتمعة يحدث توازناً في داخل النفس وواقع الحياة سواء»^(٤) فالتوازن في نظر الإسلام «شامل يشمل كل نشاط الإنسان» فهو «توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح. توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته. . . توازن بين الإيمان بالواقع المحسوس والإيمان بالغيب الذي تدركه الحواس. توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية، توازن في النظم الإقتصادية والاجتماعية والسياسية. توازن في كل شيء في الحياة»^(٥).

لذلك فإن التوازن سمة من السمات المميزة للإنسان الصالح الذي يعتبر الهدف الأساسي الذي سعت وتسعى التربية الإسلامية لتحقيقه. والمتتبع لفكر

(١) عبد الغني عبود: الإنسان في الإسلام والانسان المعاصر، ص ١٠٠ - ١٠٢.

(٢) محمد البهي: الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر، ص ٣٩٩.

(٣) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج ١، ص ٢٧.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

الغزالي التربوي يجد أن ظاهرة عدم التوازن التي كانت سائدة في عصره هي التي كانت وراء العديد من المواقف التي اتخذها للوقوف بوجه التدهور وتصحيح الخلل الذي لحق بالمجتمع الإسلامي نتيجة اختلال التوازن بين قواه المختلفة سواء المادية أو المعنوية منها.

وليش غريباً أن يكون اختلال التوازن الذي لحظه الغزالي في تفكير الفئات الأخرى وممارساتها المختلفة التي عايشها وتمكن من الإطلاع على منهج حياتها وطريقة تفكيرها من أهم الأسباب التي وقفت وراء شكه في كثير من المسائل التي تطرق إليها والأشخاص الذين تناولهم في كتاباته وأعماله.

فالغزالي كان يريد من الناس أن تستغل قواها الحيوية في عمارة الأرض، وقواها الروحية في التعرف على الله سبحانه وتعالى وقواها العقلية في التعرف على أسرار الكون الذي لا بد وأن يؤدي في نهاية المطاف للتعرف على الله. إلا أن اختلال التوازن بين قوى الإنسان والمجتمع المختلفة جعل الناس تخرج عن جادة الحق والصواب. وعلى قاعدة العودة بفئات الناس المختلفة إلى حالة التوازن، كان موقف الغزالي واضحاً من فرق المتكلمين والباطنية والفلاسفة والصوفية، حيث درسها كلها واستقصى ما عندها ومن ثم انتقدها.

فلقد وجد الغزالي أن كل فئة من هذه الفئات جنحت في الإعتماد على قوة من قواها على حساب باقي القوى. فالفلاسفة ومن أعجب بهم أو اتبعهم من المتكلمين والباطنية جنحوا بقواهم العقلية وكادوا أن يذهبوا بالإسلام بعيداً عن طبيعته وفطرته. كما وأن فئة من الصوفية جنحت بقواها الروحية فهامت في سباحات روحية سلبية بعيدة عن عالم الواقع المادي بعيداً عن فطرة الإسلام^(١).

ويشير الغزالي إلى سمة التوازن بلفظة «الإعتدال» الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط^(٢) ويؤكد على هذه الخاصية التي يرى فيها أساساً من أسس

(١) انظر البحث موقف الغزالي من التيارات الفكرية في عصره.

(٢) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ٦٢.

التربية الإصلاحية إنطلاقاً من قول الرسول الكريم «الوسط العدل»^(١) فاختلال أي جانب من جوانب شخصية الإنسان يفقدها التوازن الذي يجب أن يكون من صفات الإنسان المسلم. ويرى الغزالي في قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾^(٢) أن الله تعالى «رد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما... وهو المراد بتغيير الخلق»^(٣). فالمطلوب في نظره «هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين»^(٤) لأن كافة القيم التي حث عليها الإسلام تشكل حالة وسط بين طرفين متناقضين «فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير. والشجاعة بين الجبن والتهور، والعفة بين الشره والجمود. وكذلك سائر الأخلاق فكلما طرفي الأمور ذميم»^(٥). وأخيراً يقرر الغزالي صفة التوازن التي تتمثل بحسن الخلق الذي يرجعه بدوره إلى «اعتدال قوة وكمال الحكمة وإلى إعتدال قوة الغضب والشهوة»^(٦) التي يرى أنها مطيعة للعقل والشرع على حد السواء.

والسعادة كما يحددها الغزالي «منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم»^(٧). هذه العوارض التي تشكل بدورها الطرفين اللذين يجب تجنبهما والابتعاد عنهما حتى يتأتى للإنسان أن يكون من الذين قال بحقهم تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٨) ولتقريب ذلك من الأفهام يشير الغزالي إلى أن «البخل من عوارض الدنيا، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليماً منهما أي لا يكون ملتفتاً إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا

(١) رواه أحمد في المسند ج ٣، ص ٣٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ٣، ص ٦٢.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع السابق، ص ٦٢، ٦٣.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٨) سورة الشعراء، الآية: ٨٩.

على إمساكه فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً^(١).

وحالة الإتزان هذه أو الاعتدال حسب الغزالي إما أن تتأني للإنسان عن طريق «جوّد إلهي وكمال فطري»^(٢) وإما أن يكون «اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة»^(٣) أي عن طريق «حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب»^(٤) في الوقت الذي يرى فيه الغزالي «أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال»^(٥).

وعلى الرغم من وضوح رأي الغزالي في التوازن كسمة من السمات المميزة للتربية الإسلامية إلا أن هناك من أساء فهمه وظن أنه بموقفه هذا أخل بالتوازن المطلوب في التربية الإسلامية فحملوا عليه بسبب إعجابه بالصوفية وتبنيه لطريقهم وإقتناعه بصواب موقفهم حين قال فيهم «إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم وباطنهم متتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به»^(٦).

ويبدو أنه غاب عن ذهن هؤلاء أن موقف الغزالي من الصوفية لم يكن موقفاً

(١) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٣.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) الغزالي: المتقذ من الضلال، ص ١٣٩.

متعصباً بدليل أنه لم يتردد في انتقاد الذين خرجوا منهم عن حدود العقل والشرع^(١).

ليس هذا فحسب بل أن صوفية الغزالي نابعة من رسالته الأخلاقية القائمة على «تطهير الجوارح تطهيراً كاملاً عما يلوّثها وتذكية القلب حتى عن همسات الغل والحسد وأماني التفوق والغلبة»^(٢). هذا إلى جانب أنها «الطهارة التامة الشاملة لأحاسيس الروح ونداءات البدن ووثبات العقل، فهو يرى أن الإنسان خلق للفضيلة وأن السعادة والفضيلة صنوان وأن الإنسان الفاضل هو الإنسان السعيد»^(٣).

ولقد كان الغزالي على قناعة بأن «الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا»^(٤) لذلك فهو يرى أن «علماء الظاهر زينة الأرض والملك، وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت»^(٥). فانطلاقاً من هذا الفهم للدنيا والآخرة فإن التصوف في نظره يشكل مرتبة متقدمة من مراتب العلماء. فالصوفي في نظره يجب أن يحصل «الحديث والعلم»^(٦) لأن «من تصوف قبل العلم خاطر بنفسه»^(٧) كما وأن العلم عند الغزالي مقرون بالعمل تصديقاً لقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٨) والقرآن الكريم «أنزل... ليعمل به»^(٩) ويشترط بالعلم والعمل النية حيث أن طلب العلم ونشره في نظر الغزالي حسن «إذا صحت فيه النية»^(١٠).

(١) الغزالي: الإحياء، ج ١، ص ٤٨، ٤٩.

(٢) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ٦٧.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) الغزالي: الإحياء، ج ١، ص ٢٩.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٣.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٨) سورة الصف، الآية: ٣.

(٩) الغزالي: الإحياء، ج ١، ص ٧٩.

(١٠) المرجع نفسه والمكان نفسه.

وبناء عليه فإن صوفية الغزالي لا تتم إلا بالعلم والعمل والنية. إلى جانب أنه يرى فرقاً عظيماً بين معرفة حقيقة الزهد وشروطه وبين أن يكون حالك الزهد «وكم من الفرق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشيع وأسبابهما وشروطهما وبين أن تكون صحيحاً وشبعان»^(١). الشيء الذي جعله يتيقن من أن الصوفية «أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال»^(٢). لذلك فإن الغزالي بعد أن حصل علومه سعى للوصول إلى رتبته لذلك فهو «قد ذاق أحوال الصوفية بعد أن حصل علومهم ثم ارتقى إلى درجة المكاشفات والمشاهدات»^(٣) فتصوف الغزالي هو «النسك والزهد في الدنيا بعد أن أقبلت عليه، تصوف يحده الإيمان بالله والعمل المنزه عن كل غاية من الغايات المشيمة لا تصوف الذين تظاهروا بالزهد في الدنيا بعد أن زهدت بهم ولبسوا الخرق والمرفعات وتشبهوا بالإولياء ليتبارك بهم البلهاء»^(٤).

ولهذا يمكننا القول بأن تصوف الغزالي كان بمثابة جرعة الدواء الضرورية لإعادة التوازن لحالة عدم التوازن بين العقل والروح والتي كادت أن تغرق الناس في ظلمات من الجهل نتيجة انبهارهم بالفلسفة اليونانية وتغليبهم للتربية العقلية على حساب التربية الروحية.

فالغزالي واحد من المربين المسلمين الذين آمنوا بأن التربية الإسلامية تعني الوصول بالنشء الإسلامي إلى الكمال الذي هيئوا له، لذلك كان لا بد لمنهج التربية الإسلامية من مراعاة ميولهم واتجاهاتهم وقدراتهم إذ لا بد من أن يأخذ في الاعتبار قدراتهم الجسمية والعقلية والروحية كي لا تتم تربية ميل على حساب ميل أو اتجاه على حساب اتجاه أو قدرة على حساب قدرة أو أن يهتم بعقولهم على حساب أجسامهم أو وجدانهم فيحصل الخلل في النشء هذا إلى جانب القلق النفسي والتضارب وعدم التكامل بين أجزائهم المختلفة.

(١) الغزالي: المتقذ من الضلال، ص ١٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٥.

(٤) محمد جواد مغنية: «مصدر العلوم عند الإمام الغزالي»، أبو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده ص ٥١٩.

يتضح مما سبق أن الغزالي أسهم إسهاماً فاعلاً في تعزيز خاصية التوازن التي تعتبر إحدى أهم الأسس التي تقوم عليها التربية الإسلامية على الرغم مما قيل بحقه من قبل الذين اتهموه بالمثالية والتحيز إلى الصوفية وذلك لأن صوفيته كانت تقوم على العلم والعمل والنية الصادقة في القرب من الله تعالى .

٤ - فردية واجتماعية :

كان الرسول واضحاً كل الوضوح عندما حدد الغاية الأساسية لبعثته من خلال مقالته «إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق»^(١) فتأكيد الرسول الكريم على مكارم الأخلاق تأكيد على أن التربية في الإسلام ما كانت إلا لضمان حق كل من الفرد والجماعة على حد سواء . إذ ليس من حق أي منهما أن يحقق سعادته على حساب الآخر لقوله صلى الله عليه وسلم «لاتباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يظلم أحد أحداً»^(٢) . وفي هذا دليل على أن الإسلام في نظريته إلى الحياة «يوسع من ميدان الإنسان ويفرض عليه نظرة أعمق إلى مصالحه»^(٣) .

«فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل متمسكاً بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف»^(٤) . ففي الصلاة مثلاً يقول تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٥) . وجاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر»^(٦) .

(١) رواه مالك في الموطأ، كتاب حسن، حديث رقم ٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب النكاح حديث رقم ٤٥.

(٣) محمد باقر الصدر: فلسفتنا، ص ٤٧.

(٤) محمد الغزالي: خلق المسلم، ص ٧.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٦) رواه مسلم، باب فضل الصلاة، رياض الصالحين، ص ٣٣٢.

ولو استعرضنا باقي الفرائض والعبادات لوجدنا أنها «مدارج الكمال المنشود وروافد التطهر الذي يصون الحياة ويعلي شأنها. ولهذه السجايا الكريمة - التي ترتبط بها أو تنشأ عنها - أعطيت منزلة كبيرة في دين الله. فإذا لم يستفد المرء منها ما يذكي قلبه وينقي لبه ويهذب بالله وبالناس صلته فقد هوى»^(١). قال تعالى ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾^(٢).

لذلك يمكننا القول بأنه «تقوم التربية الإسلامية على تربية الإنسان تربية فردية ذاتية فهي تربية على الفضيلة ليكون مصدر خير للجماعة وتحمله مسؤولية أعماله وتصرفاته، فكل أمرء بما كسب رهين. وكل مسلم راع وكل راع مسؤول عن رعيته. ويربي الإسلام في الوقت نفسه الفرد تربية إجتماعية»^(٣) لقوله صلى الله عليه وسلم «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره»^(٤).

«فكما أن الفرد كل له أجزاء فهو أيضاً جزء من كل هو المجتمع»^(٥). ولقد كان الرسول الكريم واضحاً في تحديد طبيعة العلاقة التي يجب أن تسود بين الفرد والجماعة في حديثه الشريف «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٦).

فعلى الرغم من أن الفردية والجماعية تمثلان خطين متناقضين إلا أنهما مترابطتين ومتكاملتين والإسلام ينبه «إلى الطبيعة المزدوجة في هذا الكائن البشري التي تبدو متناقضة حين ينظر إليها من السطح. ولكنها مع ذلك مترابطة وهي تؤدي مهمتها في حياة الكائن البشري بتناقضها ذلك وترباطها. كما يؤدي مهمته الحب والكره والرجاء والخوف والسلبية والإيجابية والحسية والمعنوية والإيمان

(١) محمد الغزالي: خلق المسلم، ص ٩، ١٠.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٤.

(٣) عبد الغني النوري: التربية الإسلامية بين الاصاله والمعاصرة، ص ٤٩، ٥٠.

(٤) رواه البخاري في كتاب المظالم، حديث رقم ٣.

(٥) علي احمد مذكور: منهج التربية في التصور الاسلامي، ص ١٩٧.

(٦) رواه البخاري في كتاب الادب، حديث رقم ٢٧.

بالواقع والإيمان بما وراء الواقع ويخرج لنا في النهاية مخلوق متعدد الجوانب موحد الكيان»^(١).

والمتتبع للآداب التي عرضها الغزالي في كتاب «الإحياء» يكتشف كيف أنه أدرك هذه الحقائق وجهد لتحقيق رسالة الإسلام في التربية حيث أنه «جعل الأخلاق رسالته العليا وربط الأخلاق بالدين ربطاً لا انفصام له، بل جعل الأخلاق هي روح الدين والغاية منه، وأضفى على العبادات أصولها وفروعها ألواناً خلقية متحبيها إلى النفوس وتعطرها في القلوب وتملاً الحس خشوعاً وإيماناً وجلالاً»^(٢).

ويعرف الغزالي الخلق تعريفاً دقيقاً حيث يقول أن «الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً»^(٣).

فالخلق في نظر الغزالي ليس الفعل وإنما هو «هيئة النفس وصورتها الباطنة»^(٤) «فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء»^(٥). والخلق الحسن في نظر الغزالي يقوم على اعتدال قوى ثلاثة هي القوة الغضبية والقوة العقلية والقوة الشهوانية. على قاعدة أن «المحمود ما يوافق معيار العقل والشرع»^(٦).

وحسن الخلق حسب هذه القاعدة يحقق فردية الفرد وجماعية الجماعة. فإذا كان الهدف هو مرضاة الله تعالى: فإن التناقض بين الفردية والجماعية لا بد وأن

(١) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج ١، ص ١٦٣.

(٢) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ٨٤.

(٣) الغزالي: الإحياء، ج ٣، ص ٥٨.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) الغزالي: ميزان العمل، ص ٥٧.

يضمحل في ذات الإنسان لدرجة يتمكن معها من تحقيق السعادة الآخروية التي اعتبرها الغزالي السعادة الحقيقية^(١). والسعادة الدنيوية الموصلة للسعادة الآخروية حسب الغزالي تتمثل في اتباع الشارع لطالما رضي الإنسان لنفسه أن يكون خليفة الله تعالى على الأرض. ووسيلة ذلك هو «العلم والعمل»^(٢). وأساس ذلك «العقل فهو بما لا ينال سعادة الدنيا والآخرة إلا به... وبالعقل صار الإنسان خليفة الله وبه تقرب إليه وبه تم دينه»^(٣) تصديقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «رفع القلم عن المجنون المغلوب على عقله»^(٤).

فالغاية الاجتماعية في نظر الغزالي تقوم على أسس واضحة وصريحة لا لبس فيها. حدودها «الحب في الله والبغض في الله» الشيء الذي إن اتبع لا بد وأن يحقق السعادة الفردية والاجتماعية على حد سواء. لأن حب الله تعالى لا بد وأن ينعكس حباً بين بني البشر. وهو ما يعبر عنه الحديث الشريف «لا تؤمنوا حتى تحابوا»^(٥).

فانطلاقاً من هذا الفهم لدور الإنسان في الحياة سعى الغزالي لتضييق الهوة بين النزعات الفردية والمشاعر والاجتماعية باتجاه تحقيق أهدافه في بناء الشخصية الإسلامية على صعيد الفرد والمجتمع.

إلا أن زكي مبارك يجرد الغزالي من أية غاية إجتماعية^(٦) مستنداً في ذلك لقول الغزالي «إن السعادة الحقيقية هي الآخروية وما عداها سميت سعادة. إما مجازاً وإما غلطاً كاتسعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة. وإما صدقاً ولكن الإسم على الآخروية أصدق وذلك كل ما يوصل إلى السعادة الآخروية ويعين عليه. فإن الموصول إلى الخير والسعادة قد يسمى خيراً وسعادة».

(١) المرجع السابق، ص ٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٩.

(٤) حديث رواه أبو داود في كتاب الحدود حديث رقم ١٧.

(٥) رواه مسلم في كتاب الإيمان حديث رقم ٩٣.

(٦) زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي، ص ١٧٣.

ويبدو أن مبارك يبالغ في موقفه من الغزالي إذ «ليس من السهل أن نطلق هذا الحكم على الغزالي ونحن نراه في مواقف مختلفة يحث على تحسين أساليب التعايش في هذه الحياة ويحدد لعلاقات الناس وتعاطفهم أطراً معينة فهو الذي كتب في الآداب بما لو أمثلناه لتحاشينا حدوث غضب أحداً من الآخر، ولعطفنا على الصغير واحترمنا الجار ووقرنا الكبير ولاجتنبنا حصول المحاسبة في كثير من العلاقات والتداولات الجارية في حياتنا اليومية»^(١).

فلو صح ما ذهب إليه مبارك «على أن الغزالي ليست له غاية إجتماعية»^(٢). فمن حق القارئ أن يتساءل ما معنى أن يطالب الغزالي المربين الشفقة على التلاميذ والنظر إليهم كأبنائهم وأن يوجهوهم ويرشدوهم ويعاملوهم معاملة طيبة؟^(٣) وما معنى أن «يعظم الغزالي رابطة الأخوة حتى يجعلها عقداً كعقد النكاح بين الزوجين»؟^(٤) وما معنى أن ينهى عن التصنع كتصنع المرأة وعن التبذل كما يتبذل العبيد؟^(٥) وما مبتغاه عندما يطلب من السلطان «استعمال الرفق وترك التعنيف والفكر قبل الأمر وترك التكبر على الخاصة مع منع العدوان منهم والتودد إلى العامة مع مزج الرهبة لهم والتطلع إلى أمور الحاشية، واستعمال المروءة مع أهل العلم والتوسعة عليهم وعلى الأصحاب والأقارب والرفق في الجناية ودوام الحماية»^(٦).

كل هذا وغيره مما ورد في ربيع العادات من كتاب «الإحياء» يؤكد على الغاية الإجتماعية إلى جانب الغاية الفردية عند الغزالي في الوقت الذي لا يقتصر بذلك على محبة الله بل يتعداه إلى محبة الدنيا إدراكاً منه لواقع الإنسان في هذه

(١) عارف مفضي البرجس: التوجيه الاسلامي للنشء في فلسفة الغزالي، ص ١٤٢.

(٢) زكي مبارك: الاخلاق عند الغزالي، ص ١٧٣.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٦٩.

(٤) احمد خواجه: الاداب التعاملية في فكر الامام الغزالي، ص ٩٢.

(٥) الغزالي: الادب في الدين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ٥، ص ١١٧.

(٦) المرجع السابق، ص ١١٦.

الحياة. إذ «ليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجل حظاً البتة، إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة»^(١). ومن أمثلة ذلك قولهم «رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً»^(٢). ويتابع الغزالي في تعزيز وجهة نظره هذه قائلاً «وعلى الجملة فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضاً لحب الله تعالى فحب السلامة والصحة والكفاية والكرامة في الدنيا كيف يكون مناقضاً لحب الله؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداهما أقرب من الأخرى فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم؟ وإنما يحبها غداً لأن الغد سيصير حالاً راهنة فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة أيضاً»^(٣).

وعلاوة على ذلك فإن الغزالي «ليس بمستنكر أن يشتد حبك لإنسان لجملة أغراض ترتبط لك به فإن إمتنع بعضها نقص حبك وإن زاد زاد الحب فليس حبك الذهب كحبك للفضة إذا تساوى مقدارهما لأن الذهب يوصل إلى أغراض هي أكثر مما توصل إليه الفضة فإذاً يزيد الحب بزيادة الغرض ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية فهو داخل في جملة الحب لله»^(٤).

ويبدو أن في كلام الغزالي رداً مقنعاً على اتهامه بأن ليس له غاية اجتماعية خاصة وأنه «بذل جهداً جهيداً ليحبب إلينا محاسن الأخلاق أيأ كانت. ومن هنا لا يجوز أن ننكر عليه قوله «أن السعادة الحقيقية هي الأخروية» أو أن نأخذ عليه أن يقرن إطلاق «السعادة» على ما يوصل إلى السعادة الأخروية ويعين عليها فلا تعارض بين هذا المفهوم والمفهوم الإسلامي للسعادة»^(٥). حيث يقول تعالى «أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ

(١) الغزالي: الاحياء، ج ٢، ص ١٧٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج ٢، ص ١٧٨.

(٤) المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٥) عارف مفضي البرجس: التوجيه الاسلامي للنشء في فلسفة الغزالي، ص ١٤٣.

(٦) سورة التغابن، الآية: ١٥.

الْعُرْوِ^(١). مما يؤكد على أن الرجل كان منسجماً مع نفسه كل الإنسجام ولذلك «فلا عجب من قول الغزالي ولا تناقض في آرائه ثم أنه لا مجال لنا بأن نقول إنه ليس له غاية اجتماعية ما دامت آراؤه التربوية من معدن الرسالة»^(٢) حسب ما خاطب تلميذه في رسالة «أيها الولد» قائلاً له «إن منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة» أي من كتاب الله وسنة رسوله الكريم «وحاصل اليقين عندنا أن الرسالة عنيت بتوضيح أسس سعادتنا في الدارين، وأنها راعت الأهداف الاجتماعية بحيث لو هيئت الأوضاع الاجتماعية في أي مجتمع كما أراد لها الدين الإسلامي لحقق ذلك المجتمع أفضل مستوى من التكوين والتكامل ولحقق السعادة الأبدية بإذن الله بعد السعادة الدنيوية»^(٣).

ويمكننا أن نخلص إلى القول بأنه «ليس لنا أن نقلل من شأن أخلاقيات الغزالي لأن روح الزهد والقناعة تترقق واضحة بين أسطرها، وعطر المحبة والعبادة يتضوع من شمائلها وعطافها. الأخلاق عند الغزالي نشيد لم يترك وجهة من وجهات الحياة إلا ألقى عليها النور والرحمة والإيمان والسلام. والأخلاق لديه صفات مثالية، أو إن شئت فهي محاولة صادقة لإنشاء إنسانية فاضلة وخلق مجتمع بشري سعيد»^(٤).

وعلى هذا الأساس استطاع الغزالي أن يجمع بين الفرد والجماعة من خلال رسالته التربوية انطلاقاً من إيمانه العميق بالإسلام كدستور تعامل ومنهج للحياة الخاصة والعامة، ولهذا يمكن القول بأن التربية عند الغزالي هدفت إلى تحسين حاجات الإنسان كفرد وحاجاته كعضو في جماعة على الصعيدين الديني والدنيوي. الشيء الذي مكن الغزالي من أن يكون رائداً من رواد الإصلاح الاجتماعي على الرغم من النزعة الصوفية التي أخذت عليه من قبل بعض الذين تحدثوا عنه.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥.

(٢) عارف مفضي البرجس: التوجيه الاسلامي للنشء في فلسفة الغزالي، ص ١٤٣، ١٤٤.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص ٨٨.

- مستمرة:

على الرغم من أن فكرة التربية المستمرة قد تعززت وقويت خلال السنوات الأخيرة فإن من الوهم الإدعاء بأنها من مستحدثات العصر. والمتتبع للقضايا التربوية يدرك أنه لا شيء جديد في فكرة متابعة العملية التربوية. وسواء كان ما يقومون به عن قصد أو غير قصد فإن الإنسان يتابع تدريب نفسه وتأهيلها خلال حياته عبر تأثير المحيطين به ومن خلال الخبرات المختلفة التي تبلور تصرفاته ومناهيه عن الحياة.

وفيما إذا حاولنا استقصاء آداب الحضارة الإسلامية، يمكننا أن نكتشف أن فكرة التربية مدى الحياة كانت من أهم الأسس التي قامت عليها التربية الإسلامية. فهناك كثير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وأخبار السلف الصالح التي تتماشى مع مفهوم التربية المستمرة.

وما نزول القرآن منجماً وموزعاً - على مدى الزمن الذي امتدت فيه بعثة الرسول الكريم مرشداً ومعلماً - إلا دليل أكيد على أن التربية مستمرة. فلقد كان بمقدوره تعالى أن ينزل القرآن الكريم دفعة واحدة «فيهبط بالمعارف والمعلومات والإرشادات وتعاليم الدنيا والآخرة مما زخر به الكتاب الكريم إلى نبيه العظيم... ولئن قيل في هذا... أن هذه التعاليم الحاملة للتربية ساوقت الحوادث وجاءت مرتبطة بها لتكون أكبر في دلالتها وأثبت في نفس من يتلقاها، فلقد كان من الممكن أن يتعلم النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً منها جملة ثم يتولى هو ربطه بالحوادث عند حدوثها وعند إرادة تعليمها للناس»^(١). ولكن مشيئة المولى تعالى ارتأت أن تكون تربية الرسول مستمرة في كل فترة من فترات حياته إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة فكانت آخر آية نزلت عليه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ

(١) حسين سليمان قورة: «التربية مدى الحياة اساس واضح في منهج التربية الاسلامية» مجلة التربية القطرية العدد ١٥، جمادي الاول ١٣٩٦ هـ ومايو/ايار ١٩٧٦ ص ٣٦، ٣٧.

دِينًا ﴿^(١) كانت في العام الأخير من حياته وتحديدًا في حجة الوداع . ولا يخلو قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ ^(٢) من الإشارة إلى استمرارية العملية التربوية إذ أن تثبت العقود بالقرآن الكريم ما هو إلا تعبير عن القدرة على وعي ما حواه من معان وألفاظ وفي ذلك دوام للتعليم واستمرار لتهديب النفوس وتثقيفها ما دامت هناك حياة .

ولقد حث الرسول الكريم على قراءة القرآن وتدارسه حيث قال «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» ^(٣) وقال أيضاً «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول (ألم) حرف ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف» ^(٤) . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» ^(٥) . وفي مجال الحث على مدارس القرآن الكريم ومذاكرته بهدف تفهم معانيه قال الرسول الكريم «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده» ^(٦) . والرسول في كل ذلك إنما يحفز المسلمين على دوام التلاوة والتدارس بعيداً عن قيد الزمان . بمعنى أنه يدعو إلى استمرار التعلم لطالما استمرت الحياة . خاصة وأن القرآن الكريم بمثابة «البحر المحيط ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها» ^(٧) . ومن ثم فالدعوة إلى دوام مدارسته إنما هي في واقع الأمر دعوة

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

(٣) رواه مسلم في كتاب المسافرين حديث، رقم ٢٥٢.

(٤) رواه البخاري في كتاب الايمان، حديث رقم ٣١.

(٥) رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، حديث رقم ١٨.

(٦) رواه مسلم في كتاب الذكر حديث رقم ٣٨.

(٧) الغزالي: جواهر القرآن، ص ٤.

إلى استدامة التعلم بكشف الجديد الذي يحمله هذا الكتاب المقدس وإمالة اللثام عما خفي من قبل على العقول من المعارف والخبرات»^(١).

والقرآن الكريم كما يرى الغزالي يحتوي على سلك من الجواهر وآخر من الدرر «والمقصود من سلك الجواهر اقتباس أنوار المعرفة فقط، والمقصود من الدرر هو الاستقامة على سواء الطريق بالعمل فالأول علمي والثاني عملي وأصل الإيمان العلم والعمل»^(٢).

والعمر حسب ما يشير الغزالي قصير وقد لا يتسع لجميع العلوم لذلك كان على الإنسان المسلم «أن يأخذ من كل شيء أحسنه فيكتفي بشمة من كل علم ويصرف الميسور من العمر إلى العلم الذي هو سبب النجاة والسعادة وهو غاية جميع العلوم وهي معرفة الله على الحقيقة والصدق»^(٣). وحتى لا يسترسل الناس في تلاوة القرآن مكتفين بظواهر معانية لا يرى الغزالي حرجاً في أن يحثهم على الغوص من أجل الوصول لجواهره ودرره فيقول «فإني أنبهك على رقدتك أيها المسترسل في تلاوتك والمتخذ دراسة القرآن عملاً، المتلقف من معانيه ظواهر وجمالاً، إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضاً عينيك عن غرائبها أو ما كان لك أن تركب متن لجتها لتبصر عجائبها وتسافر إلى جزائرها لاجتناء أطايبها وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرها. أو ما تغير نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها»^(٤).

وبهذا فإن الغزالي يلقي الضوء على جانب من جوانب التربية المستمرة التي يجب أن تلازم الإنسان في حياته وذلك من خلال توضيحه لمفهوم قراءة القرآن انطلاقاً من كون «القرآن الكريم دستور المسلمين ومنبع التشريع لهم وأصل

(١) حسين سليمان قررة: «التربية مدى الحياة» مجلة التربية القطرية العدد ١٥ جمادي الاول، ١٣٩٦هـ ومايو - أيار ١٩٧٦، ص ٣٦.

(٢) الغزالي: جواهر القرآن، ص ٥٢.

(٣) الغزالي: ميزان العمل، ص ١٠٠.

(٤) الغزالي: جواهر القرآن، ص ٨.

الأصول في المعرفة فمنه يأخذ المسلم مع السنة النبوية أمر دينه ودينه . وبه يتعلم ويتهذب بما يسوق إليه من آداب ومثل وقيم وبما يفيض به من تعليم وتشريعات وسنن»^(١).

وجملة القول أن قراءة القرآن الكريم التي حث عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وأوضح مفهومها الإمام الغزالي تعتبر نشاطاً معرفياً على الإنسان أن يداوم عليه . كما وأن الشواهد التي يوردها عن أهمية العلم والتعليم والتعلم في «الإحياء» وفاتحة العلوم» لهي خير دليل على كون التربية ضرورة حتمية لا يمكن الاستغناء عنها ما استمرت الحياة .

وتصبح الحاجة لطلب العلم ملحة عندما ندرك كما يقول الغزالي أن «العلم كثير والعمر قصير»^(٢) مما يعني أن حياة الإنسان أقصر من أن تتسع لجميع العلوم . ولذلك لم يتردد الغزالي في السعي باتجاه إيجاد الحلول لهذه المسألة وكان ذلك عن طريق برمجته لأنواع العلوم كي يسهل على الإنسان متابعة التعلم حتى آخر يوم من أيام حياته^(٣) . هذا من جهة ومن جهة ثانية رأى الغزالي أن على المتعلم أن يكون انتقائياً في اختياره العلوم وذلك من أجل أن يحظى بسعادة القرب من الله تعالى .

ويحاول الغزالي من خلال آرائه واجتهاداته أن يجد الوسائل التي تساعد على تسهيل عملية التعلم مدى الحياة إيماناً منه بأن التربية المستمرة أساس من الأسس التي تقوم عليها التربية الإسلامية . ولقد صدق الرسول الكريم عندما قال «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فبينه وبين الإنبياء في الجنة درجة واحدة»^(٤) . وهذا يعني أن الإنسان مهما تقدم وحصل من العلوم فحذار أن

(١) حسين سليمان قورة: «التربية مدى الحياة»، مجلة التربية القطرية العدد ١٥ ، جمادي الاول ١٣٩٦هـ، ومايو/ايار ١٩٧٦، ص٣٦.

(٢) الغزالي: الإحياء، ج١، ص٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص٥١.

(٤) رواه الدارمي في المقدمة، حديث رقم ٣٢.

يعتقد أو يظن أنه وصل الغاية المرجوة من تحصيله العلوم وقد قال ابن المبارك حسب ما أورد الغزالي في الإحياء «لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل»^(١).

٦ - متدرجة:

من المعلوم أن هدف التربية الإسلامية يتمثل ببلوغ الكمال الإنساني، غير أن هذا الهدف لا يمكن بلوغه إلا بالتدرج. ولقد كان واضحاً كيف أن آيات القرآن الكريم وأحكامه نزلت بالتدرج طيلة فترة التبليغ التي زادت عن ثلاث وعشرين سنة.

فالتدرج يعتبر أساساً من الأسس التي تقوم عليها التربية الإسلامية وذلك لأن عقيدة التوحيد «تعترف بالإنسان إنساناً لا حيواناً ولا حجراً ولا ملكاً ولا شيطاناً تعترف به كما هو بما فيه من ضعف وما فيه من قوة وتأخذه وحدة شاملة مؤلفة من جسد ذي نوازع وعقل ذي تقدير وروح ذي أشواق... وتفرض عليه من التكاليف ما يطبق وتراعي التنسيق بين التكليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات، وتلبي كل حاجات الجسد والعقل والروح في تناسق يمثل الفطرة... ثم تحمل الإنسان - بعد ذلك - تبعاً لإختياره للطريق الذي يختار»^(٢) وفي ذلك يقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(٣) ويقول صلى الله عليه وسلم «إن هذا الدين يسر»^(٤). وينتهي الرسول صلوات الله عليه عن التشدد في أمور الدين فيقول «لاتشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم»^(٥). أو يقول «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق»^(٦) ويشبه الرسول الكريم المتشدد

(١) الغزالي: الإحياء، ج ١، ص ٧٤.

(٢) سيد قطب: الظلال، المجلد الاول، ج ٣، ص ١١٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٤) رواه البخاري في كتاب الايمان حديث رقم ٢٩.

(٥) رواه ابو داود في كتاب الادب، حديث رقم ٤٤.

(٦) رواه احمد في المسند، ج ٣، ص ١٩٩.

بالمسافر المهلك راحلته دون جدوى: «إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»^(١).

«وهكذا... لا يكلف الإسلام نفساً إلا طاقتها فلا تنكل عن التكليف ولا تنوء تحتها ولا تبقى قلقة ممزقة بين التكليف والطاقة بل تنعم بالإستجابة وتطمئن بالطاعة وتقر عيناً بها وتستريح»^(٢).

لذا فإن الإسلام لم ينتقل بالمسلمين الأوائل من أخلاقهم القديمة إلى الأخلاق الإسلامية الجديدة طفرة واحدة إنما تدرج معهم وهياًهم برفق للتكليف في شتى العبادات. فالصلاة مثلاً في أول الأمر لم تفرض عليهم خمس مرات في اليوم بل طلبت منهم صلاة بالغة والعشي. ولم تفرض عليهم الزكاة والصيام إلا بعد الهجرة بسنة وكان التكليف قبل ذلك بما استطاعوا من صدقة أو صوم. ومن المعروف أيضاً أن تحريم الخمر على المسلمين تم على مراحل وبعد أن تدرج القرآن معهم حتى انتهى بهم إلى تحريمه بطريقة طبيعية ولم يحرم عليهم الميسر وكثير من عقود الزواج والربا والمعاملات التي كانوا يتعاملون بها في جاهليتهم إلا بالمدينة»^(٣).

والغزالي كغيره من علماء المسلمين الذين تحدثوا عن هذه الخاصية فالماوردي مثلاً يقول «واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها ومداخل تفضي إلى حقائقها فليبتديء طالب العلم بأوائها لينتهي إلى أواخرها وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها ولا يطلب الآخر قبل الأول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لأن البناء على غير أس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى»^(٤).

أما ابن خلدون فيقول «إعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا»^(٥).

(١) جاء في كشف الخفاء، ج ١، ص ٣٠٠ والمقاصد الحسنة، ص ٦١٤.

(٢) سيد قطب: السلام العالمي والإسلام، ص ٥٨.

(٣) عبد الوهاب خلاف: علم أصول الفقه، ص ٢٨٩.

(٤) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص ٥٣.

(٥) ابن خلدون: المقدمة، ص ٥٣٣.

أما الغزالي فقد تحدث عن هذه الخاصية في أكثر من موقع ومناسبة. فعلى سبيل المثال عندما تكلم عن العلوم المحمودّة في إطار تحديده للمنهج الدراسي نراه يوصي بالتدرج كأساس لمتابعة التحصيل وطلب العلم حيث يقول «وإن تفرّغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدنا لك وعادة متيسرة.. فاشتغل بفروض الكفايات وراعي التدرج فيها»^(١).

وللعلوم في نظر الغزالي درجات ومنازل أي أن «لكل واحد منها رتبة»^(٢) لذلك يوصي المتعلم بضرورة مراعاة هذا التدرج بحيث «لا يخوض في فنون العلم بل يراعي الترتيب فيبدأ بالأهم فالأهم ولا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله»^(٣). وذلك لأنه يؤمن بأن «العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى البعض»^(٤) والموفق في نظره هو من يراعي «ذلك الترتيب والتدرج»^(٥) لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾^(٦) «أي لا يجاوزون فناً حتى يتقنوه علماً وعملاً وليكن قصده من كل علم يتحراه الترقى إلى ما فوقه»^(٧).

ويوصي الغزالي أيضاً المعلم بضرورة مراعاة مبدأ التدرج بالعملية التعليمية حيث يرى أن من واجب المعلم «أن يقتصر المتعلمين على قدر أفهامهم فلا يرقبهم إلى الدقيق من الجلي وإلى الخفي من الظاهر هجوماً وفي أول رتبة. ولكن على قدر الاستعداد إبتداء بمعلم البشر كافة ومرشدهم»^(٨) محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلم الناس على قدر عقولهم»^(٩).

(١) الغزالي: الاحياء، ج ١، ص ٥٢.

(٢) الغزالي: ميزان العمل ص ٩٩.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٢١.

(٧) الغزالي: ميزان العمل، ص ٩٩، ١٠٠.

(٨) المرجع السابق، ص ١١١.

(٩) رواه أبو الحسن التيمي من الحنابلة. انظر السخاوي: المقاصد الحسنة، ص ٩٣.

والغزالي بذلك إنما يعبر عن وجهة نظر الإسلام في العمل من أجل تحقيق الأهداف المرجوة بالدنيا والآخرة. وحيث أن العملية التربوية تحتاج لوقت حتى يتمكن المتعلم من اكتساب الإتجاهات المطلوبة والعادات المرغوبة لذلك كان التدرج في التعليم والتعلم في نظر الغزالي ضرورة ملحة من أجل أن تؤتي التربية ثمارها.

..

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الممتعة - رغم وعورة مسالكها - نأمل أن نكون قد وفقنا في عرض التربية الإسلامية عند الإمام الغزالي ومناقشتها بأمانة وموضوعية وبأسلوب يسهل الطريق أمام كل طالب علم للوقوف على حقيقتها التي تقوم على قاعدة واضحة المعالم والأهداف انطلاقاً من كون الدنيا دار ابتلاء والآخرة دار جزاء .

ويبدو أن الفكر التربوي عند الإمام الغزالي يكتسب أهمية خاصة لأنه جاء نتيجة أحوال أشبه ما تكون بالأحوال التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم . وإذا كان الناس قد انبهروا بالعقل وبراهينه وانساقوا خلفه بعيداً عن روح الشريعة الإسلامية آنذاك، نراهم اليوم وقد انجرفوا وراء المظاهر المادية، وافتتنوا ببريق الإختراعات بعيداً عن القيم الأخلاقية والروحية على حد سواء .

واستطاع الغزالي يومها أن «يرسم الطريق للحيارى وأن يبين للآخرين ما وقف على حقيقته ورآه بعين الرشد والبصيرة . وأن يحدد بنظريته معالم الطريق الموحد بعد أن تشتت الآراء وتعددت السبل»^(١) ولقد نجح الغزالي لأنه قدم للناس فكراً تربوياً يقوم على مبدأ التربية بالأهداف . إذ أنه بعد أن تمكن من تحديد أهدافه - على ضوء نظريته العقدية التي استمدت أصولها من الكتاب والسنة - سعى لوضع المنهاج الدراسي الذي يتلاءم مع الأهداف التي خطط لها . ليس هذا فحسب بل أنه اعتمد طرائق التدريس التي سهلت له بلوغ أهدافه بأقصر الطرق وأيسرها .

(١) عارف مفضي البرجس: التوجيه الاسلامي للنشء في فلسفة الغزالي، ص ١٨٢ .

ولم يغفل الغزالي عن مراعاة الفروق الفردية في أثناء العملية التعليمية التعليمية هذا إلى جانب اعتماده التدرج سواء على صعيد تنفيذ المنهاج أو على صعيد تنفيذ العقوبة حال الإضرار، أو عندما تدعو الحاجة لذلك.

وإلى جانب هذا كله اعتبر الغزالي أن العلاقة بين المعلم والمتعلم من أهم مدخلات العملية التربوية. لذلك فإن هذه العلاقة - كما يرى - يجب أن تقوم على العطف والمحبة والإحترام لكي يتمكن كلا طرفي العملية التربوية من تحقيق أهدافهما في الرقي لدرجة الكمال الإنساني والسعادة بالقرب من الله تعالى.

وعلى الرغم من النزعة الصوفية التي عرف بها الغزالي في بعض مواقفه إلا أن ما يسترعي الإنتباه أن ذلك لم ينسهِ شؤون الدنيا وسعادتها التي «يمكن الحصول عليها عن طريق الحياة الفاضلة وتطهير النفس من الرذائل، وحسن التعامل مع الناس... فسعادة الدنيا لديه مرتبطة بالبعد عن الماديات مع عدم نسيان نواحي النفع في الحياة. فقد نصح بتعلم العلوم التي لا يمكن أن يستغني عنها الإنسان في حياته والتي لا يمكن أن يسعد مستمتع بدونها كعلوم الطب والحساب وبعض الصناعات. وهنا أيضاً تظهر واقعية الغزالي وعدم نسيان النواحي النفعية التي لا غنى عنها في الحياة الدنيا»^(١).

ويمكننا القول: إن التربية عند الغزالي كانت دعوة صريحة للإنسان كي يكتشف نفسه، على أساس أن هذا هو الطريق الصحيح لمعرفة الله تعالى. ومن خلال معرفة الله تعالى يدرك الإنسان موقعه الحقيقي في هذه الحياة وطبيعة العلاقة التي يجب أن تربطه بأخيه الإنسان، وعندها يقتنع بأن الفروقات الفردية بين الناس ليست إلا من صنع البشر، تصديقاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾^(٢). فميزان التفاضل بين الناس هو ميزان التقوى والعمل الصالح. ولهذا فهو يدعو المتعلم للتفكير بموضوعية بعيداً عن أهوائه ونزواته - في كافة شؤون الحياة - كي يحظى برضى الله تعالى ويحقق سعادة الدارين.

(١) فتحة سليمان: المذهب التربوي عند الغزالي، ص ٦٨.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

ومجمل القول إن التربية الإسلامية عند الغزالي استمدت قوتها من خصائص ومقومات التصور الإسلامي لله والكون والإنسان والحياة مما ساعده على النجاح في إرساء أسس نظام تربوي واضح المعالم والأهداف يصلح لأن يستفاد منه إفادة بالغة الأهمية في أي مشروع حل لأزمة التربية التي نعيشها اليوم، خاصة وأن ظروف أمس أشبه ما تكون بظروف اليوم، إلى جانب أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، ولذلك كان الغزالي واضحاً وصادقاً عندما قال بأن «منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة»^(١).

فرحم الله الإمام الغزالي يوم حمل لواء العلم للدفاع عن الإسلام والرد على أعدائه، وجعلنا وإياه من خدمة الإسلام، وكتب لنا جميعاً شفاعة نبيه يوم العرض عليه آمين.

(١) الغزالي: أيها الولد، ص ٩٣.

المصادر والمراجع

ابن الإثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد ابن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني.

- الكامل في التاريخ. دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

ابن جماعة الكتاني: بدر الدين ابن أبي اسحاق ابراهيم ابن أبي فضل سعد الله.

- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم. دار الكتب العلمية - بيروت (بلا تاريخ).

ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي.

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. مطبعة دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن ١٩٥٣ / ١٩٤٠م.

- تلبس إبليس. ط ٤. دار الكتاب العربي - بيروت ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد الطاهري.

- الفصل في الملل والأهواء والنحل. دار الفكر - بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني المروزي.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل. دار صادر - بيروت (بلا تاريخ).

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد

- مقدمة (الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (بلا تاريخ).

ابن سحنون: محمد

- كتاب آداب المعلمين (ملحق بكتاب أحمد فؤاد الأهواني) التربية في الإسلام،

دار المعارف - مصر ١٩٨٠م

ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ط ٢. دار المسيرة - بيروت ١٣٩٩ هـ /
١٩٧٩ م.

ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا

- معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبد السلام هارون. ط ١. دار إحياء الكتب
العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة ١٣٦٦ هـ.

ابن كثير: أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي

- البداية والنهاية في التاريخ. مكتبة المعارف - بيروت (بلا تاريخ).

ابن ماجة: أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني

- سنن ابن ماجة. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار أحياء التراث العربي -
بيروت ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م.

ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم

- لسان العرب. ط ١. المطبعة الميرية - مصر ١٣٠٠ هـ.

الابراشي: محمد عطية

- الاتجاهات الحديثة في التربية. ط ٤. دار إحياء الكتب العربية عيسى الباب
الحلبي وشركاه - القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م.

- التربية الإسلامية وفلاسفتها. ط ٢. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة
١٣٩٥ هـ.

أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني

- صحيح سنن المصطفى. دار الكتاب العربي - القاهرة (بلا تاريخ)

أبو زهرة: محمد

- تاريخ المذاهب الإسلامية. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٨٩ م.

أبو عامر: محمد زكي

- قانون العقوبات القسم العام. الدار الجامعية - بيروت ١٩٩٣ م.

أبو العنين: علي خليل

- فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم. ط ١. دار الفكر العربي - القاهرة
١٩٨٠ م.

ابو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل
- المختصر في أخبار البشر. دار الفكر - دار البحار - بيروت ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

احمد: لطفي بركات

- في مجالات الفكر التربوي. ط ١. دار الشروق - بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الاعسم: عبد الأمير

- الفيلسوف الغزالي. ط ١. منشورات عويدات - بيروت (بلا تاريخ).

امين: احمد

- ظهر الإسلام. ط ٣. مكتبة النهضة المصرية (بلا تاريخ).

- كتاب الأخلاق. موسوعة أحمد أمين الأدبية. ط ٣. دار الكتاب العربي -
بيروت ١٩٦٩م.

امين: حسن

- تاريخ العراق في العصر السلجوقي. منشورات المكتبة الإهلية. مطبعة الإرشاد
- ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

اوبير: رونه

- الجامع في التربية العامة، ترجمة عبدالله عبد الدائم. مطبعة جامعة دمشق -
دمشق ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

الاهواني: احمد فؤاد

- التربية في الإسلام. دار المعارف - القاهرة (بلا تاريخ).

البخاري: ابو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي
- صحيح البخاري. دار إحياء التراث العربي - بيروت (بلا تاريخ). (مصورة عن
مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٨م).

بدوي: عبد الرحمن

- مؤلفات الغزالي. ط ٢. وكالة المطبوعات - الكويت ١٩٧٧م.

البرجس: عارف مفضي

- التوجيه الإسلامي للنشء في فلسفة الغزالي. ط ٢. دار الأندلس - بيروت
١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

بكر: عبد الجواد السيد

- فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف. ط١. دار الفكر العربي - القاهرة
(بلا تاريخ).

البنداري: الفتح بن علي بن محمد

- تاريخ دولة آل سلجوق. ط٢. دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٨ م.

البهي: محمّد

- الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر (مشكلات الحكم والتوجيه). ط٢. دار
الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٥ م.

البيضاوي: ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل. مكتبة الجمهورية المصرية - القاهرة (بلا تاريخ).

الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة

- الجامع الصحيح. تحقيق إبراهيم عطوة عوض. دار إحياء التراث العربي -
بيروت (بلا تاريخ).

جمال: أحمد محمد

- دين ودولة. ط٢. دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م.

- محاضرات في الثقافة الإسلامية. ط٣. دار الشعب ١٩٧٥ م.

الجمالي: محمد فاضل

- آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية. الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٦٨ م.

- تربية الإنسان الجديد - الشركة التونسية للتوزيع - تونس ١٩٦٧ م.

- نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي. الدار التونسية للنشر - تونس
١٩٧٢ م.

الجمبلاطي: علي، التواني: أبو الفتوح

- دراسات مقارنة في التربية الإسلامية. مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة
١٩٧٣ م.

الجندي: أنور

- الإسلام وحركة التاريخ. ط١. دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٨٠ م.

حتي: فيليب «ورفاقه»

- تاريخ العرب. ط٤. دار الكشاف - بيروت ١٩٦٥م.

حسن: أمينة أحمد

- نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. ط١.

دار المعارف - القاهرة ١٩٨٥م.

حسن: حسن إبراهيم

- تاريخ الإسلام. ط٧. مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٦٤م.

حسين: عبد النعيم

- سلاجقة إيران والعراق. ط٢. مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٣٨٠هـ/

١٩٧٠م.

حلمي: أحمد كمال الدين

- السلاجقة في التاريخ والحضارة. ط١. دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع -

الكويت ١٣٩٥هـ.

الحموي: أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله

- معجم البلدان. ط١. مطبعة السعادة - القاهرة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.

الخطيب: عمر عوده

- المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية. مؤسسة الرسالة - بيروت

١٩٧٠م.

خلاف: عبد الوهاب

- علم أصول الفقه. مطبعة النصر - القاهرة ١٩٦٥.

خواجه: أحمد

- الآداب التعاملية في فكر الإمام الغزالي. ط١. المؤسسة الجامعية للدراسات

✍

للتنشر والتوزيع - بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية - ١٤ جزء.

الدارمي: عبدالله بن عبد الرحمن السمرقندي

- سنن الدارمي. حققه فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي. ط١. دار الريات

للتراث - القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

دراز: محمد عبدالله

- دستور الأخلاق في القرآن. تعريب وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين،
مراجعة السيد محمد البدوي. ط ١. مؤسسة الرسالة - بيروت
١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

الدوري: عبد العزيز

- مقدمة في التاريخ الإقتصادي العربي. ط ٤. دار الطليعة - بيروت ١٤٠٢هـ/
١٩٨٢م.

ديوي: جون

- تجديد في الفلسفة. ترجمة مرسى قنديل. الأنجلو المصرية - القاهرة (بلا
تاريخ).

- المبادئ الأخلاقية في التربية. ترجمة عبد الفتاح جلال. الدار المصرية
للتأليف والترجمة - القاهرة ١٩٦٦م.

الذهبي: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان

- سير أعلام النبلاء. حققه شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي. ط ١.
مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

الرازي: زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر

- مختار الصحاح. ترتيب محمود خاطر. مراجعة لجنة من تحقيق التراث لدار
الكتب المصرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة (بلا تاريخ).

الراوندي: محمد بن علي بن سليمان

- راحة الصدور وآية السزور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة إبراهيم
الشواربي، عبد النعيم حسنين، فؤاد الصياد. ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

رضا: محمد جواد

- العرب والتربية والحضارة. دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت
١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

رفاعي: احمد فريد

- الغزالي. دار المأمون. طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر - القاهرة (بلا
تاريخ).

الزبيدي: أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي
- إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار علوم الدين. دار إحياء التراث العربي -
بيروت (بلا تاريخ).

٠ - تاج العروس من جواهر القاموس. ط١. المطبعة الخيرية بمصر - القاهرة
١٣٠٦هـ.

الزرنوجي: برهان الإسلام
- تعليم المتعلم طريق التعلم. تحقيق مروان قباني. ط١. المكتب الإسلامي -
بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١.

زيان: بهي الدين
- الغزالي ولمحات عن الحياة الفكرية الإسلامية. مكتبة نهضة مصر بالجيزة ١٩٥٨.
السبكي: تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي
- طبقات الشافعية الكبرى. ط١. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة
(بلا تاريخ).

السخاوي: محمد عبد الرحمان
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. تحقيق محمد
عثمان الخشن. ط١. دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

سرور: طه عبد الباقي
- الغزالي. سلسلة إقرأ رقم ٣١. دار المعارف بمصر - القاهرة ديسمبر ١٩٥٥م.
سليمان: فتحة حسن

- مذاهب في التربية، بحث في المذهب التربوي عند الغزالي. ط٢. مكتبة نهضة
مصر - القاهرة ١٩٦٤م.

سعد الدين: محمد منير
- دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين. ط١. دار بيروت المحروسة - بيروت
١٤١٢هـ/ ١٩٩١م

السمعاني: أبو سعد
- الأنساب، تقديم وتعليق عبدالله البارودي. ط١. دار الجنان - بيروت
١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

شديد: محمد

- منهج القرآن في التربية، مؤسسة الرسالة - بيروت (بلا تاريخ).

- قيم الحياة في القرآن الكريم. دار الشعب ١٩٧٣م.

شليبي: أحمد

- تاريخ المناهج الإسلامية. ط ٣. مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٤م.

- التربية الإسلامية ط ٢، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٤م.

شمس الدين: عبد الأمير

- التربويات في الفكر العربي الإسلامي. أطروحة دكتوراه دولة في فلسفة

التربية. تشرين الثاني ١٩٧٩م. في الجامعة اليسوعية - بيروت.

﴿ - الفكر التربوي عند الإمام الغزالي. دار إقرأ - بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

شندب: محمد حسين

- الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري.

ط ١. دار النفائس - بيروت ١٩٨٤م.

الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم

- الملل والنحل. ط ١. دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

شهلا: جورج (ورفاقه)

- الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية. ط ٢. مطابع الغندور - بيروت ١٩٦١.

الشيبياني: عمر محمد التومي

- من أسس التربية الإسلامية. ط ١. المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان -

طرابلس الغرب ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

الصدر: محمد باقر

- فلسفتنا. دار التعارف للمطبوعات - بيروت (بلا تاريخ).

صليبا: جميل

- تاريخ الفلسفة العربية. ط ٢. دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٣م.

- المعجم الفلسفي. دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٨٢م.

الطنطاوي: علي

- تعريف عام بدين الإسلام. طبعة دار المنارة الأولى. دار المنارة للنشر

والتوزيع - جدة - السعودية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

عبد الباقي: محمد فؤاد

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. دار إحياء التراث العربي (بلا تاريخ).

عبد الجواد: صلاح

- اتجاهات جديدة في التربية الصناعية. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٢م.

عبد العزيز: صالح

- تطور النظرية التربوية. ط ٢. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٤م.

عبد العزيز: صالح، عبد المجيد: عبد العزيز

- التربية وطرق التدريس. ط ١٥. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٧٧م.

عبد المجيد: عبد العزيز

- القصة في التربية. ط ٤. دار المعارف بمصر - القاهرة (بلا تاريخ).

عبود: عبد الغني

- الإسلام والكون. ط ١. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٧٧م.

- الفكر التربوي عند الغزالي (كما يبدو من رسالة أبيها الولد). ط ١. دار الفكر

العربي - القاهرة ١٩٨٢م.

- الإنسان في الإسلام والإنسان المعاصر. الكتاب الرابع من سلسلة الإسلام

وتحديات العصر. ط ١. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٧٨م.

- في التربية الإسلامية. ط ١. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٧٧م.

العثمان: عبد الكريم

- سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه. دار الفكر بدمشق (بلا تاريخ).

عثمان: علي عيسى

- الإنسان عند الغزالي. تعريب خيرى حماد. مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة

(بلا تاريخ).

العجلوني: إسماعيل بن محمد

- كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس،

تحقيق أحمد القلاش. مكتبة التراث الإسلامي - حلب (بلا تاريخ).

عروة: أحمد

- الإسلام في مفترق الطرق. ترجمة عثمان أمين. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

- الجزائر ١٩٨١م.

عسيري: مريزن سعيد مريزن

- الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي. ط١. مكتبة الطالب الجامعي - مكة المكرمة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

العقاد: عباس محمود

- التفكير فريضة إسلامية. ط٦. دار الرشاد الحديثة - بيروت (بلا تاريخ).
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. ط٢. دار القلم - القاهرة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

علم الدين: محمد

- التربية الإسلامية. كتب إسلامية يصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامي.
العدد ١٩٠ سنة ١٧ القاهرة محرم ١٣٩٧هـ/٥ يناير ١٩٧٧م.

علي: سعيد إسماعيل

- أصول التربية الإسلامية. دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٤م.

الغزالي: محمد

- خلق المسلم. دار القلم للطباعة والنشر - دمشق - بيروت ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد

- إحياء علوم الدين. ط. جديدة مخرجة الآيات القرآنية. دار الكتب العلمية
بيروت (بلا تاريخ).

- الأدب في الدين، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب العلمية - بيروت
(بلا تاريخ).

- إلهام العوام عن علم الكلام، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب
العلمية - بيروت (بلا تاريخ)

- أيها الولد، تحقيق علي محي الدين علي القره داغي. ط٢. دار البشائر
الإسلامية - بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا. ط٤. دار المعارف بمصر - القاهرة (بلا
تاريخ).

- جواهر القرآن ودرره. ط٦. دار الأفاق الجديدة - بيروت ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

- الحكمة في مخلوقات الله عز وجل، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار

- الكتب العلمية - بيروت (بلا تاريخ).
- خلاصة التصانيف في التصوف، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب العلمية - بيروت (بلا تاريخ).
- الرسالة اللدنية، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب العلمية - بيروت (بلا تاريخ).
- الرسالة الوعظية، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب العلمية - بيروت (بلا تاريخ).
- فضائح الباطنية، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي. الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة (بلا تاريخ).
- كيمياء السعادة، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب العلمية - بيروت (بلا تاريخ).
- معارج السالكين، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب العلمية - بيروت (بلا تاريخ).
- معارج القدس في مدارج معرفة النفس. ط ١. مطبعة السعادة بمصر - القاهرة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م.

غنيمة: محمد عبد الرحيم

- تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى. دار الطباعة المغربية - تطوان ١٩٥٣م.

فاندلين: ديو بولد

- مناهج البحث في التربية وعلم النفس. ترجمة محمد نبيل نوفل، سليمان الخضري الشيخ، طلعت منصور غبريال، مراجعة د. السيد أحمد عثمان. ط ٢. مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٧م.

فلسفي: محمد تقي

- الطفل بين الوراثة والتربية. ط ٢. مؤسسة الأعلمي للطبوعات - بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

فهد: بدر محمد

- تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير. مطبعة الإرشاد - بغداد ١٣١٣هـ / ١٩٧٣م.

فهمي: محمد سيف الدين

- النظرية التربوية وأصولها الفلسفية والنفسية. مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة
١٩٨٠م.

فياض: عبد الله

- تاريخ التربية عند الإمامية وأسلافهم الشيعة. بين عهدي الصادق والطوس.
مطبعة أسعد - بغداد ١٩٧٢م.

الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب

- القاموس المحيط. المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت (بلا تاريخ).

القاسبي: أبو الحسن علي بن محمد بن خلف

- الرسالة المنصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين (ملحق
بكتاب أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام). دار المعارف بمصر
- القاهرة ١٩٨م.

القرشي: باقر شريف

- النظام التربوي في الإسلام. دار التعارف للمطبوعات - بيروت ١٤٠٨هـ/
١٩٨٨م.

قرضاوي: يوسف

- الإيمان والحياة. ط ٢. مكتبة وهبة - القاهرة ١٩٧٣م.

القطان: مناع

- مباحث في علوم القرآن. ط ٢. منشورات العصر الحديث - بيروت ١٣٩٢هـ/
١٩٧٢م.

قطب: سيد

- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. ط ١٢. دار الشروق - بيروت ١٤١٣هـ/
١٩٩٢م.

- السلام العالمي والإسلام. ط ٦. دار الشروق - بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- في ظلال القرآن. ط ٥. دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

- التصوير الفني في القرآن. دار الشروق - بيروت (بلا تاريخ)

قطب: محمد

- منهج التربية الإسلامية. ط١٢. دار الشروق - بيروت ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

قمير: «الأب» يوحنا

- الغزالي، دراسة ومختارات. المكتبة الكاثوليكية - بيروت ١٩٤٧م.

القوصي: عبد العزيز

- أسس الصحة النفسية. ط٧. مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٨م.

كارادوفو: البارون

- الغزالي. ترجمة عادل زعيتر، ط٢. المؤسسة العربية للدراسات والنشر

- بيروت ١٩٨٤م.

كاريل: الكسيس

- الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد. مكتبة المعارف - بيروت

١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

كبي: جوزيف عبود ورفاقه

- أسس التربية وعلم النفس. ط٣. مكتبة الشرق - حلب ١٩٦٣م.

الكردي: احمد الحجي

- المدخل الفقهي. دار المستقبل للطباعة - دمشق ١٤٠١ - ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١ -

١٩٨٢م.

كشك: محمد جلال

- الطريق إلى مجتمع عصري. مكتبة الأمل - الكويت (بلا تاريخ).

الكليني الرازي: أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق

- الفروع من الكافي. تحقيق علي أكبر الغفاري. ط٣. دار الكتب الإسلامية -

طهران ١٣٨٨هـ.

ماضي: علي

- فلسفة في التربية والحرية. ط١. دار المسيرة - بيروت ١٩٧٩م.

(الإمام) مالك: أبو عبدالله بن أنس بن مالك الأصبحي المدني

- كتاب الموطأ. ط١. دار الريان للتراث - القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري

- أدب الدنيا والدين. ط٢. دار إقرأ - بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

مبارك: زكي

- الأخلاق عند الغزالي. المطبعة الرحمانية بمصر - القاهرة (بلا تاريخ)

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية

- أبو حامد الغزالي في الذكرى المئوية لميلاده. مطابع كوستاتوماس وشركاه -

القاهرة ١٣٠٨٢هـ / ١٩٦٢م.

محجوب: عباس

- أصول الفكر التربوي في الإسلام. ط١. دار ابن كثير. دمشق - بيروت

١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.

محمود: مصطفى

- الماركسية والإسلام. دار المعارف - القاهرة ١٩٧٥م.

مذكور: علي أحمد

- منهج التربية في التصور الإسلامي. دار النهضة العربية - بيروت ١٤١١هـ /

١٩٩٠م.

مرسي: محمد منير

- التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية. عالم الكتب - القاهرة

١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

مسلم: أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم بن ورد القشيري النيسابوري

- صحيح مسلم بشرح النووي. دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

مطالع: إبراهيم عصمت

- التخطيط للتعليم العالي. ط١. مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٧٣م.

المقري: أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن ابن أبي

العيش

- نفح الطيب. المطبعة الشرقية - امستردام ١٩٦٧م.

المودودي: أبو الأعلى

- مبادئ الإسلام. دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٧م.

الميداني: عبد الرحمن حسن حبيكة

- العقيدة الإسلامية وأسسها. ط١. دار القلم - دمشق ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م.

التجار: الشيخ عبد الرحمن

- خواطر مؤمنة. ط١. دار الرائد العربي - بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

النوري: عبد الغني

- التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة. ط١. دار قطري بن الفجاءة - قطر
١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

النوري: عبد الغني، عبود: عبد الغني

- نحو فلسفة عربية للتربية. ط١. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٧٦م.

نشابة: هشام

- التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات. ط١. دار العلم للملايين -
بيروت ١٩٨٨م.

الهيبي: هادي عثمان

- ثقافة الأطفال. عالم المعرفة. العدد ١٢٣ سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.

اليافعي: أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان. ط٢. مؤسسة الأعلمي - بيروت ١٣٩٠هـ/
١٩٧٠م.

يالجن: مقداد

- منهاج الدعوة إلى الإسلام في العصر الحديث. ط١. المطبعة المصرية
ومكتبتها - القاهرة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

- الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، دراسة مقارنة. ط١. مكتبة الجابي بمصر -
القاهرة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م.

المجلات والنشرات

صحيفة التربية: تصدرها رابطة خريجي معاهد وكليات التربية - مصر -
القاهرة.

مجلة الأزهر: تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - القاهرة.

مجلة التربية: تصدر عن اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم -
قطر.

نشرة تربوية: صادرة عن معهد التربية التابع لرئاسة وكالة الغوث (عمان -
الأردن) محمد سامي هنا Ed.R1

المراجع الأجنبية

- Barazun, J.M. "Teacher In America", Boston, 1945.
Brubacher, J.S., "Modern Philosophies of Education", N.Y., 1950.
Morrison, H.C., "Basic Principles In Education", London 1944

المحتويات

٥	تقديم
٧	شكر وتقدير
٩	الفصل التمهيدي : الإطار العام للبحث
٢٣	الفصل الأول : عصر الإمام الغزالي
٤٥	الفصل الثاني : سيرة الإمام الغزالي
٧٣	الفصل الثالث : الغزالي وعصره
٩٥	الفصل الرابع : الغزالي ونظرته العقدية
١٢٣	الفصل الخامس : التربية في نظر الإمام الغزالي
١٥١	الفصل السادس : ميادين التربية عند الإمام الغزالي
	الفصل السابع : المنهاج في ضوء الفكر التربوي عند الإمام الغزالي
	الفصل الثامن : الطرائق التعليمية/ التعليمية في ضوء الفكر التربوي
٢١٧	عند الإمام الغزالي
٢٥١	الفصل التاسع : الغزالي وأثر الوراثة والبيئة في عملية التربية
٢٧٩	الفصل العاشر : سمات التربية الإسلامية كما عبر عنها الغزالي
٣١٥	الخاتمة
٣١٩	المصادر والمراجع

